مكسيم غوركي

الأم

الجزء الأول

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧



مكسيم غوركي



الجزء الأول

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٢٢

نقله من الروسية الى الفرنسية

رينه هانز بكلر

مقدمة الترجمة الفرنسية

كانت بواكير انتاج غوركي تعكس روابط القوة الجديده التي اخـذت تتركز مع تطور الراسمالية السريع في المجتمع الروسي منذ نهايـة القرن الاخير ، ومما لا شك فيه أن غوركي لم يكن في البدء اشتراكيا الا في قلبه ، ولكن قصصه الاولـى « تشلكاتش » ، « ايزرغيـل العجوز » و « اغنيـة الصقر » وسواها ، كانت تفيض عزة نفس وايثارا وعنفوانا انسانيا، وبطولة شخصية لمصلحة الجماعة كلها ؛ وكانت ترفعه الى مستوى ثوري ؛ وبعضها كقصة « المهرج » ــ ١٨٩٦ ــ كان يشير الى الاهمية التي كان يعلقها عـلى اولى مظاهر الوعي العمالي .

واذا كانت قضايا الاشتراكية لم تكن في رواية « توماس غورديف » ــ ١٨٩٩ ــ قد تطورت بعد الا بشكل تعليمي على يد الصحفي « يجوف » فان ظهور الوعي الاشتراكي في وسط عمالي هو احدى القضايا الاساسية التي تعالجها الرواية اللاحقة لها : « الحظوظ الثلاثة » ــ ١٩٠٠ ــ .

وفي السنة اللاحقة كان « نيل » في مسرحية « البرجوازيون الصغار » ــ ١٩٠٢ ــ نموذجا للعامل الواعي الذي كان مجرد ظهوره ــ على قلة هـذا الظهور ــ يسيطر على المأساة كلها . والى هذا العام نفسه ، عام ١٩٠٢ يمكن ان يرد ــ كما يقول غوركي نفسه ــ مشروع الرواية التي ستصبح فيما بعد « الام » .

ففي « نيجني نوفغـورد » حيث كـان يقيم آنـذاك ، كانت صلتـه بالتنظيمات الاشتراكية المحلية محدودة ، واننا لا ننسى ان حزب العمـال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، ظـل شكليا عندمـا انشىء في مؤتمر « منسك » وانه لم يؤسس بصورة فعلية الا بعد المؤتمر الثاني الذي انعقـد في « لندرة » في تموز عام ١٩٠٣ . اما في « نيجني » فان لجنة الحزب كانت قد تأسست منذ صيف ١٩٠١ .

وتثبت ذكريات المعاصرين ان « غوركي » كان يهب الثـائرين منحته التعليمية التي يتقاضاها ، ويساعدهم بنصائحه وقلمه ، وقد نوهت تقارير

الشرطة ببراعته في « جمع الاعمال المشروعة الى العمل السري لدرجة انه يحول كل نشاط مشروع الى نشاط ثوري » .

وكان توقيفه في آذار ١٩٠١ بسبب مظاهرات الطلبة في « سانت بطرسبورغ » مناسبة لانتفاضات عنيفة قام بها عمال « نيجني » وطلابها .

وبعد سنة اشهر من السجن اذن لغوركي المريض الذي يبصق دما ان يذهب للاستشفاء في « القرم » التي لم يعد منها الى « نيجني » الا في تشرين الاول عام ١٩٠٢ ، فلم يتح له ، والحالة هذه ، ان يشهد احتفال اول ايار حيث كان صانع الاقفال الفتى « ب. زالوموف » وعضو اللجنة التي الفت في العام المنصرم ، يحمل العلم الاحمر ، ويسير في طليعة الموكب .

هذا الفتى الذي اوقف على الاثر ثم حوكم وأدين ، هو الذي سيتقمص بطل « الام » بول فلاسوف .

وكان غوركي ، دون ان يعرفه شخصيا في ذلك الحين ، احد الذين يسعون ليخففوا عنه وطأة السجن ، كما سيكون احد الذين يقدمون له المعونات الضرورية لتسهيل فراره من سيبيريا ؛ ولم يقدر له ان يلتقي به الا بعد سنوات ثلاث . وفيما كان « بيير زالوموف » مطارداً ، اوقف غوركي بسبب الدور الذي قام به في كانون الثاني عام ١٩٠٥ واحتجز في حصن « بيير وبول » المظلم ، ثم نقل تحت ضغط الراي العام العالمي الى « ريغا » حيث فرضت عليه الاقامة الجبرية ، ولكنه استطاع الهرب الى فنلندا ، واقام في « فوكوكالا » عند صديقه الرسام « ريبين » ، وظل من هذه المحطة الصغيرة على الحدود التي تكاد تكون الضاحية الكبرى لمدينة « سانت بطرسبورغ » ظل على صلته بالمنظمات الثورية ، وعلى الاخص ، الحزب الاشتراكي الثوري ، وحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي .

ومن فنلندا اجتاز المانيا ، ليحل في الولايات المتحدة حيث كان عليه ان يقوم بجولة دعائية لصالح الحركة الثورية ؛ وان يجمع الاموال لتنشيطها وتشجيعها . وانما لنجد آثار جهده الدعائي في النداءات الكثيرة التي نشرها في عامي ١٩٠٥ ١٩٠٦ باللغات الالمانية والانكليزية والفرنسية ، في الصحف الاشتراكية بأوروبة الغربية ، وفي رسالته الى « اناتول فرانس » التي هاجم فيها القروض الروسية وخاصة في رسالته الهجائية « فرنسا الجميلة » التي اثارت في بلادنا نقاشات عنيفة ، وقد دمغ البورجوازية الاميركية في هجائياته: « في اميركه » ، « شارلي ماكس » ، « مقابلاتي » .

وفي الوقت نفسه كان يعد « الام » (بدأ كتابتها في تموز عام ١٩٠٦ وانهاها في اوائل كانون الاول) وخلال ذلك انتقل الى ايطاليا ، ولكن قصر هذه المدة لم يحل دون العمل الكثير . ولقد نسخ النص الاصلي اكثر من

خمس مرات ، وكانت التنقيحات التي تدخل عليه هامة . وفي نهايـة كانون الاول بدات الرواية تظهر باللغة الانجليزية في « نيويورك » ثم في المانيـا في Vorwatrs ، ومنذ العام التالـي بدات ترجمـة الرواية الى اللغـات الرئيسـية في العالم ومنها الفرنسـية . وقـد اعتمدت في هذه الترجمـات المخطوطة التي نقحها غوركي في « كابري » ، في الاسابيع الاخيرة مـن عام ١٩٠٦ ، ولم يكن غوركي نفسـه لينقطع عن العودة الى تنقيح هذه النسـخة ، فقد عاد اليها مرتين في عام ١٩٠٧ ثم في عام ١٩١٣ . واخيرا في عام ١٩٢٢ .

وهذا النص الاخير يختلف اختلافا بينا عن النصوص الاولى من حيث الانشاء والخصائص ، وحتى الاسلوب . وهو النص الذي ننقله لاول مـرة الى اللغة الفرنسية .

ان غوركي لم يحـذف او يضف اليه بعض الحـوادث فحسب ، ولم يعدل البعض المهم منها ، بل انه في جلسـة المحكمة جعل دور المحامين ثانويا ؛ واظهر التضاد العنيف بين العالمين : عالم العمال ، وعالم قضاتهم ؛ واسبغ على افادة بول معنى ثوريا أكثر عمقا ، كما حوّر كذلك في الخصائص، فنزع عن بول الملامح التي يمكن ان تضعفه كبطل بلشفي شاب ، كالبعض من عدم الثقة بقواه ، والحنو المصطنع نحو والدته ، واتجاهه الى العاطفية ، وميله الى الزهد .

لقد اجهد نفسـه ليظهره في نفس الوقت أكثر كمالا واكثر طبعية، وجعل حبه الخفي لساندرين أكثر بساطة وانسانية .

وكذلك فان صورة الام عدلت بشكل اكثر عمقا ، فلقد جدد غوركي من شبابها فهي امرأة في الاربعين ما تزال قوية ، منفتحة ، حساسة ، وخفف من تدينها ، وتحولت شفقتهـا الشاملة الـى حب للمضطهدين ، وكـره لمضطهديهم ؛ وحل محل ايمانها الساذج بغلبة العدالة ، السخـط والازدراء والغيظ .

وبقدر ما اغتنت لغته بالبساطة والحياة ، بقدر ما اخذت تبرز تحرر احكامه .

اما الشخص الذي تبدل تبدلا جوهريا فهو على التأكيد « اندريه » : فهذا الثوري العجوز الشديد الرأفة ، الذي كان يبدو كأنه المعلم «لبول» ، انتقل الى الصف الثاني، فاذا ضعفه السياسي ماثلا امام فوضوية الفلاحين، يجعل ما في انسانيته من عاطفية شديدة امرا ملموسا ، ويوضح قوة التفكير والطبع الثوري الاكيد عند بول .

غير ان هذه التنقيحات بالغة ما بلغت من الاهمية ، لا تغير الخـاصة الاساسية للكتاب . انها فيما تصفيه ، تعمقه ، انها تنبثق عن الغاية نفسها

التي دفعت الى تأليفه .

ان غاية غوركي لم تكن في الواقع ، ان يقص ببساطة في عـام ١٩٠٦ مقطعا من النضال الثوري في « نيجني نوفغورد » خلال عام ١٩٠٢ ، بل كانت غايته اثراء ملامح ابطاله بملامح لمجاهدين آخرين ، ومع ذلك فان مـن اهم خصائص هذه الرواية ان الجانب الضعيف من الابتداع الذي استباحـه المؤلف لنفسه كان بعيدا عن كل تزويق ومحصوراً فيما عرفه او لاحظه من خلال تجربته الثورية الخاصة . الا ان مبدأ سياسيا هو الذي تحكم فيمـا إختاره غوركي ، فمنذ عام ١٩٠٢ الى عام ١٩٠٦ كانت الحركة العمـالية قد نضجت ، وكان لينـين قـد اسس الحـزب وطهره مـن « الاقتصاديين » وعصبتهم ، اي من الانتهازية ، وجعل منه منظمة جديرة بقيـادة الثـورة الديمو قراطية في نضالها ضد الحكم الاستبدادي .

وكانت هذه السنوات الاربع من النضال قد انضجت تحت قيـادته طليعة عمالية ثورية من طراز جديد ، وهذه الطليعة هي التي اختار غوركي ان يبرزها ، فادخل في روايته التجربة السياسية لسنوات الثورة . والى هذا الوعي السياسي كـان ابطاله مدينـين بعظمتهم وحقيقتهم ، حقيقـة التاريخ .

من اجل هذا لم يكن بناء الرواية قائما على عقدة تحل وتعقد اقدارا شخصية ، بل على نمو روابط طبقية تعكس الاقدار الشخصية فيها ما بينها من تناقضات. فالخصائص والغنى الداخلي عند كل من ابطال الرواية، وقابليته للانفتاح للحياة وللتأثير عليها ، كل ذلك يتوضح في هذا الغرض كمـا يمكن للكتاب ايضا ان ينتهي بالحكم على بول واندريه ، بتوقيف الام ، ولكن هذه الهزيمة لا تضعف شيئا من الثقة بالنصر النهائي ، نصر القيم الانسانية التي يحملونها في اعماقهم .

وكذلك فان بول وامه كانا يدركان دائما بألا حظ لهما بتجنب السجن والنفي ولكنهما كانا يدركان ان مصيرهما شخصيا ، وهو ابعد ما يكون عن اضعاف الحركة الثورية ، يجب ان يكرس لتنشيط هذه الحركة .

ان اثراءهما الشخصي في الكفاح يعادل سمو الوعي عند الجماهير ، هـذا الوعي الذي يقود ، بصورة عادية ، وبتصميم لا يقهر ، الى انتصـار الثورة .

وبهذا المعنى تكون خاتمة الكتاب ايجابية متفائلة ، لانها تظهر الواقعية في ذكريات غوركي الثورية ، ويكون التاريخ هو نفسه الذي تكفل باظهـار الحقيقة .

وما كان يتهيأ لغوركي ان يعطي روايته الصورة الصحيحة الا انه هو

نفسه كان يعتبر كتابه الذي خط في لهب المعركة ، عملا ثوريا ، وقد امتدحه لينين فقال : « انه يربط بصميمية صنيعه الادبي بالحركة العمالية في روسيا وفي العالم أجمع » .

وفي الظروف القاسية ، ظروف القمع التي اعقبت هزيمة عام ١٩٠٥ . عندما كان «المنشيفيك» يتراجعون برعب، اراد غوركي أن يذكي شجاعة المناضلين الثوريين بأن يوضح لهم محتوى معركتهم ومتطلعاتها . انه اراد كتابا يعبىء ، ومن اجل ذلك كتب الام بسرعة .

لقد قال له لينين :

«لقد احسنت اذ اسرعت ، فان كتابك لمفيد ، لان كثيرا من العمال اسهموا في الحركة الثورية دونما وعي حقيقي ، انهم اسهموا فيها غريزيا ؛ اما الان فانهم سيقرأون «الام» وسيجنون منها الكثير » .

ثم اضاف : « هذا الكتاب تلح اليه الحاحا آنيا » .

... اجل ... انه كتاب آني ... ومن هنا كان خلوده .

القسم الأول

- ١ -

في كل يوم ، في دخان زيت الضاحية العمالية ورائحته ، كانت صافرة المعمل تزأر وترتعش .

وكالصراصير المروعة ، يخرج على عجل ، ومن منازل صغيرة رمادية ، رجال كئيبو الوجوه ، ما يزالون هلكى العضلات ؛ وفي الظهيرة البـاردة ، ينطلقون ، ينطلقون في الشوارع غير المبلطة ، نحو القفص الحجري الشاهق الذي ينتظرهم بهدوء ولا مبالاة ، بعيونه المربعة اللزجة التي لا عداد لها ولا حصر .

تحت اقدامهم يفرقع الوحـل ، وهتافات مبحوحة ، هي هتافـات الاصوات النعسى كانت تسعى لاستقبالهم ، وسباب بذيء كان يمزق الهواء ، ثم تأتي اصوات اخرى الآن ، هي ضجيج الآلات الاخرس ، وبغام البخار .

وعلى الضاحية تشرف المداخن العالية السوداء ، عبوسة ، قاتمة ، كالاعمدة الجبارة .

وفي المساء ، عندما تغرب الشمس ، وتلمع اشعتها الحمراء على زجاج النوافذ ، نوافذ البيوت ، يقيء المعمل مـن احشائه الحجرية ، حثالاتـه البشرية ، وينتشر من جديد في الشوارع ، العمال الملطخو الوجوه بسواد الدخان ، العمال ذوو الاسنان اللامعة ، اسنان الجياع ، ينتشرون ليثقلوا الهواء بالعبق الرطب ، عبق زيوت الآلات .

ان اصواتهم تنطلق الآن نشيطة ، بل فرحة ، فلقد انتهت سخـرة اليوم ، وفي المنازل ينتظرهم العشاء والراحة .

لقد ابتلع المعمل النهار ، وامتصت الآلات من عضلات الرجال ما تحتاج من قوى ، وامحى هذا النهار دون ان يترك ، وراءه آثارا ، وخطا المرء نحو قبره خطوة . . . ولكن عذوبة الراحة بدت له قريبة المنال ، وكذلك لذة الملهى العابق بالدخان . . . وانه لسعيد من اجل ذلك !

وفي ايام الاعياد ينام الناس حتى العاشرة ، ثم يرتدي المترصنون منهم والمتزوجون ابهى ملابسهم ، ويذهبون الى الصلاة ، وهم ينعون على الشباب استهتاره بالامور الدينية ، وعندما يعودون من الكنيسة ، يأكلـون ثـم يستسلمون الى الرقاد حتى المساء .

ولما كان الانهاك المتكدس خلال السنين يفسـد الشهية ، فان الكثيرين منهم يلجأون الى الشرب ، ليثيروا نشاط معدهم بالاحتراقات الكحوليـة الحادة .

وفي المساء يتنزهون في الشوارع بكسل ، يلبس الذين يملكون جزمات جزماتهم ، حتى ولو كان الطقس صاحيا ، ويحمل الذين يملكون مظـلات مظلاتهم ، حتى ولو كانت الشـمس مشرقة .

وعندما يتلاقون يتحدثون عن المعمل ، عن الآلات ، ويكيلون الشـتائم لرؤسائهم . ان احاديثهم وافكارهم لا تتعدى الاشياء المتعلقة بالعمل، وقليلا ما تند خاطرة مسكينة سيئة الاداء ، فتلقي التماعة فريدة في رتابة ايـامهم الدكناء . وعند العودة ، يتجادلون مع نسائهم ، ويضربونهن غالبا دون ان يزعجوا قبضاتهم .

اما الفتيـان فانهم يمكثـون في المقهى ، او ينظمـون سهرات قصيرة متناوبـة ، يعزفون خلالها على الاكورديـون ، ويغنون الاغاني الماجنـة ، ويرقصون ، وينثرون النكات ويشربون .

. . . ويثورون بسهولة لانهم منهكون بالعمل ، فالشراب يثير فيهم حنقا لا سبب له ، حنقا مرضيا ينشد المبرر ، ولكي ينفسوا عن كربهم،يشتبكون تحت ستار مبرر تافه ، يشتبكون بضراوة وحشية ، فاذا هي معاركدامية، يخرج البعض منها مشوها ، وقد تنجلي بعض الاحيان عن ضحايا .

اما علاقاتهم فان شعور الحقد ، حقد الكائدين هو الذي يسودها في الغالب ، وهو حقد اكثر عراقة من نصب عضلاتهم .

لقد ولدوا وهم يحملون هذا الداء النفسي الذي ورثوه عن آبائهم ، والذي يلازمهم كالشبح الاسود ، حتى القبر ، ويحملهم على اقتراف اعمال بغيضة هي ابنة الفظاظة التافهة .

وفي ايام الاعياد يعود الشبان ، في ساعات متأخرة من الليل ، يعودون وثيابهم ممزقة ، ملطخة بالوحل والغبار ، ووجوههم مثخنـة بالجراح ،

يتباهون بلؤم بما سددوا الى رفاقهم من ضربات ، او يهتاجون ويبكـون تعساء ، بشكل يثير الشفقة ، والقرف .

واحيانا يقود الاهل فتاهم الى البيت ، اذ يعثرون عليه منطرحا مـن السكر عند قدم سياج او في حانة ، فيمطرون الجسد الساكن بشتـائمهم وضرباتهم ، ثم يلقونه في سريره ، كيفما اتفق ، ليوقظوه في ساعة مبكرة من الغد ، وليرسلوه الى العمل ، عندما ترسل الصافرة ، كالسيل المظلـم ، هديرها الحانق .

واذا كانت الاهانات والضربات تنهمر قاسية على الفتيان، فان سكرهم وهذيانهم يبدوان ، في نظر الشيوخ ، شيئا مباحا مغتفرا ، فلقد كانوا ، في شبابهم يثملون مثلهم ويضربون ... وكان ذووهم ايضا يضربونهم .

انها الحياة ، كالماء العكر تنساب رتيبة بطيئة ، سنة بعد سنة ، وكل يوم يمر وهو يحمـل نفس العادات القديمة اللازبة ، في التفكير والعمل ، وما من احد يستشعر رغبة للتغيير فيها .

وقد يظهر في الضاحية احيانا ، غرباء لا يدري احد من أين اقبلوا ، فيسترعون الانتباه ، اول الامر ، لانهم ، بكل بساطة مجهولون ، ويثيرون قليلا من الفضول بعد ذلك ، بحديثهم عن الاماكن التي عملوا بها من قبل ، ثم يتلاشى جاذب الجديد ، ويتعودهم الناس ، فيدخلون في النسيان ، وتظل احاديثهم تحمل حقيقة واحدة هي ان حياة العامل هي هي في كل مكان ... فلم التحدث عنها اذن ؟

غير انه قد يوجد بعض الاحيان ، من ينقل الى الضاحية اشياء جديدة بالنسبة لها ، وهؤلاء لا يناقشهم احد فيما ينقلون ، بل ينصغى ، دونمـا تصديق الى اقوالهم الغريبة التي تثير عند البعض سخطا اخرس ، وعنـد البعض الآخر كآبة . ويشعر فريق ثالث بان هناك املا غامضا يقلقهـم . فينصرفون الى الاسراف في الشراب ، ليطردوا هذا الشعور المزعج الذي لا جدوى فيه .

وكان سكان الضاحية اذا ما لاحظوا على دخيل سمة غريبة ، اخذوه طويلا بالقسوة ، وعاملوه بازدراء غريزي كأنهم انما يخشون ان يحمل الـى وجودهم ما يفسد عليه رتابته المتجهمة الاليمة ، الهادئة رغم ذلك .

وكانوا ، وقد تعودوا ان تسحقهم قوة ثابتة لا تتغير ، لا يتوقعون اي تحسن في حياتهم ، بل يعتقدون ان كل تغير قد يطرأ على هذه الحياة ، لـن يكون الا وسيلة تجعل نيرهم اشد وطأة .

وكان اولئك الذين يتحدثون عن اشياء جديدة ، يرون ان سكـان الضاحية يتجنبونهم بصمت ، فيتوارون ، ويعودون الى التشرد ، واذا مـا

لبثوا في المعمل ؛ فانهم يعيشون في عزلة لا يستطيعون معها ان ينصهروا في كتلة العمال الموحدة .

لقد عاش الرجل في هذا الجو خمسين عاما ثم قضى نحبه .

- ٢ -

هكذا كانت حياة صانع الاقفال ميشال فلاسوف ، الرجل القاتم الكث الشعر ذي البسمة الشريرة ، والعينين الحذرتين القابعتين تحت حاجبيه الكثيفين .

لقد كان افضل صانع للاقفال في المعمل ؛ وجبار الضاحية . وكان ربحه نزرا لانه كان فظا مع رؤسائه ؛ وفي كل احد كانت له ضحية . وكان الناس جميعا يكرهونه ويخشونه ، وقد حاول البعض البطش به ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، فكلما كان فلاسوف يشعر بانه هدف هجوم ما ، يلتقط حجرا او خشبة ، او قطعة حديد ، وينتصب على قائمتيه ، ينتظر عدوه بصمت .

وكان وجهه المكسو بلحية سوداء من عينيه حتى عنقه ، ويداه اللتان يغطيهما الشعر ، مثار رعب شامل ، وكان الناس يرهبون ، بصورة خاصة عينيه الصغيرتين النفاذتين اللتين تخترقان الناس كمثقب من فولاذ ، فيستشعر من تقع عليه نظراته ، انه امام قوة وحشية ، لا يقهرها الخوف. قوة على اهبة البطش دونما رحمة .

- تنحي ايتها الجيف .

هكذا كان يقول بلهجة صماء . ومن خلال صوف وجهه الكثيف تلمع اسنانه الصفراء ، فاذا بخصومه يتراجعون ، جبناء ، وهم يمطرونه وابلا من السباب .

ويصيح بهم ثانية :

- ايتها الجيف .

... وتبرق نظراته شريرة حادة كالمخرز ، ثم يشمخ براسه في تحد ، ويتبعهم ويستفزهم :

- حسنا . من منكم يود ان تثكله امه ؟

ولكن احدا لم يكن يود ذلك .

لقد كان نزر الكلام ، وكان تعبيره المفضل : « ايتها الجيفة » ينعت بها مدراء المعمل والبوليس ، ويستعملها حين يخاطب زوجته :

- الا ترين ايتها الجيفة ان سراويلي ممزقة ؟

... وعندما بلغ ابنه « بول » الرابعة عشرة ، راق لفلاسوف ان يمسكه من شعره ، ولكن « بول » امسك بمطرقة ثقيلة وقال بايجاز :

ـ لا تلمسني .
وتساءل فلاسوف :
ـ لماذا ؟
وتقدم نحو الفتى الرشيق الاهيف ، كالظل الكبير حينما يغمر غصنا طريا ؛ ولكن بول هز المطرقة وقال :
ـ هذا يكفي . لن ادعك تمسني .
ورنا اليه الاب ، ووضع يديه المكسوتين بالشعر وراء ظهره ، وقال ساخرا :
ـ حسنا .
ثم اضاف وهو يتأوه بعمق :
ـ يا للجيفة النتنة .
وبعد قليل قال لزوجته :
ـ لا تطلبي مني دراهم بعد الآن . ان بول سيعيلك .
وتشجعت زوجته فسألته :
ـ ولكنك ستهدر مالك كله على الشراب !
ـ هذا امر لا يعنيك ايتها الجيفة ، سأتخذ لنفسي خليلة صالحة .
ولم يتخذ خليلة ، ولكنه منذ ذلك الحين حتى مماته ، اي طوال عامين تقريبا ، لم يلق نظرة على ابنه ، ولم يوجه اليه كلمة .
... وكان يملك كلبا ضخم الجثة ، كثيف الشعر مثله . وكان هذا الحيوان يرافقه كل يوم الى المعمل ، وينتظره ، في المساء ، عند بابه .
وفي الآحاد ، كان فلاسوف يجوب المقاهي . يسير صامتا دون ان ينبس بكلمة ؛ ونظراته تجرح المارة كأنه انما يفتش عن احد ما . وكان كلبه يتبعه طوال النهار يجرجر ذيله المتلبد الضخم .
وعندما كان فلاسوف يعود الى المنزل ثملا ، يجلس الى المائدة ويقدم لكلبه الطعام في طبقه ، وكان لا يضربه ابدا ولا يركله ، ولكنه كان ايضا لا يدلله .
وكان اذا ما تهاونت زوجته برفع المائدة في الوقت المناسب ، يقذف الاطباق الى الارض ، ويضع امامه زجاجة من الكحول ، ويسند ظهره الى الجدار ، ثم يعوي بصوت كريه اصم ، يعوي بأغنية ما ، وفمه واسع مفتوح وعيناه مغمضتان .
... وتعلق كلمات الاغنية الرعاعية الكئيبة بشاربيه اللذين يتساقط منهما فتات الخبز ؛ وتنطلق اصابعه الغليظة تمشط لحيته .
ويغني ، فتنطلق الكلمات متساحبة مستعصية على الفهم ، ويذكّر النغم بالعواء ، عواء الذئاب في الشتاء .

ويستمر في الغناء ما احتوت زجاجته شرابا ، ثم يهوي الى جانب المقعد ، او يلقي براسه الى الطاولة ، وينام على هذا الوضع ، وينام معه كلبه .. الى ان يتعالى نداء الصافرة .

....واودى به فتق بعد ان لبث مسوّد الاسارير ، طوال أيام خمسة، وكان يتقلب على سريره ، مطبق الاجفان ، ويصر باسنانه ، ويقول لزوجته احيانا :

ـ اعطني سما ... سم الجراذين .

ووصف له الطبيب الكمادات ولكنه ، بالاضافة الى ذلك ، اعلن ان العملية الجراحية ضرورية ، وان المريض يجب ان ينقل ، في النهار نفسه ، الى المستشفى..

وصرف فلاسوف باسنانه :

.. ـ يا للشيطان . سأموت لوحدي ايتها الجيفة .

وعندما انصرف الطبيب ، ارادت زوجته الباكية ان تقنعه باجراء العملية ، ولكنه قال لها ، وهو يهددها بقبضته :

ـ سأريك اذا ما شفيت .

... ومات في احد الاصابيح عندما كانت الصافرة تطلق نداءها الى العمل .

وعندما كان مسجى في تابوته ، كان فمه مفتوحا غير ان حاجبيه كانا مقطبين مستثارين . وشيعته امراته وابنه وكلبه، ودانيلو فيسو فشيكوف، اللص السكير الذي طرد من المعمل ، وبعض البؤساء في الضاحية .

ولم تبكه زوجته كثيرا ، ولم يسفح عليه بول دمعة واحدة . أما اولئك الذين كانوا يمرون بالموكب ، من سكان الضاحية ، فكانوا يتوقفون ويرسمون علامة الصليب ويقولون لجيرانهم :

ـ يجب ان تكون بيلاجي مسرورة بلا شك ... لانه مات !

ويرتفع صوت آخر مصححا :

ـ انه لم يمت ولكنه انفلق .

... وبعد ان انزل النعش في حفرته ، انكفأ الناس ، ولكن الكلب ظل هناك منطرحا على الثرى الرطب ، يشم طويلا ، تراب القبر ، دون ان ينبح.

وبعد ايام قليلة ، صرع الكلب ولا يدري احد من الذي صرعه .

وفي يوم احد ، وبعد وفاة ابيه بخمسة عشر يوما عاد بول فلاسوف الى المنزل ثملا ، وولج اول حجرة وهو يترنح ، ثم صاح وهو يضرب الطاولة بقبضته ، كما كان يفعل والده : ـ الى العشاء .

واقتربت امه فجلست الى جانبه ، واحتضنته ثم جذبت راسه الى صدرها ، ولكنه ، وقد كان يسند يده الى كتفها ، دفعها وصرخ :

ـ ابتعدي يا اماه ، ابتعدي خببا .

وخاطبته بصوت حزين ملاشف ، منتصرة على مقاومته :

ـ ايها الحيوان الصغير .

وغمغم بول ، ولسانه العصي يدور بصعوبة :

ـ اريد ان ادخن ، اعطني غليون ابي .

لقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يثمل فيها ، وكانت الكحول قد انهكت جسمه ، ولكنها لم تكن قد اخمدت ضميره ؛ وكان هناك سؤال يضج في راسه :

ـ هل انا ثمل ؟ هل انا ثمل ؟

... واربكته ملاطفات امه ، ومسه الحزن المطل من عينيها ، فشعر برغبة في البكاء ، ولكنه تظاهر ، لكي يقهر هذه الرغبة ، بأنه ثمل اكثر مما هو في الواقع .

وظلت هي تداعب شعره المشعث ، المبلل بالعرق ، وتخاطبه برقة :

ـ ما كان يجب ان ...

... واخذته نوبة تقيؤ ، فحملته الى سريره ، بعد سلسلة من التقيؤات العنيفة ، وغطت جبينه الباهت بمنديل مبلل ، فاستعاد نشاطه بعض التيء ، ولكن كل شيء كان يدور حوله ، وفي محجريه ثقل وفي فمه مرارة وتقزز ؛ وكان يرنو من خلال اجفانه الى وجه امه الواسع ، ويفكر بلا انقطاع :

ـ اني ما ازال صغيرا على الشرب .. ان الآخرين يشربون فلا يحدث ذلك اي ازعاج لهم .. اما انا فالشرب يسبب لي التقيؤ .

وتناهى اليه صوت امه العذب البعيد :

ـ كيف ستتمكن من اعالتي ، اذا ما بدات تدمن الشراب ؟

فاغمض عينيه واجاب :

ـ ان الجميع يشربون .

... وتأوهت بيلاجي ، فهو على حق ، وهي تعلم ان الرجال لا يجدون مكانا آخر سوى الحانة ، ينشدون فيه المتعة ، ومع ذلك فقد اجابته :

ـ اما انت فيجب الا تشرب ؛ لقد شرب ابوك كثيرا بالنيابة عنك ؛ وعذبني كثيرا ، وباستطاعتك إنت ان ترفق بامك .

واصغى بول الى هذه الكلمات الحزينة الوادعة ، وذكر كيف عاشت امه في الصمت ، والنسيان ، يعذبها الانتظار المزق ، انتظار الصفعات . لقد كان في الفترة الاخيرة لا يمكث في المنزل الا قليلا تجنبا للقاء ابيه ، فكاد لذلك ان ينسى امه ، والآن وقد اخذ يستعيد وعيه شيئا فشيئا ؛ ها هو يحدق بها بامعان .

انها كبيرة ، مقوسة القامة قليلا ، وجسمها الذي انهكه الجهد الطويل المتواصل ومعاملة ابيه السيئة ، يتحرك دونما ضجة ، يتحرك بانحراف ، كأنها حين تخطو ، تخشى الاصطدام بشيء ما . وفي وجهها البيضوي الواسع المنتفخ الذي حفرتـه التجاعيد تشع عينان قاتمتان ، حزينتان ، تلفهمـا الكآبة كعيون معظم النسوة في الضاحية . وفوق حاجبها الايمن يلوح ندب عميق الغور ؛ ويخيل للرائي أن اذنها اليمنى ، اعلى قليلا من الاخرى، فهي تبدو ابدا كأنها تنشر في الفضاء اذنا كئيبة ؛ وفي شعرها الكثيف الاسود تلوح خصل بيضاء تتميز بلونها عن الآخريات .

لقد كانت كلها تسيل رقة وحزنا واستسلاما ؛ وكانت عبراتها تسيل على خديها ببطء .

.. وقال لها بول بهدوء :

ـ لا تبكي ، واعطني ماء لاشرب .

ـ سآتيك ببعض الماء المثلج .

وعندما عادت اليه بالماء وجدته قد غفا ، فلبثت جامدة امامه لحظة ، وفي يدها يرتجف الابريق ، ويفرقع الجليد على حفافه .

ووضعت الابريق على الطاولة ، وركعت بصمت أمام صور القديسين !

... وهزت زجاج النوافذ صرخات سكرى ؛ وفي الظلمات ، وضباب الليلة الخريفية تعالى نباح اكورديون . وكان احد المارة يغني بصوت مرتفع جدا ، وآخر يجدف بكلمات بذيئة ، وكانت تسمع ايـضا اصوات نسوة مستثارة ، نسوة كئيبة منهمكة . وكانت الحيـاة في منزل آل فلاسوف الصغير تتابع سيرها اكثر هدوءا وسلاما من ذي قبل ، ومختلفة بعـض الشيء عما هي عليه في المنازل الاخرى . وكان منزلهم هذا يقوم في طـرف الشارع الكبير ، قريبا من منحنى قصير وعر يؤدي الى مستنقع ، وكـان ثلث المنزل عبارة عن مطبخ وغرفة صغيرة تنام فيها الام ، ويفصلها عـن المطبخ حاجز رقيق ؛ اما الباقي فيؤلف غرفة مربعة ذات نافذتين ، يقوم في زواياها سرير بول ، وفي زاوية اخرى مائدة ومقعدان . ولم يكن في البيت من اثاث سوى بعض الكراسي ، وخزانة فوقها مرآة صغيرة ، وصندوق للثياب ، وساعة جدار ، وايقونتان في احدى الزوايا .

وقد فعل بول كل ما يوافق مزاج شاب ناشيء ، فاشترى «اكورديون» وقميصا منشى الصدر ، ورباط عنق براقا ، وجزمة وعصا ، فساوى بذلك اترابه ؛ وكان يسمر ويرقص بعض الرقصات التي تعلمها ، ويعود في الآحاد ، بعد ان يكون قد شرب فأسرف ؛ وكانت « الفودكا » ذات تأثير سيء قوي عليه ، فاذا شرب ، شكا في اليوم الثاني صداعا وحرقـة في المعدة ، وشحوبا في الملامح وخمودا .

وسألته امه يوما :
ـ قل لي ، هل لهوت جيدا مساء الامس ؟
فأجابها بحنق قاتم :
ـ لقد تناولت بعض الكافيار الملون ، وسأذهب غدا لصيد السمك فذلك لي اجمل ، او فاني سأشتري بندقية .
... وكان يشتغل باندفاع ، دون تغيب عن العمل او عقوبة ، وكان كثير الصمت ، تعبر عيناه الزرقاوان الواسعتان كعيني امه ، عن عدم رضاه.
... ولم يشتر بندقية ، ولم يذهب الى صيد السمك ، ولكنه كان يصدف رويدا رويدا عن الحياة المشتركة التي يحياها الفتيان ، فلا يشهد السهرات الا نادرا وانى كان يذهب ، في الآحاد ، فانه كان يعود دون ان يكون قد تناول شيئا من الشراب ابدا .
وكانت امه التي تراقبه بعين يقظة ، كانت تلاحظ ان وجهه الاسمر المسفوح يهزل ، وان نظرته تغدو اكثر صرامة ، وشفتيه تحملان تغضن قسوة غريبة .

وكان يبدو كمن ملأه غيظ اخرس ، أو كمن تلبسه داء وبيل .
لقد كان رفاقه من قبل يأتون اليه ، اما الآن فقد انقطعوا عن زيارته ، لانهم لا يجدونه ابدا في البيت ؛ وكانت امه تلحظ بكثير من الغبطة انه لا يقلد اترابه في العمل ، ولكن احساسا بخطر مجهول كان يجتاح قلبها ؛ عندما كانت تلمس عناده وتهربه من الانتظام في تيار الحياة العامة .
وكانت تسأله احيانا :
ـ انك لست على ما يرام يا صغيري بول .
فيجيب : بلى ... اني على ما يرام .
وتتأوه : كم انت نحيل .
وبدأ يحمل كتبا ويقرأها في الخفاء ثم يخبئها في مكان ما ، وكان احيانا ينسخ فصلا بكامله على ورقة ، ثم يخبئها هي ايضا .
وكانا قليلا ما يتحدثان ، أو يتقابلان ، كان يشرب شايه في الصباح دون أن ينبس بكلمة ، ثم ينطلق الى عمله . وعند الظهيرة يعود ، لتناول الغداء ، فيتبادلان على المائدة بعض الكلمات المجردة من المعنى ، ويتوارى هو من جديد حتى المساء .

واذا ما تصرم النهار استحم بعناية ، وتناول عشاءه ثم انصرف الى كتبه طويلا ، فاذا اقبل الاحد ، انطلق منذ الصباح ، كيلا يعود الا في ساعة متأخرة من الليل .
وكانت بيلاجي تعرف انه يذهب الى المدينة ، ويتردد على المسرح

ولكن احدا لم يعد من المدينة ليخبرها انه رآه . وكان يخيل اليها ان ابنها يغدو على مر الايام اقل ثرثرة ، ولكنها كانت تلاحظ ، في الوقت نفسه ، انه كانَ يستعمل بين الفينة والفينة ، ما لا تدري من الفاظ جديدة لا تفهمها ؛ في حين ان التعابير الفجة القاسية التي تعودتها منه ، قد اخذت تختفي من لغته .

وظهرت في سلوكه تفاصيل كثيرة استرعت انتباهها ، فلقد اقلع عن التصنع وصار يظهر عناية اشد بنظافة جسمه وثيابه ، واصبحت مشيته اشد اطمئنانا وتحررا ، ومظهره اكثر بساطة ورقة ، وهذا ما كان يقلق أمه.

وكان هناك ايضا شيء جديد في سلوكه نحوها ، فلقد كان يكنس احيانا حجرته ، ويرتب سريره ، ايام الآحاد ؛ ويجتهد ، على وجه العموم ، في أن يخفف من عبء مشاغلها ، ولم يكن في الضاحية كلها من يتصرف مثل هذا التصرف .

... وفي احد الايام حمل بول معه لوحة تمثل ثلاثة اشخاص يسيرون بخفة وجذل ، ويتحدثون ، وثبت هذه اللوحة في الجدار وعلق عليها قائلا :

ــ هذا هو المسيح الذي بعث حيا في طريقه الى عمواس .

واعجبت اللوحة بيلاجي ، ولكنها اعترضت :

ــ انك تبارك المسيح ، ولكنك لا تذهب الى الكنيسة .

... وكان عدد الكتب يتكاثر باطراد ، فوق الرف الذي صنعه رفيق له نجار ، وكذلك كانت حجرته تأخذ شكلا لطيفا محببا ، وكان يخاطب بيلاجي بتعظيم ويسميها « الام » ولكنه كان في بعض الاحيان يفاجئها مترددا:

ــ لا تقلقي يا أماه ... فسأعود متأخرا .

... ومن خلال هذه الكلمات كانت تستشعر انه ينطوي على شيء قوي جاد يثلج صدرها ، ولكن قلقها كان ينمو ، وكان الوقت الذي يمر لا يفلح في تهدئة هذا القلق لان الاحساس بأمر غريب مجهول كان يسحق فؤادها.

وكان عدم الرضا من ابنها يداخلها احيانا فتفكر :

« ان الآخرين يعيشون كرجال ، اما هو فيحيا كراهب . انه مسرف في الجدية والاتزان وهذا ما لا يتلاءم وسنه » .

وكانت تتساءل : اتراه عاشقا ؟

ولكن الاهتمام بفتاة ما ، يستلزم توفر النقود ، اما هو ؛ فانه كان يلقي اليها كل اجره تقريبا .

... وانسلخت على هذا المنوال اسابيع وشهور ، بل سنتان من حياة غريبة صامتة تعج بالخواطر ومشاعر الخوف القلق ... وهي خواطر ومشاعر كانت تنمو بلا انقطاع .

وفي احدى الامسيات انتحى بول بعد العشاء زاوية ، بعد ان اسدل ستائر النوافذ ، وشرع يقرأ ؛ والقنديل البترولي معلق في الجدار فوق رأسه .

وخرجت امه من المطبخ بعد ان رتبت الاواني ، واقتربت منه مترددة الخطى ، فرفع راسه ، ونظر اليها نظرة متسائلة .

وقالت هي : لا شيء يا بول ... هذه انا ... ثم نأت عنه بانفعال . ونم عن ارتباكها ارتفاع حاجبيها ؛ ومكثت في المطبخ زمنا ، وهي جامدة ساهمة متشككة تتشاغل طويلا بغسل يديها ، ولكنها ارتدت اخيرا نحو ابنها لتقول له بهمس :

ـ اريد ان اسألك ... ما هذا الذي تقراه باستمرار ؟

... والقى بول الكتاب :

ـ اجلسي يا اماه ..

... وجلست الى جانبه بتثاقل ، وتحفزت كأنها تستعد لسماع امر فظيع . ودون ان يرفع اليها بصره ، اخذ بول يتحدث بصوت منخفض ، وقد اتسم حديثه بطابع من خشونة :

ـ اني قرأ كتبا ممنوعة . انهم يحرمون قراءتها لانها تنطق بالحقيقة عن حياتنا كعمال ؛ وهذه الكتب تطبع في الخفاء واذا عثروا عليها في حوزتنا ، فانهم يزجونني في السجن ، اجل السجن ، لاني اريد أن اعرف الحقيقة ! افهمت الآن ؟

... وشعرت بضيق في التنفس، وجمدت على ابنها عينين شاردتين : لقد بدا لعينيها غريبا متغيرا ، وزين لها ان صوته قد تغير ، فهو اكثر خفوتا ، اكثر امتلاء ، اكثر رنينا . وكانت اصابعه النحيلة تمسد شاربيه الناعمين ونظرته الغريبة تنطلق من تحت حاجبيه لتضيع في المبهم .

وداخلها شعور هو مزيج من الخوف والشفقة على ابنها ، وسألته :

ـ ولم تفعل ذلك يا بول ؟

فرفع راسه ، وقذفها بنظرة قاسية واجاب دون أن يرفع من صوته ، اجاب بهدوء : اريد ان اعرف الحقيقة .

... وكان صوته خفيضا ولكنه حازم ، وكانت عيناه تلتمعان عنيدتين ... وادركت هي أن ابنها قد وهب نفسه ، الى الابد ، لامر غامض رهيب !

لقد كان كل شيء في الحياة بالنسبة لها ، حتميا لا يمكن تجنبه ، ولقد تعودت أن تستسلم دونما تفكير ، لذلك ، راحت تبكي ، وقلبها فريسة الحزن والغم ، تبكي بهدوء ، دون أن تجد الكلمات للتعبير .

وقال لها بول بصوت حنون :

ـ لا تبكي يا اماه .

فخيل اليها كأنه يسمعها كلمات الوداع .

ـ تأملي اية حياة هي حياتنا . لقد بلغت الاربعين من عمرك ، ومع ذلك هل عشت حقا ؟ لقد كان ابي يضربك ، وانا ادرك الآن انه كان يثأر ، على حساب اضلاعك ، من شقائه ، شقاء حياته التي خنقته ، دون أن يدري من اين جاءه هذا الشقاء ! لقد ناضل ثلاثين عاما ، وبدأ نضاله عندما كان المعمل لا يزال مؤلفا من بناءين . . اما الآن فهو مؤلف من سبعة !

وكانت تصغي اليه برعب ونهم ، وكانت عيناه تبرقان جميلتين صافيتين ، وكان يقترب من امه ، وهو يسند ظهره الى الطاولة ، حتى كاد يلامس وجهها الغارق بالدمع . ولاول مرة ، كان يبوح بما وعى ، ويتحدث بكل ايمان الشباب ، وحرارة التلميذ الفخور بمعرفته للحقيقة ؛ هذه المعرفة التي يؤمن بها كدين . لقد كان يتحدث عما يعتقده جليا واضحا ، ولم تكن غايته ان يتحدث الى امه فحسب ، بل ان يبرهن أيضا عن ايمانه .

. . وكان يتوقف بين الفينة والفينة، اذ تعوزه الكلمات فيرنو الى الوجه الكئيب الذي تلمع فيه عينان طيبتان غاصتان بالدمع ، ملفعتان بالرعب والقلق ، يرنو اليه فيشفق عليها ، على امه ، ويمضي ليتحدث عنها هذه المرة ، عن حياتها :

ـ اية هناآت عرفتها . .؟ اتستطيعين ان تحدثيني عن شيء بهيج في حياتك ؟

. . وكانت تصغي ، وتهز راسها باسى ، وتعاني احساسا بشيء جديد لم تعرفه من قبل ، احساسا هو مزيج من الغضب والغبطة ، وكان هذا الاحساس يداعب بعذوبة قلبها المتوجع .

لقد كانت هذه هي المرة الاولى التي تسمع فيها حديثا كهذا عن نفسها، عن حياتها ، وكانت تلك الكلمات التي سمعتها توقظ فيها خواطر مبهمة طواها الحذر منذ أمد بعيد ، وتعيد بلطف ، الحياة الى احساسها المنطفيء بالحرمان المظلم ، الحرمان من الحياة . وتبعث من جديد خواطر شبابها البعيد وانطباعاته .

لقد كانت تستعيد قصة طفولتها مع أترابها . وتتحدث طويلا عن كل شيء . ولكنها كانت ، كالاخريات ، لا تعرف الا التشكي ؛ ولم يكن احد ليشرح لها لم كانت الحياة شديدة القسوة ، شديدة العسر .

وهو ذا ابنها القابع هناك ، يمس بكل ما تقوله عيناه وملامحه وكلماته، يمس بذلك كله قلبها . ويملأ هذا القلب زهوا به ، هو الذي فهم جيدا حياتها ، وحدثها عن آلامها ورثى لها كل ذلك . ما كان لاحد يرثي للامهات !

وكانت تعلم ان ما قاله بول عن حياة النساء هو الحقيقة ، الحُقيقة المرذ . وكانت تشعر بفيض من الاحاسيس العذبة يتدفق في صدرها ، وبعذوبة هذه الاحاسيس المجهولة تبعث الدفء في قلبها .

ـ ثم .. ماذا تريد ان تفعل ؟

ـ اتعلم ثم اعلم الآخرين . يجب علينا نحن معشر العمال ان ندرس ، ان نعرف ، ان ندرك لم كانت حياتنا هكذا شديدة القسوة !

واستعذبت ان ترى عينيه الزرقاوين القاسيتين الجادتين ابدا ، تومضان الآن بكثير من الرقة والعذوبة ، وبدت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، ابتسامة رضى ، في حين ان عبراتها كانت ما تزال ترتعش في تجاعيد وجهها .

لقد كانت موزعة بين شعورين : كانت فخورة بابنها الذي يدرك جيدا اسباب البؤس في الحياة ، ولكنها كانت لاتستطيع أن تنسى أنه ما فتىء صغيرا ، وانه لا يتكلم كأترابه ، وانه قرر أن يخوض المعركة وحده ضد الحياة الرتيبة التي يحياها الآخرون ، والتي تحياها هي ايضا ، وكانت تود أن تقول له :

« وماذا تستطيع ان تفعل وحدك يا صغيري ؟ » ولكنها كانت تخشى ان تغمطه حقه من الاعجاب ، حقه هو الذي بدا لها بغتة حاد الذكاء ، فيه بعض من غرابة .

ورأى بول البسمة على شفتي امه ، وقرأ الانتباه في ملامحها والحب في عينيها ، فأدرك انه استطاع ان يفهمها حقيقته ، وفجر الزهو الفتي ، الزهو بقوة حديثه ، الايمان في نفسه ، فاندفع ، وقد ملأه الحماس ، يتكلم ساخرا تارة ، مقطب الجبين تارة اخرى . وكان الحقد يدوي ، بين الفينة والفينة في صوته ، وكانت امه ، حين تسمع مقاطعه العنيفة القاسية تهز راسها مذعورة وتسأله بصوت خفيض :

ـ اهكذا اذن يا بول ؟

وكان يجيب بصوت حازم : نعم .

لقد كان يحدثها عن اولئك الذين يبتغون خير الشعب ، عن اولئك الذين يبذرون الحقيقة ، والذين يطاردهم اعداء الحياة من اجل ذلك ، يطاردونهم كالحيوانات المتوحشة ، ويزجونهم في السجن ، وصاح بحدة :

ـ لقد رايت رجالا كهؤلاء .. وانهم لافضل من في الدنيا .

واثار « هؤلاء الرجال » رعب امه وودت ان تسأله ثانية :

ـ اهكذا اذن يا بول ؟

ولكنها لم تفعل ، بل راحت تصغي ، مبهورة ، الى احاديث بول عن

هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع فهمهم ، والذين لقنوا ابنها اسلوبا خطرا في القول والتفكير .

وقالت له : لقد أوشك الفجر ان يبزغ ، فهلا ذهبت لتنام ؟

فأجاب : سأذهب حالا . .

ومال اليها يسألها :

ـ هل فهمتني الآن ؟

وتأوهت : أجل . . وفاضت دموعها من جديد . . واضافت وهي تشهق :

ـ انك تلقي بنفسك الى التهلكة .

ونهض ، وخطا بضع خطوات في الغرفة :

ـ حسنا . لقد عرفت ماذا افعل . واي طريق اسلك ، لقد بحت لك بكل شيء ، واني لاتوسل اليك يا اماه ، اذا كنت تحبينني حقا ، الا تحولي بيني وبين ذلك .

وصرخت : يا عزيزي .

ثم تمتمت : ليته لم يبح لي بشيء . .

فأخذ يدها ، وشد عليها بقوة بين يديه .

ومستها هذه الكلمة التي لفظها بكثير من الحرارة « يا اماه » ، وهذا الضغط الغريب على يديها وهو ما لم تألفه من قبل ، فقالت بصوت لاهث :

ـ لن افعل شيئا لاحول بينك وبين ماتبغي ، ولكني اطلب اليك فقط ان تكون حذرا ، ان تكون حذرا .

ودون أن تدري مم تحذره أضافت بأسى .

ـ انك تزداد نحولا يوما عن يوم .

ولفت جسمه القوي المتين بنظرة حادة مدللة ، وقالت له بصوت منخفض ، وعلى عجل :

ـ ليحفظك الله يا بني . افعل ما تشاء فلن امنعك أبدا ، ولن أطلب منك الا أمرا واحدا فحسب ، هو أن تكون حذرا حين تخاطب الناس . يجب ان تتجنبهم . انهم يكرهون بعضهم بعضا . انهم طماعون حسودون ، يسعدهم أن يقترفوا الاذى ، واذا ما شرعت في اطلاعهم على حقائقهم ، في الحكم عليهم ، فانهم سيكرهونك ، سيقضون عليك .

وابتسم بول الذي كان يصغي الى هذه الكلمات المرة ، وهو منتصب بالقرب من الباب :

ـ أجل ان الناس اشرار ، ولكنهم اصبحوا ، مذ تعلمت ان هناك حقيقة على الارض ، خيرا مما كانوا وافضل .

وابتسم ثانية ثم أردف :
ــ وانا نفسي لا ادري كيف حصل ذلك . لقد كنت في طفولتي اخشى كل شيء في العالم ، وعندما كبرت هيئت لان اكره البعض لجبنهم ، ولان اكره الآخرين هكذا دون ان أعرف لذلك سببا ، اما الآن ، فانهم مختلفون بالنسبة الي ، واني لاشفق عليهم كما اعتقد ، انا لا أدري كيف ، ولكن قلبي يتفطر عندما ادرك انهم ليسوا هم المسؤولين عن خساستهم !
وصمت لحظة ، كأنه انما يصغي لشيء في داخله، ثم تابع وهو مطرق :
ــ هذا ما تهمس به الحقيقة .
ورنت اليه بعينيها وغمغمت :
ــ لشد ما تغيرت ، ولشد ما تخيفني ... آه يا ربي .
... وعندما آوى الى فراشه ونام ، نهضت دونما جلبة ، ودنت من سريره بهدوء ، وكان بول مستلقيا على ظهره ، ووجهه الشاحب الصارم يلقي بظله على الوسادة البيضاء ، ويداه تنعقدان فوق صدره ... وكانت هي الى جانب السرير حافيــة القدمين ، تتحرك شفتاهــا بصمت ، وتنحــدر من عينيها ، ببطء ، دموع كبيرة عكرة تتساقط دمعة بعد دمعة .

– ٥ –

... واستمرت حياتهما صامتة ، واستمرا قريبين بعيدين ؛ حتى اذا كان يوم عيد في وسط الاسبوع ، قال بول لامه وهو يهم بالذهاب :
ــ سيكون عندي ، نهار السبت ، ضيوف من المدينة ؟
وسألته امه : من المدينة ؟
ثم انخرطت في البكاء .
وصاح بها بول محنقا : لم تبكين يا اماه ؟
فتأوهت وهي تمسح دمعها بمئزرها : لا ادري لماذا ؟
ــ هل أنت خائفة ؟
فاعترفت : أجل ... اني خائفة .
فمال اليها ، وقال لها بصوت غاضب كما لو كان يخاطب طفلا :
ــ هذا الخوف هو الذي يفجرنا جميعا . اما اولئك الذين يحكموننــا فانهم يستغلون هذا الخوف ، ويزيدوننا رهبة .
فناحت امه : لا تغضب . اتريدني الا اخاف وقد عشت حياتي كلهــا خائفة ؟
فاجابها بصوت خفيض ناعم :
ــ اغفري لي ، لا استطيع ان افعل غير هذا .
ثم خرج .

وظلت مضطربة طوال ايام ثلاثة ، وكان قلبها يتوقف عن الوجيب كلما تذكرت أن اولئك الناس سيأتون الى منزلها .. انهم غرباء لا بد أن يكونوا مخيفين ، ثم انهم اولئك الذين اوضحوا لابنها الطريق الذي يسلكه الآن .

وفي مساء السبت عاد بول من المعمل ، فاستحم ، وابدل ملابسه ، ثم غادر المنزل وهو يقول لامه دون أن يرفع اليها بصره :

ــ قولي لهم اذا جاءوا ، اني سأعود في الحال ؛ وارجوك الا تخافي .

... وتهالكت على المقعد خائرة القوى ، فقطب بول حاجبيه وسالها :

ــ ربما كنت تودين الخروج !

فأحنقها ذلك ، وهزت راسها بالنفي :

ــ لا ، وعلام أخرج ؟

... وكان ذلك في نهاية تشرين الثاني ، وكان ثلج خفيف ناعم قد تساقط اثناء النهار على الارض المتجمدة ، وانها لتسمعه الآن يفرقع تحت أقدام بول الذي مضى ، وفي زجاج النافذة كانت تزدحم الظلمات الكثيفة البغيضة ، تزدحم دون حراك في الكوى ، في حين ظلت هي جالسة تسند مرفقيها الى المقعد ، وتنتظر وبصرها مسمر على الباب .

وكانت تتراءى لها في العتمة كائنات شريرة ، غريبة ألازياء ، تتوافد نحو المنزل من كل صوب ، وكانت هذه الكائنات تمشي بخطى ذئبية مقوسة الظهور ، تتلفت في كل اتجاه ؛ وهوذا الآن شخص ما يطوف بالبيت ، ويتحسس الجدار بيديه .

وتعالى صفير شق طريقه في الصمت كالخط الدقيق ، حزينا منغما ، وتاه متأملا في فراغ الظلمات ينشد شيئا ما ، ويدنو ، ثم غار فجأة تحت النافذة ، كأنه انما غار في خشب الحاجز .

وسمعت وقع خطوات تتساحب في المدخل ، فارتعشت ، ونهضت تمذ عينيها الجاحظتين .

وشرع الباب وظهر اولا راس يعتمر قبعة واسعة من القطيفة ثم انسلت ببطء قامة فارعة محنية ما لبثت أن انتصبت ورفعت ، على مهل ، ذراعها الايمن ، وتنفس الداخل الصعداء بصوت صادر من اعماق الصدر وحيا :

ــ طبتم مساء .

فانحنت الام دون أن تنبس ببنت شفة .

ــ اليس بول هنا ؟

... وخلع الرجل ببطء سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع رجله ، وراح ينكت بقبعته ، ما علق على حذائه من ثلج ، ثم كرر نفس الحركة ونفض الثلج عن حذائه الآخر ، والقى بالقبعة في احدى الزوايا ، ودخل مترنحا على

ساقيه الطويلتين .

ودنا من كرسي فتفحصها كما لو كان يتأكد من متانتها ، ثم جلس وتثاءب مغطيا فمه بيده .

وكان رأسه كامل الاستدارة ، نظيفا من الشعر ، وكان حليق الوجه يحمل شاربين طويلين متهدلي الاطراف .

وتفحص الحجرة بعينيه الواسعتين الجاحظتين كعيني ثمل ، ووضع احدى ساقيه فوق الاخرى ، وسأل وهو يهدهد كرسيه :

ـ وكوخك ، اهو ملك لك أم انك تشغلينه بالايجار ؟

واجابته بيلاجي التي كانت تجلس قبالته :

ـ اننا نشغله بالايجار .

فقال : انه ليس فخما .

وقالت بفتور : سيعود بول بعد قليل ، فانتظره .

فأجاب الرجل الطويل بهدوء :

ـ وهذا ما افعله .

واعاد هدوءه وصوته العذب وبساطة ملامحه ، الشجاعة الى نفسها ، وكان هو ينظر اليها بصراحة ووجه عطوف ، وكان شعاع من المرح يتراقص في عينيه الشفافتين ، وكان في هيكله القرن المحدودب ، بساقيه الطويلتين ، شيء يثير البسمة ويحببه الى القلب ، وكان يرتدي قميصا ازرق ، وبنطلونا اسود ادخلت اطرافه في الحذاء .

وودت الام أن تسأله من يكون ؟ ومن اين اقبل ؟ وما اذا كان يعرف ابنها منذ امد بعيد ، ولكنه تململ فجأة ، وبادرها هو بالسؤال :

ـ ومن ذا الذي ثقب جبهتك هكذا ايتها الام الصغيرة ؟

وكانت لهجته لا كلفة فيها ، وكانت في عينيه بسمة طيبة صافية، ولكن السؤال احنقها ، فزمت شفتيها ، وبادهته بعد لحظة من الصمت ، وبتهذيب بارد :

وماذا يعنيك امر ذلك ايها السيد العزيز ؟

فاستدار نحوها بكل كيانه :

ـ لا تحنقي ، فلقد سألتك هذا السؤال لان أمي بالتبني كانت هي ايضا تحمل في جبهتها ندبا كالذي تحملينه ، ولقد احدثه لها قرينها الذي كان اسكافيا اذ ضربها بأحد القوالب ، لقد كانت هي غسالة ، وعندما تبنتني كان ذلك السكير قد عثر عليها لسوء حظها ، في مكان لا أدريه ، وكان يضربها ، لن اقول لك غير هذا ، فقد كان يتولاني خوف منه كخوفي من الشياطين .

وشعرت الام ان هذه الصراحة قد جردتها من سلاحها ، وفكرت بأن

ما اظهرته من طبع سيء تجاه هذا الرجل الشاذ ، سيحنق بول ، فابتسمت ابتسامة المخطيء :

ـ انا لم اغضب . ولكنك فاجأتني بالسؤال : ان زوجي ، تغمده الله برحمته ، هو الذي قدم لي هذه « الهدية » ... ثم الست انت تتريا ؟

... وارتعشت ساقاه الطويلتان ، وتألق وجهه ببسمة عريضة جدا بحيث تدلت معها اذناه حتى عنقه ثم قال بجد :

ـ كلا ، لست تتريا حتى الآن !

فقالت ، وقد ادركت مغزى مزاحه :

ـ ولكن لهجتك ، كما يقال ، ليست لهجة روسي .

فصاح الضيف بمرح ، وهو يهز رأسه وقد ادرك نكتتها :

ـ بل احسن من لهجة روسي . اني « بيوروسي » (١) من مدينة « كاينيف » .

ـ وهل انت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال وهو يمسد شاربيه :

ـ لقد حللت في المدينة منذ عام تقريبا ، ومضى حتى الآن شهر على مجيئي الى المعمل . لقد التقيت في المعمل برجال اخيار ، ابنك والآخرين ، واني اود ان استقر هنا .

واثار اعجابها ، واحست برغبة في ان تشكره للكلمة الطيبة التي اثنى بها على ولدها :

ـ اتود ان تتناول قليلا من الشاي ؟

فأجاب وهو يهز كتفيه :

ـ ولكن أتريدينني ان اكون المدعو الوحيد ؟ عندما يجتمع الشمل تقومين بواجبات الضيافة !

وعاودها الخوف فهمست بحرارة :

« شريطة ان يكونوا جميعهم مثله »

وسمع من جديد وقع اقدام في الرواق ، وفتح الباب بعنف ، فنهضت الام ، وادهشها كثيرا ان ترى ان القادم لم يكن سوى فتاة حديثة السن ، ذات وجه قروي بسيط ، وضفائر كثيفة من شعر متألق :

ـ احسب اني لست متأخرة ؟

فأجاب البيوروسي الذي كان ما يزال في الحجرة :

ـ كلا .. وهل أتيت مشيا ؟

ـ اجل ... وهل انت والدة بول ؟ طاب مساؤك ... اني ادعى ناتاشا .

ـ واسم ابيك ؟

---

(١) من سكان روسيا البيضاء .

ـ فاسيليفنا . وانت ؟

ـ بيلاجي نيلوفنا .

ـ ها نحن اذن قد تعارفنا .

واجابت بيلاجي بزفرة خفيفة :

ـ اجل .

ثم راحت تتفحص الفتاة باسمة .

... وساعد البيوروسي الفتاة على خلع معطفها :

ـ هل الطقس بارد ؟

ـ نعم ... انه بارد جدا في الحقول .. والريح تصفر ...

... وكان صوت الفتاة صافيا مرنانا ، وفمها صغيرا مكتنزا، وجسمها لدنا ملتفا ، وبعد ان خلعت معطفها ، راحت تفرك بشدة وجنتيها القرمزيتين بيديها الصغيرتين اللتين احمرتا من البرد ، ثم ولجت الغرفة بسرعة ، بعد ان نفضت على العتبة اعقاب حذائها .

ومرت بخاطر الام هذه الفكرة :

ـ لعلها لا تملك جزمة .

وقالت الفتاة وهي ترتجف ، وتمط كلماتها :

ـ اجل .. اني متجمدة ... يا آلهي .

وقالت الام بحرارة وهي تتوجه نحو المطبخ :

ـ ساعد لك الشاي بسرعة ، وستشعرين بالدفء .

... وخيل اليها انها تعرف الفتاة من زمن بعيد ، وانها تحبها كأم طيبة رؤوم ، وراحت وهي تبتسم ، تصغي الى الحديث الذي يدور في الحجرة .

ـ انك لا تبدو منشرحا يا ناكودكا .

ويجيب البيوروسي بصوت منخفض :

ـ وهو كذلك . ان لهذه الارملة عينين طيبتين ، واعتقد ان عيني امي ربما كانتا شبيهتين بهما . وانت تعلمين اني كثير التفكير بأمي ، ويخيل الي دوما انها ما تزال حية .

ـ اتقول انها ماتت ؟

ـ كلا ... هذه امي بالتبني ... وانا اتحدث عن امي الحقيقية . اني اتصورها تتسول في ناحية ما من « كييف » ، وتشرب الفودكا ، وعندما تثمل ، يهشم رجال الشرطة وجهها .

وقالت الام في نفسها : « يا للمسكين » ثم تأوهت .

... واخذت ناتاشا تتكلم بسرعة وحرارة ، ولكن بصوت خفيض ، ثم رن من جديد صوت البيوروسي .

ـ انت ما زلت غرة يا رفيقة . انك لم تتعودي شظف العيش . ان الاتيان بطفل الى الدنيا امر عسير ، وتربيته تربية صالحة امر اشد عسرا .
وقالت الام لنفسها : ارايت ؟
وودت أن تتوجه بكلمة لطيفة معزية الى البيوروسي ، ولكن الباب فتح ببطء ودخل نيقولا فيسو شيكوف . ابن ذلك اللص العجوز لص « دانيلو » . ان الضاحية كلها تعتبره نذب . انه ابدا مقطب الجبين ، يعيش في عزلة عن الناس . وهو دائما عرضة لسخريتهم بسبب خلقه النفور .
وسالته بيلاجي وقد اخذتها الدهشة :
ـ ماذا تريد يا نيقولا ؟
فمسح براحته الواسعة وجهه المجدور الناتيء الوجنتين ، ودون ان يلقي تحية المساء سالها بصوت خفيض :
ـ هل بول هنا ؟
ـ لا .
. . . والقى نظرة على الحجرة ثم دخل .
ـ طبتم مساء ايها الرفاق .
وهمست الام بحقد : « وهو ايضا » ؟ وادهشها أن ترى ناتاشا تمد اليه يدها بوجه طلق ودود .
. . . ثم اقبل شابان يافعان يكادان يكونان غلامين ، وعرفت بيلاجي احدهما . انه « تيو » حفيد عامل في المعمل يدعى « سيزوف » ، وكان ذا وجه مقرن ، وجبهة عالية وشعر مضفر . اما الثاني فكانت لا تعرفه ، وهو ذو شعر املس ومظهر متواضع ، وليس في شكله ـ هو الآخر ـ ما يبعث على الخوف .
. . . واخيرا اقبل بول يصحبه رفيقان تعرفهما، انهما من عمال المعمل.
وسالها ابنها بلطف :
ـ هل اعددت الشاي ؟ شكرا .
وسالته ، وهي لا تعرف كيف تعبر له عن شعورها بالتقدير الذي تحسه في لاوعيها :
ـ اينبغي استحضار بعض المشروب ؟
فأجابها بول وهو يبتسم بطيبة .
ـ كلا . . . لا لزوم لذلك .
وراودها خاطر بأن ابنها قد بالغ كثيرا في تصوير خطر هذا الاجتماع ، ليسخر منها ؛ فسألته بصوت هامس .
ـ اهؤلاء هم الناس الخطرون ؟

فأجاب وهو يلج الغرفة :
ــ أنهم هم بالضبط .
فقالت بغبطة : حسنا . .
ولكنها غمغمت في سرها :
ــ انه ما زال طفلا . . .

-٦-

كان الماء يغلي في ابريق الشاي ، فحملته الام الى الغرفة ، وتحلق الضيوف حول الطاولة . . . اما « ناتاشا » فظلت ، قابعة ، وفي يدها كتاب تقلبه ، تحت المصباح ، في احدى الزوايا .

ــ لكي ندرك لم يعيش الناس حياة سيئة جدا . . .
فقاطعها البيوروسي :
ــ ولكي ندرك لم يكونون هم انفسهم اشرارا . . .
ــ يجب أن نعرف كيف بدأوا حياتهم .
وهمست الام وهي تهيىء الشاي :
ــ اسمعوا يا ابنائي اسمعوا . . .
وصمت الجميع وسألها بول مقطب الحاجب :
ــ ماذا قلت يا اماه ؟
ــ انا ؟
ولكنها ، وقد رات عيونهم جميعا مركزة عليها ، اجابت بارتباك :
ــ لقد قلت ما قلته عفوا ، قلته هكذا لنفسي .
وضحكت ناتاشا ، وابتسم بول ، أما البيوروسي فقال :
ــ شكرا على الشاي أيتها الام الصغيرة .
وردت :
ــ اتشكرني ولم تتذوقه بعد ؟
ثم أضافت ، وهي تحدق بابنها :
ــ لعل وجودي بينكم يزعجكم .
وأجابتها ناتاشا :
ــ وكيف تزعجين ضيوفك وانت ربة البيت ؟
ثم صاحت بلهجة طفولية ضارعة ؟
ــ اعطني الشاي بسرعة يا بيلاجي الطيبة ؛ اني ارتجف ، ورجلاي متجمدتان .
وردت الام : حالا ، حالا .

وشربت ناتاشا فنجانها ، وتنهدت بصوت مسموع ؛ وقذفت ضفيرتها الى ما وراء ظهرها ، واخذت تقرأ في كتاب مصور اصفر الجلد .

... وراحت الام ، وهي تحاول الا تحدث بفناجينها اية جلبة ، راحت تسكب الشاي ، وتصغي الى صوت الفتاة الايقاعي الصافي النبرة ، هذا الصوت الذي كان يواكب الاغنية العذبة ، اغنية ابريق الشاي .

... وكالثوب الرائع انبسطت امام عينيها قصة اولئك البدائيين المتوحشين الذين كانوا يعيشون في الكهوف ، ويصطادون الحيوانات الضارية بالحجارة .

لقد كانت القصة ممتعة ، وكانت بيلاجي ، بين الفينة والفينة ، تلقي على ابنها نظرة متسائلة، وتود أن تسأله عما هو محرم في هذه القصة ؛ ولكنها لم تلبث أن تعبت من متابعة السرد ، فراحت تتفحص ضيوفها :

لقد كان بول يجلس الى جانب ناتاشا ، وكان هو أوسمهم جميعا ؛ وكانت الفتاة وهي منكبة على كتابها ، ترد بين اللحظة واللحظة ، شعرها الذي ينهمر على جبينها .

لقد كانت تهز رأسها ، وتترك كتابها قليلا ، وتخفض من صوتها لتدلي ببعض الملاحظات الشخصية ، في حين كان بصرها ينزلق بمحبة ، على وجوه سامعيها . وكان البيورروسي يستند بصدره العريض الى زاوية الطاولة ، ويلقي نظرة حولاء على شاربيه ، محاولا أن يرى اطرافهما العصية . وكان فيسو شيكوف جالسا على كرسيه ، جامدا كالتمثال ، ويداه على ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العطل من الحاجبين ، يبدو بشفتيه الرقيقتين جامدا كالقناع ؛ وكانت عيناه الضيقتان، تتركزان على ملامحه التي يعكسها النحاس المتألق ، فيبدو كأنه خامد الانفاس .

وكان « تيو » الصغير يصغي الى القراءة ، وهو يحرك شفتيه بصمت كأنه يستعيد الكلمات ، في حين كان رفيقه يبسم بتفكير ، محدودب الظهر ، ويسند مرفقيه الى ركبتيه ، ويحضن خده بباطن كفيه .

وكان احد الشابين اللذين رافقا بول اشقر الشعر ، اجعده ، ذا عينين خضراوين مرحتين ، وكان يريد بلا شك ان يقول شيئا لانه كان يتململ بصبر نافذ . أما الآخر ، ذو الشعر الاشقر القصير ، فقد كان يمر يده على رأسه المائل نحو الارض ، ولا يرى من وجهه شيء . وكان الجو في الحجرة على ما يرام ، وكانت الام تستشعر ارتياحا خاصا تجهل سببه حتى الآن ، وعندما عادت ناتاشا الى القراءة ، مزهوة ، كانت هي تستعيد امسيات شبابها والاحاديث الفجة ، احاديث الفتيان الذين كانت رائحة الخمرة تتضوع من انفاسهم ؛ وتتذكر مزاحهم الوقح الماجن ؛ وهصر قلبها ، وهي تستعيد هذه

الذكريات ، احساس بالشفقة ، الشفقة على نفسها .

... وانبعث في خاطرها ذكرى خطبتها لزوجها الراحل : لقد أمسك بها في احدى الامسيات ، في ظلام المدخل ، وحشرها بالجدار وهو يميل عليها بكل ثقله ، وسألها بصوت محتق اصم :

ـ هل تريدين الزواج مني ؟

وشعرت بانها اهينت ، وآلمته وهي تعرك صدره ، فنشق مخاطه ، واطلق في وجهها انفاسه الحارة الرطبة ، فيما ظلت هي تحاول أن تفلت من بين يديه ، أن تهرب منه . وزمجر :

ـ الى اين تذهبين ؟ اجيبي .

.. ولم تجب؛ فهي جريحة الكرامةحتى الاعماق، يكاد الخجل يخنقها.

وفتح باب المشى فجاة ، فأفلتها ببطء وقال :

ـ سوف ابعث نهار الاحد بمن يطلب لي يدك !

... ولم يخلف وعده .

واغمضت بيلاجي عينيها ، وارسلت زفرة عميقة .

وبغتة ، دوى صوت فيسنو شيكوف الحانق :

ـ انا لست بحاجة لان اعرف كيف كان الناس يعيشون من قبل ، ولكنني بحاجة إلى ان أعرف كيف ينبغي ان يعيشوا اليوم .

فصاح الفتى الاحمر الشعر وهو يثب واقفا :

ـ اجل هذا ما ينبغي ان نعرفه .

ورد تيو :

ـ انا لا اوافقكما على ذلك .

واحتدم النقاش ، وكانت صرخاتهم تتدفق كالسنة اللهب ، ولم تكن الام لتدرك لم يتصايحون . وكان الانفعال يضرج وجوههم جميعا، ولكن احدا منهم ، لم يتلفظ بما تعودت سماعه من خشن الكلام .

ومرت بخاطرها هذه الفكرة :

« لعل وجود الفتاة بينهم هو الذي يهذب الفاظهم »

ووجدت لذة في تامل وجه ناتاشا الصارم ، ناتاشا التي كانت تراقبهم بيقظة كما تراقب الام اطفالها .

وصاحت بهم الفتاة فجاة :

ـ اصغوا الي ايها الرفاق .

فصمتوا جميعا ، واستدارت نحوها عيونهم .

ـ ان اولئك الذين يقولون بانه ينبغي لنا ان نعرف كل شيء هم المصيبون . ان نور العقل يجب ان يهدينا نحن ايضا ، واذا كنا نود ان نمد

بالنور اولئك الذين يغرقون في الظلمات ، فيجب ان يكون باستطاعتنا الرد بشرف وامانة على كل الاسئلة . يجب علينا ان نعرف الحقيقة كلها، والبهتان كله .

وكان البيوروسي يصغي ، ويهز رأسه على ايقاع كلماتها ، اما فيسو شيكوف والفتى الاحمر الشعر ، والعامل الذي جاء مع بول ، فقد كانوا يشكلون زمرة متميزة . وكان ذلك لا يروق للام ، دون ان تدري لماذا .

وعندما انهت ناتاشا كلامها نهض بول ، وسأل بهدوء :

ــ هل ان ما نبغيه هو أن نأكل حتى التخمة ؟

ورد بنفسه على هذا السؤال ، وهو يحدق بثبات ، الى زملائه الثلاثة:

ــ كلا .. علينا ان نبرهن لاولئك الذين يمسكون بأعناقنا ويسملون ابصارنا اننا نرى كل شيء ، واننا لسنا بلهاء ولا بدائيين فطريين . وان ما ننشده ليس هو أن نأكل فحسب ، بل أن نعيش ككائنات جديرة بالحياة . يجب ان نبرهن لاعدائنا ان حياة الارهاق التي يفرضونها علينا ، لا تحول دون ان نكون في مستواهم ذكاء ، بل ، وفوق مستواهم .

... وكانت الام تصغي اليه وترتعش مزهوة اذ تسمعه يحسن الكلام الى هذا الحد .

وقال البيوروسي :

ــ في الناس اكثر من متخم ، ولكن ليس فيهم شرفاء. وعلينا ان نقيم عبر المستنقع الآسن ، مستنقع الحياة ، ممرا يقود خطانا نحو عالم جديد من الطينة الاخوية . هذه هي مهمتنا ايها الرفاق .

وردد فيسوشيكوف بهدوء :

ــ عندما تحين ساعة المعركة ، لا يبقى هناك من وقت لتنظيف الاظافر.

.. وكان اكثر من نصف الليل قد تصرم ، عندما افترقوا ، وكان اول المنصرفين فيسو شيكوف والفتى الاحمر الشعر ، ولم يعجب ذلك ايضا الام ، فغمغمت في سرها محنقة ، وهي ترد على تحيتهم :

ــ انظري كم هم متعجلون !

وسألت ناتاشا :

ــ هل ترافقني يا ناكودكا ؟

فاجاب البيوروسي : هذا اكيد .

وفيما كانت ناتاشا ترتدي معطفها في المطبخ قالت لها الام :

ــ ان جواربك شفافة لا تلائم طقسا كهذا الطقس ، وسأصنع لك ، اذا وافقت ، جوربا من الصوف .

فاجابت ناتاشا ضاحكة :

ـ شكرا يا بيلاجي . ان جوارب الصوف خشنة تخز ساقي .

ـ ولكني سأصنع لك زوجا ناعما لا يخز ساقيك .

فتأملتها ناتاشا بعين غامزة قليلا ، واربكت هذه النظرة الثابتة الام ، واردفت بصوت خفيض :

ـ اغفري لي بلاهتي ، فلقد قلت ما قلته عن طيبة قلب .

وردت عليها ناتاشا : برقة ، وهي تشد يدها :

ـ لكم انت طيبة .

وقال لها البيوروسي وهو ينظر اليها نظرة صرّيحة :

ـ طابت ليلتك ايتها الام الصغيرة .

وانحنى ليخرج في اعقاب ناتاشا .

ورنت الام الى ابنها الذي كان واقفا على عتبة الحجرة يبسم وسألته مضطربة :

ـ ما الذي يضحكك ؟

ـ اضحك لانني فرح .

فقالت بعصبية :

ـ اني عجوز بلهاء ، هذا اكيد ، ولكنني ، في الوقت نفسه ادرك ما هو حسن .

فرد عليها :

ـ انك على حق ، وعليك ان تنامي فلقد حان وقت رقادك .

ـ سأذهب الى فراشي حالا .

.. ودارت حول الطاولة تقوم بتنظيفها راضية ، ومع ذلك فقد كانت ملامحها تنم بعض الشيء عن القلق الحلو الذي كانت تستشعره . لقد كانت سعيدة ، لان الامور قد سارت بهدوء ، وعلى احسن ما يكون الحال .

ـ لقد كان رأيك مصيبا يا صغيري بول . ان البيوروسي لطيف جدا ، والفتاة ، يا لها من فتاة ذكية .. فمن تراها تكون ؟

واجاب بول بايجاز وهو يذرع ارض الغرفة بخطاه :

ـ انها مدرسة .

ـ لذلك فهي فقيرة ، ورديئة الثياب جدا . انها ستصاب بالبرد . واهلها ؟ اين هم أهلها ؟

ـ انهم في موسكو .

وتوقف بول امامها وقال لها بصوت وقور :
ـ اسمعي .. ان أباها ثري يبيع الحديد ، ويملك بيوتا كثيرة ، ولقد طردها لانها اختارت لنفسها هذا الطريق . لقد نشأت نشأة مرفهة ، وكان ذووها جميعا يدللونها .. اما الآن فهي كما ترين . انها ستمشي ، على قدميها ، وفي ظلام الليل ستمشي وحيدة ، اكثر من سبعة كيلومترات .

واذهلت هذه التفاصيل بيلاجي ، فوقفت في وسط الحجرة تحدق ولدها صامتة ، وقد انشقل حاجباها من الدهشة :
ـ هل هي ذاهبة الى المدينة ؟
ـ نعم .
ـ آه .. الا يساورها الخوف ؟
وقال بول مبتسما :
ـ كلا . انها لا تخاف .

ـ ولكن لم ذهبت ؟ لقد كان بامكانها ان تقضي الليل هنا ، كان بامكانها ان تنام في سريري .
ـ ليس ذلك يسيرا ، فلو بقيت رآها الناس في الغد وهي تخرج من هنا . وهذا ما نتحاشاه .

والقت الام بصرها على النافذة ، بسهوم ، واردفت برقة :
ـ لا أفهم يا بول لم كان ذلك خطرا ومحرما ، فانا لا ارى فيه اي ضير .. اليس كذلك ؟

ولم تكن متيقنة ؛ بل كانت تريد من ابنها تأكيدا ، فحدق في عينيها وقال بهدوء :

ـ اجل . ليس في ذلك اي ضير ، ومع ذلك ، فالسجن ينتظرنا جميعا ، ويجب ان تدركي هذا جيدا .
واخذت يداها ترتعشان وقالت بصوت منسحق :
ـ ولكن قد يساعدكم الله ، فيغير الحال .
ورد عليها بحنو :
ـ كلا ، فانا لا اريد ان اخدعك . اننا لن ننجو من السجن .
وابتسمت :
ـ انك مجهد فهيا الى سريرك . طابت ليلتك .
وعندما أصبحت وحدها ، اقتربت من النافذة ، وتسمرت هناك ترنو الى الشارع :
لقد كان الطقس في الخارج باردا ، وكان الظلام مسيطرا ، وكانت

الريح ، وهي تلهو ، تكنس الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الهاجعة ، وتلطم الجدران مدمدمة ؛ ثم تهوي الى الارض ، وتطارد ، على امتداد الشارع ، السحب البيضاء المتكونة من نتف الثلج المتناثر .

وغمغمت بهدوء :

يا يسوع ارحمنا .

... واحست بالدموع تتجمع في عينيها ؛ ورف في داخلها البؤس المنتظر الذي حدثها عنه ابنها بكثير من الوضوح والتأكيد ، رف ، كفراشة ليل عمياء مهيضة الجناح .

وانبسط امام عينيها سهل عار تغمره الثلوج ، وكانت الريح تهب باردة هوجاء بيضاء ، يواكبها صفير خفيف . وفي وسط السهل ، كان يعدو وحيدا متعثرا ، شبح صغير قاتم ؛ تلتف الريح حول ساقيه ، وتنفخ رداءه ، وتذرو في وجهه ذرات الثلج الوخازة .

انها منهكة ؛ يغوص قدماها في الطبقة الكثيفة ، وتعاني البرد والخوف . انها مقوسة الظهر ، انها كعشبة ضعيفة في السهل الاغبش ، في اللعبة المجنونة ، لعبة ريح الخريف .

وعلى يمينها ، عند المستنقع ، كان ينتصب جدار الغابة القاتم ، حيث تنوح اشجار الحور والصنوبر عجفاء عارية .

وامامها ، في البعيد يلوح الق باهت من اضواء المدينة

وغمغمت الام وهي ترتعد خوفا .

ـ يا الهي ارحمنا .

- ٧ -

... كانت الايام تنزلق يوما بعد يوم كحبات السبحة ، وانجمعت اسابيع واشهرا ، وفي كل سبت ، كان رفاق بول يجتمعون في منزله ، وكان كل اجتماع من اجتماعاتهم كدرجة من سلم طويل ، هين المرتقى ، يفضي الى البعيد البعيد ، دون ان يدري احد الى اين ؛ سلم يرفع ببطء اولئك الذين يتسلقونه .

.. وكانت وجوه جديدة تظهر ، حتى ضاقت بهم حجرة آل فلاسوف الصغيرة ، وكادوا يختنقون فيها . وكانت ناتاشا ، تصل مرهقة مقرورة ، ولكنها مزودة دائما بمخزون لا ينضب من المرح والحيوية .

وكانت الام قد حاكت لها جوربا ، والبسته القدمين الصغيرين

بنفسها ، وضحكت ناتاشا باديء الامر ثم صمتت وقالت وهي مغرقة في التفكير :

ـ لقد كانت مربيتي ايضا طيبة ، الى ابعد حدود الطيبة . لكم هو غريب ان يحيا الشعب حياة قاسية مليئة بالخزي والمهانة ، ثم يكون اكثر طيبة ، وارق قلبا من الآخرين .

واشارت الام بحركة من يدها ، الى مكان مجهول ، في البعيد القصي وقالت :

ـ وانك لكذلك ، فلقد ضحيت بذويك وبكل ...

ولم تستطع ان تكمل جملتها ، فتأوهت ، وصمتت ، وراحت تحدق بناتاشا .

انها تشعر نحوها بعاطفة من عرفان الجميل ، ولا تدري لماذا .

وظلت جالسة امامها على الارض ، في حين كانت الفتاة تبتسم حالمة ، محنية الرأس :

ـ ذوي ؟ ان ذلك لا يهم . فوالدي فظ شديد الفظاظة، وكذلك اخي . ثم انه سكير يدمن الخمرة . وشقيقتي الكبرى بائسة . فلقد اقترنت برجل يكبرها سنا ، يكبرها بكثير . وهو فوق ذلك ، ثري ممل شحيح . اما أمي ، فواحسرتاه عليها . انها بسيطة مثلك ، صغيرة كفأرة ، شرود تخشى الناس جميعا . لكم يجتاحني احيانا الحنين الى رؤيتها .

وقالت الام وهي تهز راسها حزينة :

ـ اواه يا صغيرتي المسكينة .

فانتفضت الفتاة بغتة ، ومدت يدها كانها تريد أن تدفع عنها شيئا ما :

ـ اوه .. كلا .. هناك بعض الاوقات استشعر فيها مثل هذا الفرح ، ومثل هذه السعادة .

وبهت وجهها ، ولمعت عيناها الزرقاوان، ووضعت يدها على كتف الام، وأردفت وهي تهمس بصوت عميق متزن :

ـ ليتك تعرفين ، ليتك تدركين اي عمل عظيم نأتيه .

ومس قلب بيلاجي شعور كالغيرة ، كالحسد ، فنهضت، وقالت بكآبة:

ـ لقد فات الاوان ، فانا عجوز مسرفة في الشيخوخة ، جاهلة مسرفة في الجهل .

وصار بول يتولى المبادرة في الحديث ، اكثر فاكثر ، ويناقش بحرارة فائقة ولكنه كان يزداد نحولا ، وكانت الام تلاحظ انه حين يخاطب ناتاشا ،

او حين ينظر اليها ، ترق نظراته القاسية ، ويزداد صوته عذوبة ، ويبدو اكثر بساطة .

وتهمس الام في سرها وتبتسم : ان شاء الله .

... وفي الاجتماعات ، عندما كان النقاش يبلغ اوج حرارته وعنفه ، كان البيوروسي يقف مترنحا كمضرب الجرس ، ويتكلم بصوته المرن الضاج، فتغطي بساطته وما يحمله هذا القول من طيبة ، على اصوات الآخرين ، ويعيدهم الى الهدوء والاعتدال . اما فيسو شيكوف العبوس ابدا ، فانه كان يثير جوا من التوتر الشامل ، وكان هو والفتى الاحمر الشعر المدعو « ساموالوف » يبدآان العراك ويشد ازرهما ايفان بوكين ، الفتى المستدير الراس ، الاشقر الحاجبين الذي يبدو كالمغسول .

وكان « جاك سوموف » الفتى الاملس الشعر ، الشديد النظافة ، يتكلم نزرا دون ان يرفع صوته الممتلىء ، وكان كـ « تيو » مازين الشاب العريض الجبهة ، يتفق دائما في وجهة نظره مع بول والبيوروسي .

واحيانا ، كان نقولا ايفانوفيتش هو الذي ياتي من المدينة بدلا من ناتاشا ؛ وكان يلبس نظارتين ، ويحمل لحية صغيرة صهباء ، ويحتفظ بلهجة الاقليم النائي الذي تحدر منه ، وكان يبدو دائما ساهم النظرة ، موزع الفكر ؛ وكان يتحدث عن الاشياء البسيطة ، عن حياة العائلة ، عن الاطفال والتجارة والبوليس ، وثمن الخبز واللحم ، وكل ما يتعلق بالحياة اليومية ، وكان يكتشف في كل شيء النفاق والفوضى ونوعا من البلاهة المضحكة غالبا، المؤذية دائما ؛ وكانت بيلاجي تشعر كأنه آت من بعيد ، من مملكة اخرى يحيا الفارس فيها حياة شريفة هينة ، لذلك يبدو له كل شيء هنا غريبا ، فهو لا يستطيع أن يتعود هذه الحياة ، وان يتقبلها كضرورة . انها لا تروق له ، ولا تبتعث فيه أية رغبة مطمئنة ، بل انه يصر بعناد على أن يعيد صياغتها كما يشتهي .

لقد كان شاحب اللون ، تتوزع حول عينيه تجعدات خفيفة ، وكان صوته عذبا ويديه أبدا حارتين ؛ وعندما كان يصافح بيلاجي ، يحتضن يدها كلها بين اصابعه القوية الخشنة ، وكانت هذه الحركة تبعث في قلبها الراحة والاطمئنان .

وكان بين الذين يقبلون من المدينة ايضا ، فتاة هي اكثرهم مثابرة على الحضور ، فتاة متناسقة الجسم فارعة القوام ، رحبة العينين ، ذات وجه أصفر هزيل ، تدعى « ساندرين » .

وكان في خطوها وحركاتها شيء من الرجولة ، وكانت تقطب حاجبيها الاسودين كالمستشارة ، وكانت جوانب انفها الاقنى ترتعش عندما تتكلم .

وكانت هي اول من اعلن بصوت قوي اجش :
ــ نحن اشتراكيون .

وعندما سمعت الام هي الكلمة ، رنت الى الفتاة برعب صامت . لقد سمعت ــ وكان ذلك في شبابها ــ ان الاشتراكيين هم الذين قتلوا القيصر ؛ وشاع يومذاك ان الملاكين، وقد رغبوا في الانتقام من القيصر لانه حرر الاقنان، اقسموا على ألا يقصوا شعورهم الا اذا صرعوه ، وهم من اجل ذلك سموا اشتراكيين .

والآن . . . لا تستطيع ان تفهم لم كان ابنها ورفاقه اشتراكيين !
. . . وعندما انصرف الحضور جميعا كاشفت بول :
ــ اصحيح انك اشتراكي يا بول ؟
فاجاب بحزم وصراحة كعادته :
ــ اجل ، فهل في ذلك ما يضير ؟
فاطلقت زفرة عميقة ، وتابعت ، منكسة الاجفان .
ــ أهذا ممكن يا بول ؟ ولكنهم ضد القيصر . وقد قتلوا واحدا من القياصرة .

وخطا بول في الحجرة بضع خطوات ، وقال وهو يمر يده على خده باسما :
ــ انهم شيء لا حاجة لنا به .

. . . وحدثها طويلا ، وبصوت رصين مطمئن ؛ وكانت هي تحدق في عينيه وتفكر :
« انه لن يقترف شرا ابدا ، ولن يستطيعه . »

. . واخذت هذه الكلمة الرهيبة « اشتراكي » تتردد بعد ذلك كثيرا ، ثم اخذ اثرها العنيف يتلاشى رويدا رويدا حتى غدت شيئاًمألوفا في سمعها، تماما كمجموعة التعابير الاخرى التي تستعصي على فهمها .
ولكن « ساندرين » كانت لا تعجب الام ، وكانت كلما راتها ، تشعر بالاضطراب والضيق .

وفي احدى الامسيات قالت وهي تقلب شفتيها استياء :
ــ ان ساندرين شديدة القسوة . انها تأمر دائما : « افعل هذا وانت افعل ذاك » . . . واطلق البيوروسي ضحكة مدوية :

ـ احسنت . . . لقد اصبت الهدف ايتها الام . . اليس كذلك يا بول ؟
ودنا الى الام ، وقال ساخر النظرة :
ـ يا للنبلاء .
ورد بول بجفاف :
ـ انها فتاة طيبة .

ـ حقا انها لكذلك ولكنها لا تدرك ان عليها هي كنبيلة ان تطيع ، واننا نحن الذين نشاء ونقدر ان نحقق ما نشاء .

ودخلا في نقاش حول موضوع لم تفهمه .
. . . ولاحظت الام ان ساندرين كانت، بصورة خاصة، شديدة القسوة بالنسبة لبول . وكانت هذه القسوة تبلغ احيانا حد العنف ؛ وكان بول يبتسم ويصمت ، ويتفرس في وجه الفتاة بنفس النظرة الوادعة التي كان من قبل ينظر بها الى ناتاشا ؛ وكان هذا ايضا لا يروق للام .

وكانت بيلاجي احيانا تفاجأ بغمرة الفرح الذي يستخف الفتيان فجأة وينتشر بينهم كالعدوى . وكان ذلك يحدث عادة في الامسيات ، حين يقرأون في الصحف انباء تتعلق بالعمال في الخارج . ان عيونهم حينئذ تلتمع بالفرحة، ويغدون ، وهذا ما يحيرها ، سعداء كالاطفال ، ويضحكون ضحكات صافية مرحة ، ويربتون بحب ، على اكتاف بعضهم بعضا

ويصرخ احدهم وقد اثملته الغبطة .
ـ يا لهم من ابطال . . العمال الالمان .
ويتعالى الهتاف ثانية :
ـ ليحيا عمال ايطاليا .

وعندما كانوا يرسلون بهتافات الاعجاب هذه الى البعيد ، الى رفاق لا يعرفونهم ابدا ، ولا يفهمون لغتهم ، كانوا على يقين بأن اولئك المجهولين سيسمعونهم ، وسيدركون تحمسهم .

ويعلن البيوروسي براق العينين ، طافح القلب بحب يحتضن الكائنات جميعا ، يعلن :

ـ انه لجميل ان نكتب اليهم ، اليس كذلك ؛ لكي يدركوا ان لهم في روسيا اصدقاء يعتنقون نفس العقيدة ، ويعيشون للاهداف نفسها ، ويغتبطون بانتصاراتهم .

ويتحدثون جميعا ، والنظرة الحالمة في عيونهم ، والبسمة على شفاههم، يتحدثون طويلا عن الافرنسيين والبريطانيين والسويديين كأصدقاء

شخصيين لهم ، ككائنات قريبة منهم يقدرونهـا ويقاسمونها افراحهـا ؛ ويستشعرون آلامها .

وفي الحجرة الصغيرة ؛ كان يولد شعور القربى الروحية التي تربـط بين عمال الارض كلها ؛ وكانت الام ايضا تلمس هذا الشعور الذي يجعلهم جميعا قلبا واحدا ، تلمسه رغم انها لا تفهمه بوضوح ؛ وكانت تستمد منه الفرح والشباب ، وقوة طاغية تزخر بالآمال .

وقالت يوما للبيوروسي :

ــ غريب امركم . ان الجميع بالنسبة لكم رفاق ؛ ارمنيين كانوا ام يهودا ام نمساويين . انكم تحزنون لحزن الناس جميعا ، وتفرحون لفرحهم .
وهتف :

ــ « أجل ، رفاق للجميع ايتها الام الصغيرة ، رفاق للجميع . ليس هناك بالنسبة لنا امم ولا عروق ، بل هناك اصدقاء او اعداء ؛ والعمـال جميعا اصدقاء لنا ، اما الاثرياء ، وأولئك الذين يحكمون ، فهـم جميعـا اعداء لنا .

اننا حين نلقي نظرة مجردة على العالم ، ونرى اية كتلة ضخمة نكـون نحن العمال واية قوة مختزنة فينا ، نحس بغمرة من الفرح كأن قلوبنا في عيد . ان هذا الشعور نفسه ، ايتها الام الصغيرة ، هو ما يحسه الفرنسي والالماني ، والايطالي ، حين يصون الحياة . اننا جميعا ابناء ام واحدة ؛ وفكرة واحدة لا تقهر ، هي اخوة العمال في الاوطان كلها ؛ وهـذه الاخوة تبعث فينا الحرارة . انها الشمس المشرقة في سماء العدالة ، وهذه السماء هي في صدر العامل .

ان الاشتراكي ، مهما كان مبتغاه ، وأي اسم اختار ، اخ لنا في الفكر، اخ لنا اليوم والى الابد ، اخ لنا على مدى الاجيال .

.. وكان هذا الايمان الطفولي الذي لا يتزعزع ، يعبر عن نفسه يوما بعد يوم في هذه الشلة القليلة ، وبقوة متنامية ؛ وكانت الام كلما لاحظت ذلك الفيض من الامل ، تشعر شعورا غريزيا بأن هناك شيئا عظيما مشعا قـد ولد في العالم ، شيئا كالشمس ، التي ترى في كبد السماء .

وكانوا يغنون احيانا كثيرة ، يغنون بمرح وملء حناجرهم ، اغنيات شائعة ، واحيانا كانوا يستهلون مرحهم باغنيات جديدة فائقة الحلاوة ؛ ولكنها غريبة الالحان كئيبتها ، يخفضون فيها من اصواتهم الجهيرة ، كأنهم انما يؤدون لحنا دينيا ، وتصفر وجوههم ، وتتأجج باللهب ، وتنساب من الكلمات الرنانة قوة فائقة .

وكانت احدى هذه الاغنيات الجديدة ، بوجه خاص ، تبعث الكآبة والقلق في نفس بيلاجي . انها اغنية لا تسمع فيها التأملات الحزينة لنفس جريحة وحيدة : تائهة في الدروب المظلمة ، دروب الشكوك المعذبة ، ولا شكايات لا وصف لها ولا لون ، شكايات روح هدها الاملاق والخوف . ولم تكن ترن بالاهات المغمومة ، آهات قلب قوي يشده الى المدى نهم غامض ، ولا بصرخات التحدي من جسور يقف على اهبة الاستعداد ليسحق الخير والشر دونما تمييز ، ولم يكن فيها ابدا ذلك الحقد الاعمى ، حقد المهان الذي يحطم كل شيء ليثأر لكرامته . وبكلمة واحدة ... لم يكن فيها اي صدى للعالم الهرم ، عالم العبيد .

ولم تكن تروق للام كلماتها القاسية ، ولا نغمها الصارم ، ولكنها كانت مع ذلك ، تزخر بقوة اكبر من الكلمات والانغام ، قوة تتخطى الكلمات والانغام لتوقظ في النفس شعورا مسبقا بشيء فائق السمو . وكانت الام تقرأ ذلك في وجوه الفتيان وعيونهم ، وتحسه يضج في صدورهم ، وكانت ، تحت تأثير تلك القدرة الغامضة الكامنة في الاغنية ، تصغي اليها ابدا ، بانتباه شديد ، وبقلق يفوق كثيرا ذلك الذي تثيره الاغنيات الاخرى في نفسها ...

... وكانوا يؤدونها بهدوء اكثر من الاخرى ، ولكنها كانت تضج بالفتوة ، وتسكر كأنسام اليوم الاول من آذار ، كأنفاس اول يوم من ايام الربيع .

وكان فيسوشيكوف يقول مقطب الحاجبين :

ــ سيأتي اليوم الذي يتاح لنا فيه ان ننشدها في الشارع .

وفي احدى المرات التي ادخل والده فيها الى السجن بتهمة السرقة ، اعلن بهدوء :

ــ نستطيع الآن ان نجتمع في منزلي .

وفي كل مساء تقريبا ، بعد الانصراف من العمل ، كان لا بد لاحد افراد هذه الشلة من أن يأتي الى منزل بول ، وكانوا يقراون معا ، وينسخون بعض الفصول من الكتب ، ويبدون كثيري المشاغل ، ولم يكن لديهم وقت للاستحمام ؛ وكانوا يتناولون العشاء ، والشاي ، دون ان يتخلوا عن كراريسهم ، وكانت احاديثهم تزداد استعصاء على ادراك الام .

وكان بول يردد دائما :

ــ نحن بحاجة الى جريدة !

وكانت حياتهم تزداد حركة وحرارة ، وكانوا ينتقلون بسرعة من كتاب الى آخر ، كما ينتقل النحل من زهرة الى زهرة .

وقال فيسوشيكوف يوما :

ـ لقد بدأ الناس يتحدثون عنا . ومن الاكيد انه سيقبض علينا عما قريب .

واجاب البيوروسي :
ـ لقد وجد السمن ليقع في الشبكة .

... وكان اعجاب بيلاجي بالبيوروسي يزداد يوما عن يوم ، وكان اذا ما دعاها الام الصغيرة .. يخيل اليها كأن يد طفل ناعمة تدغدغ وجنتيها ؛ وكان هو الذي يقطع لها الحطب عندما يكون بول مشغولا .
وفي احد الايام أقبل يحمل على كتفه لوحا خشبيا ، ثم اخذ الفأس واستبدل بمهارة ورشاقة ، احدى الدرجات المهترئة امام مدخل البيت. وفي مرة اخرى ، اصلح السياج المتهدم ، وكان ، وهو يقوم بعمله ، يصفر الحانا حلوة كئيبة .

وقالت الام يوما لابنها :

ـ لم لا تؤوي البيوروسي في منزلنا ؟ فذلك خير لكما معا ؛ لانه يوفر على كل منكما الذهاب لرؤية الآخر ؟
فسألها بول وهو يهز كتفيه :
ـ ولم تزعجين نفسك ؟
ـ ازعاج ؟ لقد كانت حياتي كلها مليئة بالازعاج دون ان ادري سببا لذلك . واني لارى ان بامكاني أن أؤدي هذه الخدمة لفتى طيب مثله .

ـ افعلي ما شئت ، وسأكون سعيدا اذا ما رضي بذلك .

... وجاء البيوروسي فأقام في بيتهم !

- ٨ -

.. ولفت البيت الصغير في طرف الضاحية انتباه الناس ، فراحت الابصار المرتابة تخترق جدرانه ، واخذت تحوم فوقه اجنحة الشائعات من كل لون .

وكان الناس يحاولون ان يكشفوا السر الغامض الذي يخفيه ، وكانوا في ظلمة الليل يتلصصون ، من النوافذ ، وفي بعض الاحيان كان ينقر الزجاج جبان ، ثم لا يلبث أن يولي الادبار سريعا .

واستوقف بيلاجي ، في احد الايام ، صاحب فندق يدعى

« بيغونتسوف » استوقفها في عرض الشارع . وكان عجوزا ، ضئيل الجسم ، حسن البزة ، يربط باحكام حول عنقه الاحمر المترهل ، منديلا من الحرير الاسود ؛ ويرتدي صدارة سميكة ، خبازية اللون ، وتمتطي انفه الدقيق اللماع نظارتان من صدف ، وهذا ما اكسبه لقب : «العين العظيمة» ، وبدون ان يتوقف او ينظر جوابا فاجأها بسيل من الكلام المفرقع كالحطب اليابس :

ــ كيف انت يا بيلاجي ؟ وكيف حال صغيرك ؟ الن تزوجيه عما قريب ؟ لقد اصبح في سن الزواج ، وفي زواج الابناء راحة الاهل . ان الحياة الزوجية تكسب المرء عافية عقلية وجسدية . انها تحفظه كما يحفظ الخل الفطر . وانا لو كنت مكانك لزوجته . في عصرنا يجب ان نأخذ بعين الاعتبار وجود كل انسان ، فلقد اخذ الناس يعيشون على هواهم ، وغزت الفوضى العقول ، وصار الناس يأتون اعمالا ذميمة . لقد انصرفت الشبيبة عن بيوت اللـه وتجنبت الاندية العامة ، وصارت تجتمع في الخفاء ، وتتهامس في الزوايا . ولماذا يتهامسون ؟ اتسمحين لي ان اسألك ذلك ؟ ولم يبتعدون عن المجتمع ؟ وماذا يعني القول الذي لا يستطيع المرء ان يجهر به امام الناس ، في الفندق مثلا ؟ اسرار ؛ اسرار ؟... ولكن كنيستنا الرسولية المقدسة هي مكان الاسرار ؛ اما الاسرار الاخرى التي تطبخ في الزوايا فمنشؤها ضلال العقل . أتمنى لك صحة طيبة .

... ورفع قبعته ، وهو يطوي ذراعه بمودة ، ولوح بها في الهواء ثم مضى وتركها فريسة الارتباك .

وفي مرة اخرى التقت ماريا كورسونوف ، جارة آل فلاسوف ، وهي ارملة حداد كانت تبيع المآكل عند باب المعمل ، التقت الام في السوق وقالت لها :

ــ راقبي ابنك قليلا يا بيلاجي ؟

ــ ولماذا ؟

واجابتها ماريا بلهجة غامضة :

ــ انه يثير الاقاويل ، الاقاويل السيئة يا عزيزتي ، ويشاع انه ينظم نوعا من الجمعيات العمالية على طريقة السياطين ، وهذا يدعى « فرقا » . انهم سيتبادلون ضرب السياط مثلهم .

ــ كفى حماقات يا ماريا .

وردت البائعة :

ـ يجب أن تصبي اللوم على مرتكبها لا على ناقلها .

... وحملت الام كل هذه الاقاويل الى ابنها ، فهـز كتفيه دون ان يجيب ، أما البيوروسي فقد اطلق العنان لضحكته الطيبة الداوية .

وقالت لهما : ... والفتيات أيضا ناقمات عليكم جدا ؛ فأنتم من خير الفئات ، وكلكم من اطيب العمال ، وكلكم لا تعاقرون الخمرة ، ولا تأبهـون لهن ؛ ويقال أن فتيات منحطات يأتين من المدينة للقائكم .

وصرخ بول بسخرية القرف :

ـ لا شك في ذلك .

وزفر البيوروسي :

ـ كل ما في المستنقع تفح منه رائحة النتن . وكنت تحسنين صنعا ايتها الام الصغيرة لو شرحت لهذه البطات الناشئة ما هو الزواج ، لكيلا يستعجلن بتحطيم اضلاعهن .

ـ انهن يعرفن ذلك جيدا يا عزيزي ، ويدركنه ولكنهن لا يعرفن ماذا يفعلن بأنفسهن .

ولاحظ بول :

ـ انهن يسئن الفهم ، والا لوجدن طريقا آخر .

والقت الام نظرة على وجهه الصارم :

ـ حسنا ، علمهن انت ، فليس عليك الا ان تدعو أقلهن طيشا .

واجاب بول بجفاف :

ـ ليس ذلك مستطاعا .

وسأل البيوروسي : وماذا لو حاولنا ؟

فصمت بول لحظة ثم قال :

ـ أن ذلك يبدأ بنزهات ثنائية ... ثم يتزوج البعض ، وينتهي الامر .

... واوغلت الام في تأملاتها . لقد كانت صلابة بول الرهبانية تقلقها ، وكانت تلاحظ ان رفاقه ، حتى الاكبر منه سنا كالبيوروسي مثلا ، يعملون بتوجيهاته ، غير انه كان يتراءى لها ان الجميع يرهبونه ، ولا يحبونه بسبب من هذه القسوة .

وفي احدى الامسيات كانت مضطجعة ، وكان بول والبيوروسي مـا زالا يقرآن ، فأصاخت بسمعها ، من خلال الحاجز الرقيق ، الى حديثهمـا الخفيض :

وقال البيوروسي فجأة :

ـ اتعلم أن ناتاشا تعجبني ؟

ولم يجب بول على التو ، بل قال بعد صمت :
ـ أعلم ذلك .
واحست بالبيوروسي ينهض ببطء ويذرع الحجرة ، وسمعت قدميه الحافيتين تتساحبان على أرضها ؛ وسمعته يصفر لحنا حزينا ، ثم يعود الى الكلام :
ولكن هل لاحظت هي ذلك ؟
وصمت بول ، وسأله البيوروسي خافضا من صوته :
ـ وماذا تعتقد أنت ؟
ـ لقد لاحظت . ومن اجل ذلك رفضت العمل معنا .
وعادت خطى البيوروسي تتساحب على أرض الحجرة ، وعاد صفيره الخفيف يتهدج ، ثم سأل :
ـ وماذا قلت لها . . .؟
ـ ماذا ؟
فهمس : اني . . . اني .
فقاطعه بول : ولم تقول ذلك ؟
وتوقف البيوروسي ، واحست الام انه يبتسم :
ـ حسنا . انا اعتقد ان الشاب اذا احب فتاة وجب عليه ان يبوح لها بذلك والا فان حبه لن يفضي الى نتيجة .
وصفق بول كتابه وهو يغلقه :
ـ واية نتيجة تنتظر منه ؟
وصمت الاثنان هنيهة .
وسأل البيوروسي : واذن ؟
فأجاب بول بتأن : يجب ان يتصور المرء بوضوح مقصده . لنفترض انها هي ايضا تحبك يا اندريه ، وهذا ما لا اعتقده ، ولكننا نفترضه افتراضا؛ وانكما تزوجتما . يا له من زواج طريف : زواج عامل ومثقفة. . . وسترزقان اطفالا ؛ وسيتوجب عليك ان تعمل وحدك ، وان تعمل بارهاق ؛ وستصبح حياتك حياة حرمان ، لانك ستحتاج ان تدفع نفقات الاطفال والمسكن ؛ وستنتهيان كلاكما ، من اجل ذلك ، الى الدمار .
وخيم الصمت ، ثم استأنف بول كلامه بصوت هادىء :
ـ الافضل يا اندريه ان تدع هذا الامر ، والا تزعجها .
وخيم الصمت ثانية ، ونبضت ساعة الجدار تحصي بدقاتها الثواني التي تمر ، وقال البيوروسي :

ـ اهو قلب ذاك الذي يحب بنصفه الاول ويكره بنصفه الآخر ؟

... وسمع حفيف أوراق تقلب . لقد عاد بول بلا شك الى القراءة .

... وظلت الام مستلقية ، مغمضة العينين ، تخشى الاتيان بأية حركة ، وداخلها اشفاق على البيوروسي كاد يستدر عبرأتها ، واشفاق اشد منه على ابنها فغمغمت في سرها : « يا حبيبي » .

وسأل اندريه فجأة :

ـ اذا فعلي ان اصمت ؟

فرد بول بهدوء : ذلك اشرف لك .

فقال اندريه : حسنا . هذا هو السبيل الذي سأسلكه .

ثم صمت لحظة ، واضاف بلهجة حزينة :

ـ وسيكون هذا عسيرا عليك يا صغيري بول عندما انت ايضا ...

ـ لقد كان عسيرا علي ...

ولامست جدران المنزل هبة ريح ، وسجل دقاق الساعة ، بدقة ، تفلت الزمن ، وقال البيوروسي ببطء :

ـ هذه القضايا يجب الا تثير ضحكنا !

فدفنت الام وجهها في الوسادة وبكت بصمت .

... وفي الصباح بدا لها اندريه اصغر قامة واكثر رقة ، وكان ابنها ، كما تعهده ، نحيلا ، منتصب القامة ، صموتا ، وكانت ما تزال حتى ذلك الحين ، تنادي البيوروسي باندريه اونيسيموفيتش ، ولكنها خاطبته اليوم، دون اكتراث :

ـ يجب ان تصلح حذاءك يا صغيري اندريه ، والا فستبرد قدماك .

واجاب هو : سوف اشتري بأجري حذاء جديدا .

ثم شرع يضحك ، وراح فجأة يسألها ، وهو يضع يده الطويلة على كتفها :

ـ ربما كنت انت امي الحقيقية ، ولكنك لا تودين أن تعترفي بذلك أمام الناس ؟ انك لا تجدينني وسيما .. أليس كذلك ؟

واجابته بأن ربتت على يده . وكانت تود ان تحدثه أحاديث كثيرة مفعمة بالود ، ولكن قلبها كان يعصره الاشفاق ، ولسانها يأبى ان يطيع .

ـ ٩ ـ

... وانتشر الحديث في الضاحية عن الاشتراكيين الذين ينثرون في كل مكان وريقات مكتوبة بالحبر الازرق . وكانت هذه الوريقات تفضح بعنف

ما يدور في العمل ، وتتحدث عن الاضرابات العمالية في « بطرسبورغ » وجنوب البلاد ، وتهيب بالعمال الى الاتحاد والنضال دفاعا عن مصالحهم .

وكان اولئك الذين يمثلون جيلا معينًا ، ويتقاضون في المعمل اجرا طيبا يحملون الوريقات الى ادارة المعمل ويصيحون :

ــ مخربون ... يجب ان تحطم رؤوسهم .

اما الشبان فكانوا يقراونها بحمية :

ــ هذه هي الحقيقة .

وكانت الاكثرية التي سحقها العمل والتي لا تبالي بشيء تجيب بكسل:

ــ لن يؤدي هذا الى خير ... افمن المستطاع أن ...

ولكن الاوراق كانت تروق للناس ، فاذا مر اسبوع دون أن تصدر ، سأل بعضهم البعض الآخر :

ــ لقد انتهى امرهم ؟.. يقال ...

غير ان الوريقات لا تلبث أن تعود الى الظهور نهار الاثنين ، ويبدا التعليق الهادىء عليها من جديد .

وفي المعمل والفندق كان يلاحظ وجود اشخاص لا يعرفهم احد ؛ يطرحون الاسئلة ، ويختبرون ، ويتنسمون الاخبار ، ويستلفتون ، بغتة ، انظار الجميع . بعضهم يستلفت النظر بحذره المريب ، وبعضهم الآخر باجتماعيته المفرطة .

وكانت الام تعرف ان هذا الاضطراب كله من صنع ابنها ؛ وكانت ترى الناس يتألبون حوله ، فتختلط مخاوفها على مستقبله بزهوها في أن تكون اما لمثله .

وفي احدى الامسيات نقرت ماريا كوروسونوف زجاج النافذة، وعندما فتحت الام لها ، وشوشت في اذنها على عجل :

ــ احذري يا بيلاجي ... لقد انهى حملانك الصغار ضحكهم ... ففي هذه الليلة سيفتش منزلكم ومنزل مازين وفيسوشيكوف .

وكانت شفتا ماريا الغليظتان تصطكان بسرعة ، وانفها المكتنز ينشق ، وعيناها تغمزان وتدوران من اتجاه الى آخر ، وهما ترقبان شخصا في الشارع .

ــ وانا لا اعرف شيئا ، ولم اقل لك شيئا ... وحتى اني لم ارك اليوم ابدا ... أسمعت ؟

ثم توارت .

واغلقت الام النافذة ، وتهافتت ببطء على كرسي ؛ غير أن حس الخطر الذي كان يهدد ابنها ، جعلها تثب بسرعة واقفة على قدميها . وارتدت ثيابها برشاقة ، ولفت رأسها بشال أحكمت شده ، واسرعت الى منزل « تيومازين » الذي كان مريضا فلا يذهب الى العمل .

وكان ، عندما دخلت عليه ، يجلس بالقرب من النافذة يقرأ ، ويده اليسرى ، تهدهد اليمنى بشكل يظل معه الخنصر طليقا . وما كاد يسمع النبأ حتى انتصب بعنف مصفر الوجه ، ودمدم :

ــ هذه المرة ... اذن ...

وسألته بيلاجي ، وهي تمسح بيدها المضطربة ، العرق عن جبينها :

ــ ماذا ينبغي أن نفعل ؟

فأجاب تيو وهو يمسح بيده السليمة شعره الاجعد :

ــ مهلا ... ولا تخافي .

فصاحت به : ولكني واثقة من انك انت ايضا خائف .

ــ انا ؟

وتضرجت وجنتاه على الفور ، وابتسم بارتباك :

ــ « ... نعم ... يا للشيطان . يجب اخطار بول ، وسأرسل اليه من يخطره حالا ؛ اما انت فعودي الى منزلك ، ولا تهتمي فالامر بسيط ، انهم لن يشنقونا ... سنرى .

وعادت مسرعة ، وجمعت الكتب كلها في كومة احتضنتها ، ودارت في المنزل طويلا تفتش عن مخبأ لها . لقد فكرت ان تخبئها في الفرن تحت المدفأة ، وحتى في برميل للماء ، وكانت تعتقد ان بول سيترك عمله ويعود سريعا الى المنزل ، ولكنه لم يأت ... واخيرا جلست متعبة منهكة على مقعد في المطبخ ، وخبأت الكتب تحت ثيابها ، وظلت على وضعها هذا دون أن تجرؤ على التحرك ، الى ان عادل بول واندريه .

وصرخت دون ان تنهض : هل عرفت ؟

فاجاب بول مبتسما : نعم ... وهل انت خائفة ؟

ــ اجل انا خائفة . جد خائفة .

وقال اندريه : يجب الا تخافي ، فالخوف لا يجدي شيئا .

ولاحظ بول : حتى ابريق الشاي لم تهيئيه .

فنهضت الام عندئذ ، واشارت الى الكتب ، وقالت بارتباك :

ــ لم افعل بسبب هذه .

وانفجر بول واندريه ضاحكين ، فرد ذلك عليها شجاعتها . وتناول بول بعض المجلدات ، وانطلق يخبئها في الخارج ، في حين كان اندريه يشعل موقد الشاي .

ـ يجب الا تجزعي ايتها الأم الصغيرة ؛ فنحن نخجل لأولئك الذين يشغلون انفسهم بحماقات كهذه .. لسوف يأتي فتيان ضخام اقوياء البنية، على جنوبهم سيوف ، وفي جزماتهم مهاميز ؛ وسينقبون في كل مكان : يفتشون تحت السرير ، وتحت المدفأة ، واذا كان هناك من قبو ، فانهم سيهبطون اليه . او اهراء فانهم سيصعدون اليه ، وتلتف على خراطيمهم خيوط العنكبوت ، فيحشرجون. ولا تعجبهم التسلية، بل يداخلهم الخجل، فيبدون من اجل ذلك ، بملامح الاشرار ؛ ويغضبون . عمل قذر يعرفونه جيدا . لقد قلبوا مرة كل ما في بيتي ، قلبوه راسا على عقب ؛ وكانوا ، كذي قبل ، اغبياء بلهاء فانصرفوا دونما كلفة . وفي مرة اخرى اقتادوني معهم ، وزجوني في السجن حيث لبثت اربعة اشهر ... وهو ، على ما ترين ، وقت قصير .

انهم يقبلون اليك ، فيجتازون الشارع بموكب ، ويطرحون عليك كومة من الاسئلة . انهم ليسوا خبثاء ، ولكنهم يفكرون كالطبول ، ويقودونك ، من بعد ، الى السجن . انهم يتقاذفونك من جهة الى جهة ، فلا تلمهم . فعليهم ان يحصلوا قوتهم . ومن ثم فانهم يطلقون سراحك ، وهذا كل ما في الامر .

وصاحت بيلاجي :

ـ ان لك دائما طريقة خاصة في الكلام يا صغيري اندريه .

وكان ، وهو جاث امام الموقد ، ينفخ النار ليؤجج الجمر ، ثم ما لبث ان رفع وجهه العابق بالدم نتيجة للجهد الذي بذل ، وسأل وهو يعقص شاربيه :

ـ وكيف اتكلم ؟

ـ كأن احدا لم يذقك الهوان ابدا .

فنهض وقال وهو يهز راسه باسما :

ـ اهناك فوق سطح الارض امرؤ لم يذل ؟ لقد اذقت الهوان حتى لم يعد الهوان يثير حنقي . اذ ما العمل اذا كان الناس لا يستطيعون التصرف الا بهذه الطريقة ؟ ان الاستفزازات تعرقل سير العمل ، والتوقف عندها يعني اضاعة الوقت ، هذه هي الحياة . لقد كنت قبلا انقم على الناس . ولكنني فكرت فيما بعد ، فوجدت الا داعي لذلك ، فكل امرىء يخشى ان يتلقى الضربة من جاره ، وهو من اجل ذلك ، يتأهب ليسبقه اليها . هكذا هي الحياة ايتها الأم الصغيرة .

... وكانت كلماته تنساب بهدوء واتزان ، فتلطف من حدة القلق الذي يشيعه انتظار التفتيش، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان صافيتين، وقامته الفارعة المترنحة تبدو رشيقة .

وزفرت الأم وقالت بحرارة :

ـ ليهبك الله السعادة يا صغيري اندريه .

وخطا البيوروسي خطوة واسعة نحو الموقد ، واقعى من جديد وهو يغمغم :

ـ اذا وهبت السعادة فلن ارفضها اما ان أطلبها ... فاني لن افعل ذلك ابدا .

وعاد بول من فناء الدار ، وقال بصوت واثق وهو يمشط شعره :

ـ انهم لن يعثروا على شيء .

ثم تابع وهو يمسح يديه بعناية :

ـ اذا اظهرت لهم بأنك خائفة ، يا اماه ، فانهم سيقولون في انفسهم : لا بد ان هناك شيئا ، والا لما اضطربت هكذا . انك تدركين جيدا اننا لا نضمر الشر ابدا ، فالحقيقة هي في جانبنا ، واننا من اجلها نعمل طوال حياتنا . هذه هي جريمتنا ، فلِمَ الارتعاش اذن ؟

ووعدته : سأستعيد رباطة جأشي يا بول .

ـ ليتهم ، على الأقل ، اسرعوا في المجيء .

ولكنهم لم يأتوا تلك الليلة . وفي صباح الغد، توقعت ان تكون مخاوفها مثار مزاح ، غير أنها كانت على العكس اول الضاحكين من نفسها :

ـ لقد خشيت ان أخاف .

ـ ١٠ ـ

وبعد شهر تقريبا من ليلة الذعر تلك ، جاؤوا .

وكان نقولا فيسوشيكوف هناك ، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن جريدتهم . وكان الوقت متأخرا ، نحو نصف الليل . وكانت الام مضطجعة توشك ان تغفو ، ولكنها كانت تسمع بغموض اصواتهم الخفيضة القلقة .

ونهض اندريه بغتة ، واجتاز المطبخ وهو يمشي على رؤوس اصابعه ، ثم احكم بهدوء اقفال الباب وراءه . وفي المدخل تعالت جلبة دلو حديدي وشرع الباب فجأة على مصراعيه ، وخطا البيوروسي خطوة في المطبخ ، وقال بصوت خفيض ولكنه واضح :

ـ اني اسمع صوت مهاميز .

ووثبت الام من سريرها تتلمس يداها المرتعشتان ثيابها ، ولكن بول

ظهر على العتبة وقال لها بهدوء :
ـ ابقي في سريرك فأنت مريضة .
وسمع حفيف خفي في الردهة ، فاقترب بول من الباب وقال وهو يدفعه بيده :
ـ من هناك ؟
وفي سرعة البرق انتصب في العتبة شبح طويل رمادي ، ثم تبعه آخر، واحاط الدركيان بالفتى ، ورن صوت حاد ساخر :
ـ لسنا من تنتظرون اليس كذلك ؟
وكان المتكلم ضابطا طويل القامة نحيفا ، يحمل شاربا اسود كثيفا ، وظهر بالقرب من سرير الام « فيدياكين » موظف البوليس في الضاحية ، وهو يؤدي التحية باحدى يديه في حين تشير الثانية الى بيلاجي ، ويقول ، وهو يقلب عينيه المخيفتين :
ـ هذه امه يا صاحب السعادة .
ثم يضيف ، وهو يحرك ذراعه باتجاه بول :
ـ وهذا هو بالذات .
وتساءل الضابط وهو يرخي اجفانه :
ـ بول فلاسوف ؟
وهز بول براسه ان « نعم » وتابع الضابط وهو يفتل شاربه :
ـ يجب ان اجري تفتيشا في منزلكم . انهضي ايتها العجوز .. من يوجد هناك ؟

ونظر الى الحجرة ثم توجه اليها بخطى واسعة :
ـ اسماؤكم ؟
ودخل شخصان طلبا كشاهدين . انهما « ترياكوف » السباك العجوز اجيره السائق « ريبين » الرجل الجاد ذو الشعر الاسود واللحية السوداء، الذي قال ، عند دخوله ، بصوت ممتلىء رنان : تحية يا بيلاجي .

وارتدت الام ثيابها ، ثم دمدمت لتمنح نفسها شيئا من الشجاعة .
ـ يا لاساليبهم . يأتون في الليل والناس نيام !

واكتظت بهم الحجرة التي كانت تفح منها رائحة دهان قوية ، وتقدم دركيان ومفوض شرطة الضاحية « ريسكين » وهم يضربون باحذيتهم ارض الغرفة ؛ فحملوا ما على الرف من كتب ، وكدسوها على الطاولة امام الضابط؛ وكان هناك آخران يضربان الجدار بقبضتيهما ، ويفتشان تحت الكراسي ، وتسلق احدهما المدفأة بصعوبة . وكان البيروسي وفيسوشيكوف ما يزالان في احدى الزوايا ، يلتصق احدهما بالآخر ، وكان وجه نيقولا المجدور مغطى

بنبع حمراء . وعيناه الصغيرتان لا تتحولان عن وجه الضابط : اما اندريه فقد كان يمسد شاربه ، وعندما دخلت الام الى الحجرة حياها باحناءة راس حميمة باسمة .

وتقدمت بيلاجي ، وهي تبذل جهدها في كبت رعبها ، تقدمت لا بمشية جانبية كعادتها ، بل شامخة الصدر ، وهذا ما أضفى على شخصيتها عظمة مصطنعة ساخرة . لقد كانت تسير دونما ضجيج، وكان حاجباها يرتعشان.

وكان الضابط يأخذ الكتب برشاقة ، يأخذها بين انامله البيضاء النحيفة ، فيقلبها ، ويهزها ، ثم يطرحها جانبا بحركة بارعة . وكان يهوي احيانا الى الارض بشيء من الفتور . وكانوا جميعا صامتين ، فلا تسمع الا نخير الدركيين الذين يتصببون عرقا ، ورنين المهاميز ، . سؤالا يرتفع بين الفينة والفينة :

ــ هل فتشتم هنا ؟

وجلست بيلاجي بجانب بول قرب الحاجز ، وشبكت مثله ذراعيها فوق صدرها . وحدقت كذلك بالضابط ، وكانت ركبتاها ترتعشان ، والضباب يغشي عينيها .

ولعلع صوت فيسوشيكوف فجأة . حادا قاطعا :

ــ ولم تطرحون الكتب في الارض ؟

وارتعشت الام ، وحرك فيرباكوف رأسه كأنه انما تلقى صفعة على رقبته ، وسعل ريبين وحدق في نيقولا بامعان .

وأسدل الضابط أجفانه ، ثم اغرق بصره ، للحظة ، في الوجه الجامد المجدور ، وراحت أصابعه تقلب الصفحات بسرعة أكثر ، وكان ، بين الفترة والفترة يبحلق بعينيه الرماديتين ، حتى ليخيل للرائي انه يعاني ألما مخيفا ، وانه يكاد يطلق في وجه هذا الالم صرخة كليلة من الرعب .

وصاح فيسوشيكوف من جديد :

ــ ايها الجندي . اجمع هذه الكتب . .

وتلفت الدركيون جميعا نحوه ، ثم تلفتوا الى الضابط الذي رفع ايضا راسه ولف قامة نيقولا الضخمة بنظرة متفحصة ، وقال بصوت متساحب اخن :

ــ اجمعوها .

وانحنى احد الدركيين ، وراح وهو يرمق فيسوشيكوف بطرف عينه، يجمع الكتب المتناثرة الاوراق .

وهمست الام في اذن ابنها :

ــ يجب ان يصمت هذا الـ « نيقولا » !

ولكن ابنها هز كتفيه . أما البيوروسي فطأطأ رأسه
ـ من منكم يقرأ الكتاب المقدس ؟
وأجاب بول : انا
ـ ولمن هذه الكتب كلها ؟
فأجاب بول ايضا : انها لي .
وقال الضابط وهو يستلقي على متكأ المقعد :
ـ حسنا .
ثم شد اصابع يديه الدقيقة ، ومد ساقيه تحت الطاولة ، وفتل شاربه ، ونادى فيسوشيكوف :
ـ االنت اندريه ناكودكا ؟
وأجاب نيقولا وهو يتقدم نحوه :
ـ نعم .
ومد البيوروسي يده ، وامسك نيقولا من كتفه ، وارجعه الى الوراء :
ـ انه مخطىء فأنا اندريه .
ورفع الضابط مهددا فيسوشيكوف بسبباته :
ـ احذر يا هذا ..
ثم راح يقلب اوراقه .
وفي الخارج كانت العيون اللامبالية : عيون الليلة القمراء ترنو من النافذة ، وكان شخص ما يسير امام المنزل ، والثلج يصر تحت خطواته .
وسأل الضابط :
ـ هل سبق يا ناكودكا ان اجري معك تحقيق في جرائم سياسية ؟
ـ نعم ، في روستوف ، وساراتوف ، ولكن رجال الدرك هناك كانوا يخاطبونني باحترام .
وغمز الضابط بعينه اليمنى ، ثم فركها ، وتابع ، وهو يكشر عن اسنانه الصغيرة :
ـ والا تعرف ، يا ناكودكا ، نعم انت بالذات ، الا تعرف من هم السفلة الذين ينشرون في المعمل النداآت المجرمة ؟
وترنح البيوروسي فوق قائمتيه وكان ، والبسمة العريضة تنطرح على شفتيه ، يهم بأن يقول شيئا ، عندما ارتفع من جديد ، صوت نيقولا المحنق :
ـ هذه هي المرة الاولى التي نرى فيها سفلة !
واصفرت ندوب الجرح في وجه الام ، وشقل حاجبها الايمن ، وراحت لحية ريبين تهتز بشكل غريب ، وراحت اصابعه تسرحها ببطء وهو مطأطىء الرأس .

وصاح الضابط :

ـ اطرحوا هذا الحيوان خارجا .

وتقدم دركيان فأخذا نيقولا من ابطه ، واقتاداه بعنف الى المطبخ حيث وقف ، وقد سمر رجليه في الارض ، وصاح :

ـ انتظروا ريثما ارتدي ثيابي .

وعاد مفوض الشرطة ليقول : لقد فتشنا كل مكان فلم نعثر على شيء.

وهتف الضابط مبتسما : ـ مفهوم . . فنحن هنا أمام رجل خبير .

وكانت الام تصغي الى صوته النسائي الراجف، وتنظر برعب الى وجهه الاصفر ، وتتبين ، في أعطاف هذا الرجل ، عدوا لا رحمة عنده ، وقلبا يملأه احتقار ارستقراطي للشعب . انها لا ترى ، رجالا من هذه الفصيلة ، الا نادرا ، حتى كادت تنسى انهم موجودون ؛ ودار في خلدها : « هؤلاء هم الذين نضايقهم . »

ـ ايها السيد اندريه اونيسيموف ناكودكا ، المجهول الاب ، اني آمر بتوقيفك .

ـ ولاي سبب توقفني ؟

واجاب الضابط بتهذيب حاقد : هذا ما سأقوله لك فيما بعد .

واستدار نحو بيلاجي : اتعرفين القراءة ؟

فرد بول : كلا .

ـ اني لا أسألك انت .

قال ذلك بقسوة ثم أردف :

ـ اجيبي أيتها العجوز .

وانتصبت الام وقد اجتاحها حقد غريزي عليه ، وانتظمتها رعدة كأنها انما اغرقت في ماء مجمد ، وتخضبت ندوب وجهها بلون ارجواني ، وحط حاجبها ، ثم اجابته وهي تمد نحوه ذراعها :

ـ لا ترفع من صوتك . فأنت ما تزال شابا ، ولم تعرف الاسى بعد .

وقاطعها بول : هدئي من روعك يا أماه .

فصرخت وهي تندفع نحو الطاولة : لحظةيا بول . . ولم توقفون هؤلاء؟

فصاح بها الضابط وهي تنهض :

ـ اخرسي ، هذا أمر لا يعنيك . احضروا فيسوشيكوف .

وراح يقرا في ورقة امامه ، وهو يرفعها ويدنيها من وجهه .

وادخل نيقولا . وصاح به الضابط بعد أن توقف عن القراءة :

ـ اخلع قبعتك .

واقترب ريبين من بيلاجي وقال لها بصوت خفيض وهو يدفعها من كتفها :

ـ لا تحتدي أيتها الام .
وسأل نيقولا قاطعا على الضابط قراءة المحضر :
ـ كيف أستطيع ان أخلع قبعتي ويداي مغلولتان ؟
فطوح الضابط الورقة على الطاولة وصاح به :

ـ وقعها .
ورنت الام الى الحضور وهم يوقعون محضر الضبط ، وكان انفعالها قد خمد . وقلبها قد وهن ، ودموع الاستخذاء والضعف تملأ عينيها . لقد سفحت مثل هذه الدموع طوال الاعوام العشرين من حياتها الزوجية ، ولكنها ، كانت في سنواتها الاخيرة ، قد نسيت حرقتها الكاوية .

ورنا اليها الضابط وقال بايماءة احتقار :
ـ لم يحن بعد اوان البكاء يا سيدتي ... فاحذري . فقد لا يبقى لك شيء من الدموع للغد .
فاجابته وقد عاودها الحنق :
ـ ان دموع الامهات لا تنضب فعندهن منها ما يكفي ... واذا كانت لك أم فانها تعرف ذلك جيدا .

ورتب الضابط أوراقه بسرعة في محفظة جديدة، ذات قفل لماع، وامر :
ـ الى الامام ... سر .
وبصوت منخفض تملأه المرارة قال بول وهو يشد على أيدي رفاقه :
ـ الى اللقاء يا اندريه .. الى اللقاء يا نيقولا .
ورد الضابط بسخرية :
ـ أجل الى اللقاء .
كان فيسوشيكوف يتنفس باعياء ، وعنقه الضخم يحتقن بالدم ، وعيناه تبرقان بالغضب الشديد . وكان البيوروسي ضاحك الوجه ، يهز رأسه ، موجها بعض الكلمات الى الام التي كانت تباركه باشارة الصليب قائلة :

ـ ان الله يرى العادلين .
وتهادت الشرذمة ذات المعاطف الرمادية ، تهادت في المدخل على رنين المهاميز ، ثم توارت . وكان ريبين هو آخر من انصرف . ولقد لف بول قبل ان يخرج بنظرة متفحصة من عينيه السوداوين وقال حالما :

ـ حسنا ... الوداع .
وخرج بطيء الخطى ، يسعل في لحيته .
وظل بول ، وقد شبك يديه وراء ظهره ، ظل يذرع ببطء أرض الغرفة، يذرعها طولا وعرضا بين الكتب المبعثرة ، والثياب التي تغطي الارض ...

ويردد منجهم الاسارير :
ــ أرايت كيف حدث هذا !
وغمغمت الام وهي تتامل بقلق وحيرة . الحجرة التي عـصفت بهـا الفوضى .
ــ لم كان نيقولا فظا غليظا ؟
ورد بول بهدوء :
ــ لقد كان بلا شك خائفا .
ودمدمت بيلاجي : بوهن واعياء :
ــ لقد جاؤوا ، وقبضوا عليهم .. ثم اقتادوهم ..
ولم يبق لها الا ابنها . وأخذ الاطمئنان يعود الى نفسها : في حين كان تفكيرها يتركز بلا جدوى ، على الواقع . هذا الواقع الذي لا تستطيع فهمه وادراكه :
ــ لقد سخر منا ذلك الرجل الشاحب . انه يهدد ..
وقاطعها بول بحزم :
ــ كفى يا أماه ، وتعالي نرتب ما بعثروا ..
لقد خاطبها بيا اماه ، وبصيغة المفرد كما كان يخاطبها حين يكون اكثر قربا منها . وسارت هي اليه ، وحدقت في عينيه ، وسألته بهمس :
ــ هل أهانوك ؟
ــ نعم ... وانه لشديد علي ذلك . لقد كنت افضل أن أذهب معهم .
وخيل للأم انها ترى الدموع في عينيه ، وتحس المه ، فصعدت زفـرة وقالت له لتسري عنه :
ــ انتظر فسيأتي دورك ايضا .
ــ اجل .
ــ وبعد صمت قصير قالت بمرارة :
ــ لكم انت قاس يا بول ، فليتك على الاقل تواسيني . اني اذا مـا تفوهت بأشياء رهيبة ، رددت علي بما هو أشد رهبة .
فرشقها بنظرة ، واقترب منها وقال بهدوء :
ــ هذا ما لا أدريه يا أماه .. وعلى كل حال ، يجب ان تتعودي ذلك .
فتأوهت وصمتت ، ثم تابعت ، وهي تكبت ارتعاشة رعب :
ــ وهل يمكن ان يعذبوهم ؟ ان يمزقوا اجسادهم ويسحقوا عظامهم ؟ اني عندما افكر في هذا ، اواه .. انه لشيء رهيب يـا صغيري بول . يـا ابني الحبيب .
ــ انهم يعذبون الروح ، وهذا العذاب اشد ايذاء والما حين تقترفـه ايديهم القذرة .

- ١١ -

وفي صبيحة اليوم التالي علم ان بوكين وسوموف وخمسة آخرين قد اوقفوا ، وفي المساء مر تيومازين مرورا خاطفا : لقد فتشوا منزله هو ايضا ؛ وشقوا غلته ولذلك فهو يشعر بأنه بطل .

وسألته الام : هل داخلك الخوف يا تيو ؟

فشحب لونه ، وتقعر وجهه ، وارتعشت فتحة انفه :

ـ لقد خشيت ان يضربني الضابط ، فلقد كان ماردا اسود اللحية ، يغطي الشعر ذراعيه ، وتتركز فوق انفه نظارتان سوداوان يبدو معهما انه لا يحمل في وجهه عينين . وكان يصرخ ، ويرفس الارض بقدمه ، ويقول بأني سأتعفن في السجن ، انا الذي لم يضربني احد من اهلي ، لا ابي ولا امي ، فلقد كنت وحيدهما ، وكانا يحبانني .

واغمض عينيه لحظة ، وعض شفتيه ، وبحركة سريعة نفش شعره بكلتا يديه ، وقال وهو يحدق في وجه بول بعينيه المحمرتين قليلا :

ـ اذا ضربني احد ، فانني ابقر بطنه بسكين ، واقطعه بأسناني . انه ليحسن صنعا حين يقتلني على الفور .

وصاحت به بيلاجي .

ـ انك شديد الهزال ، شديد النحول ، فماذا تصنع للدفاع عن نفسك؟

ولاك تيو هذه الكلمات :

ـ سوف افعل .

وعندما انصرف قالت الام لبول :

ـ سيتحطم هذا قبل الآخرين . .

واعتصم بول بالصمت .

وبعد لحظات قليلة فتح باب المطبخ ببطء ، ودخل ريبين وقال باسماً :

ـ تحية . هو ذا انا . لقد حملت مساء الامس على المجيء ، اما اليوم، فلقد جئت بمطلق ارادتي .

وشد يمين بول بحرارة ، وامسك الإم من كتفها قائلا :

ـ هل تقدمين لي الشاي ؟

وتفحص بول بصمت وجهه العريض ، البرونزي اللون ، ذا اللحية السوداء الكثة ، والعينين القائمتين ، وكان في نظراته الهادئة ما يبعث على الرهبة .

وانطلقت بيلاجي الى المطبخ تعد الشاي ، اما ريبين فقد جلس يداعب لحيته ، وراح وهو يسند مرفقيه الى الطاولة ، يلف بول بنظرته السوداء . وقال . . . وكأنه يكمل حديثا سابقا :

ـ وهكذا ... يجب علي ان احدثك بصراحة . لقد راقبتك منذ أمد طويل ـ فنحن نكاد نكون جارين ـ فلاحظت انك تستقبل كثيرا من الناس ، دون ان ينتج عن ذلك شغب او فضائح .

هذا أولا ... ثم ان الناس الذين لا يثيرون الفضائح ، يستلفتون الانظار بسرعة : أليس كذلك ؟ وانا يزعجني ان ارى قوما يعيشون في عزلة .

وكانت لهجته صارمة ، ولكنه كان يتكلم بيسر ، ويمسد لحيته بيده السمراء ، وعيناه لا تتحولان عن بول :

ـ لقد اخذوا يتحدثون عنك ... ولكن رؤسائك في المعمل يسمونك زنديقا ، فأنت لا تذهب الى الكنيسة ... وانا كذلك لا أذهب اليها ... ثم هناك قضية المناشير التي ظهرت ... فهل انت صاحب هذه الفكرة ؟

ـ نعم ... انا .

فصاحت الام هائجة وهي تخرج من المطبخ :

ـ ولكنك لست وحدك .

فابتسم بول ، وابتسم ريبين كذلك ، وهو يقول :

ـ حسنا .

واحنق الام انهما لم يعيرا كلامها اي انتباه ، فنشقت بصوت مسموع ، وعادت الى المطبخ .

هذه المنشورات كانت فكرة جميلة ... انها تحرك الجماهير ... بلغت تسع عشرة نشرة ؟

ـ أجل

ـ لقد قرأتها جميعا بامعان ، وهناك اشياء لم أفهمها . اشياء لا ضرورة لها . نعم . فعندما يتكلم المرء كثيرا ، تكون هناك كلمات كثيرة لا قيمة لها .

وابتسم ريبين ، وكانت اسنانه بيضاء قوية .

ـ ثم كان التفتيش... وهذا على الاخص ما حملني على اتخاذ موقف. اما أنت والبيوروسي ونيقولا فلقد اسفرتم عن وجوهكم و ...

ولم يجد اللفظة المبتغاة ، فصمت ، والقى نظرة نحو النافذة ، وهو ينقر بأصابعه على الطاولة :

ـ لقد اعلنتم عن عزمكم ... فكأنكم قلتم : « يا صاحب السعادة : قم بعملك ونحن نقوم بعملنا » ... والبيوروسي هو ايضا فتى طيب . لقد سمعته مرارا يتكلم في المعمل ، وقلت في نفسي : هذا الفتى لا يمكن ان يحطم والموت وحده هو الذي يقهره . انه قوي الاعصاب ... اتصدقني يا بول ؟

فأجاب بول وهو يهز راسه : نعم .

ـ حسنا . انت ترى أني في الاربعين ، فأنا اكبر منك مرتين ؛ وهـذا يعني أني رأيت أكثر منك عشرين مرة . لقد خدمت في الجندية ثلاث سنوات ، وتزوجت مرتين ؛ أما زوجتي الاولى فقد ماتت ، وأما الثانية فقد هجرتها . وكنت في القوقاز وعرفت الدوخوبوريين « Dokhodors » يحسب الناس يا بني انهم أسياد الحياة المسيطرون عليها ، ولكن الامر على عكس ما يعتقدون .

وكانت الام تصغي بنهم الى حديثه الواثق ؛ وقد سرها ان ترى رجلا ناضجا مثله ، يزور ابنها ويحادثه كأنه يعترف له ؛ ولكنها كانت تلاحظ ان بول يعامل ضيفه بكثير من الفتور ؛ ولكي تزيل من نفسها هذه الانطباعة سألت ريبين :

ـ أتريد شيئا من الطعام يا ميشال ؟

ـ اشكرك ايتها الام فلقد تناولت عشائي . . . هكذا اذن يا بول : فانت تعتقد ان الحياة لا تسير حسب القانون ؟

ونهض بول ، وراح يذرع أرض الغرفة ، ويداه وراء ظهره :

ـ كلا . . . ان الحياة تسير على احسن حال . الا ترى انها قادتك الى متفتح البصيرة ؟ انها توحد بيننا شيئا فشيئا ، نحن الذين نعطي العمل كل وجودنا ؛ وسيأتي الوقت الذي توحدنا فيه جميعا . انها جائرة قاسية بالنسبة لنا ؛ ولكنها هي نفسها التي تفتح عيوننا وتكشف لنا عن معناها المرير . انها هي نفسها التي تعلم الانسان كيف يستحث خطاه .

وقاطعه ريبين :

ـ هذا صحيح . يجب ان يجدد الانسان . اذا كان جربا فقده الى الحمام ، اغسله والبسه ثيابا نظيفة ، فانه سيشفى . . . أليس هذا صحيحا؟ ولكن كيف ننظف الانسان من الداخل ! هذه هي المشكلة .

وراح بول يتحدث بحرارة وحيوية عن السلطات ، عن المعمل ، عن الطريقة التي يدافع بها العمال في الخارج عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر الطاولة احيانا بأصبعه ، كأنه انما يضع النقاط ، ولكنه كان يصيح في كل مرة

ـ هذا هو الواقع .

وجاء وقت ارتسمت فيه على شفتيه بسمة مختزلة ، ثم قال بهدوء :

ـ هه ؛ انك شاب ؛ انك لم تعرف الناس بعد .

ولكن بول اجابه باتزان وهو ينتصب أمامه :

ـ يجب الا نتحدث عن الشيخوخة او الشباب ، ولننظر اي الافكار هي الاصح .

ـ اذا فانهم ، حسب رأيك ، يخدعوننا حتى في الله ؟ هذا صحيح . ثم اني اعتقد ايضا ان الدين الذي نتمسك به ليس هو الدين الصحيح .

... وهنا تدخلت الام . لقد كانت حين اخذ ابنها يتحدث عن الله . وعن كل ما يمس الايمان ، وعما هو عزيز لديهـا ومقدس ، كانت تلاحـق باستمرار نظراته لتطلب اليه بصمت الا يمزق قلبها بتبشيره القاسي الكنود، ولكنها كانت تعتقد انها تتلمس الايمان في تشككه ، وهذا ما كـان يطمئنهـا ويجعلها تسائل نفسها : « كيف استطيع ان افهم افكاره ؟ » ، ولقد تصورت انه لمن المزعج والمشين في آن واحد ، ان يستمع ريبين ، وهو الرجل الناضج، الى موعظة بول ، ولكنها عندما طرح الضيف سؤاله لم تتمالك أن تجيـب بايجاز واصرار :

ــ عندما تتحدثون عن الله تعالى ، يجب ان تكونوا أكثر حذرا ؛ أمـا انتم ، فمن المؤكد انكم تفعلون ما تشاؤون .

واستعادت انفاسها ، وتابعت باندفاع وقوة :

ــ علام تعتمد عجوز مثلي في حزنها اذا انتزعتم الله منها ؟

وطفحت عيناها بالدمع . وكانت تغسل الآنية ويداها ترتعشان .

وقال بول بوقار وحنو :

ــ انك لم تفهمينا يا اماه .

واضاف ريبين بصوت بطيء معبر وهو يلتفت الى بول باسما :

ــ سامحيني ايتها الام ، فلقد نسيت انك طعنت في السن لدرجة لا نستطيع معها اجتثاث ثآليلك .

وتابع بول :

ــ لم اكن اتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنون به ، بل عن الله الذي تهددنا به الكهنة ، كما لو كانوا يهددونا بعصا ، عن اله براد باسمه ان يخضع العالم كله للارادة القاسية ، ارادة البعض .

وصرخ ريبين وهو يضرب الطاولة :

ــ اجل . هذا هو الواقع . لقد زيفوا لنا حتى الله ، وسخروا ضدنا كل ما في ايديهم . اتذكرين ايتها الام ؟ لقد خلق الانسان على شاكلته ، على صورته ، اذا فهو يشبه الانسان اذا شابهه الانسان ، ولكننا نحن لا نشبـه الله ، بل نشبه الوحوش الضارية . انهم يظهرونه لنا في الكنيسة على شكل فزاعة . لذا ينبغي ان نطور الله ، ايتها الام ، ينبغي أن نطهره ، فلقد ألبسوه ثوبا من الكذب والنميمة وشوهوا وجهه ليقتلوا روحنا .

وكان يتكلم بصوت منخفض ، ولكن كل كلمة من كلماته كانت تنقض على رأس الام كالقبضة الثقيلة ، فترميها بالصمم، وكان وجهه العريض الذي تؤطره لحيته السوداء باطار من حداد ، يثير رعبها ، والق عينيه القاتم يثقل عليها ويوقظ في قلبها الخوف المعذب

وقالت وهي تهز راسها :

ـ خير لي ان انسحب ، فان سماع هذا التجديف امر فوق احتمالي .

وهربت الى المطبخ في حين كان ريبين يصرخ :

ـ ارايت يا بول ؟ ليس هو العقل مرتكز كل شيء بل القلب ، فالعقل منطقة في الانسان ، لا ينبت فيها شيء آخر ... ابدا ..

فقال بول باصرار :

ـ ان العقل وحده هو الذي سيحرر الانسان .

واجاب ريبين بعناد :

ـ ان العقل لا يعطي القوة ، اما القلب فيعطي قوة ، ولكنه لا يعطي عقلا .

وكانت الام قد تخففت من ملابسها . واستلقت دون ان تؤدي صلاتها، وكانت تحس بالبرد ، وتشعر بانحراف صحتها .

ان ريبين الذي بدا لها ، أول الامر ، متزنا صحيح التفكير ، يثير الآن كرهها . وكانت تردد وهي تصغي الى صوته :

ـ زنديق ، باذر فوضى .. لقد كان ينقصنا ان يأتي هو ايضا ..

... اما هو فكان يتكلم بهدوء وثقة :

ـ ان المكان المقدس يا بول يجب الا يظل فارغا . وان نفسنا نقطة حساسة . انها المكان الذي يسكنه الله ، فان يهجرها يشق فيها جرحا ، وعلينا ان نكتشف ايمانا جديدا ، ان نبدع الها يكون صديقا للناس .

فصاح بول : هذا ما كانه المسيح .

ـ لم يكن المسيح ذا ارادة ثابتة. لقد كان يقول : ابعد عني هذا الكأس. ولقد كان يعترف بقيصر ، اما الله فلا يعترف بسلطان انسان على الآخرين لانه هو السلطان كله . انه لا يجزيء نفسه ، ولا يقول : هذا الهي ... وذاك بشري . وكان المسيح يبيح التجارة ، ويبيح الزواج ، ثم انه لعن شجرة التين ، فكان ذلك ظلما ، افمجرمة هي لانها كانت لا تحمل ثمرا ؟ اذا كانت النفس لا تعطي الثمر الطيب ، فليس الذنب في ذلك ذنبها ، افأنا الذي غرس الشر فيها ؟ قل لي ؟

وكان صوتهما لا يفتأ يلعلع في الحجرة ، يعلو تارة وينطفىء أخرى ؛ وكان بول يروح ويجيء ، والخشب يصر تحت خطواته ، وكانت الاصوات كلها ، تنصهر حين يتكلم ، في دوي صوته ، أما ريبين فكانت دقات الساعة تسمع عندما يجيب بصوته الاجش الهادىء ، كما تسمع الفرقعة الجافة ، فرقعة الجليد الذي كان يخدش بأظفاره الحادة جدران المنزل .

ـ سأقول لك على طريقتي كسائق ، ان الله كالنار . انه يعيش في القلب ، ولقد قيل : ان الله هو الفعل ، والفعل هو الفكر ...

فردد بول باصرار : هو العقل .
ــ هو كذلك ، وهذا يعني ان الله في القلب ، وفي العقل وليس في الكنيسة . ان الكنيسة هي قبر الله .
وكانت الام قد نامت ، فلم تشعر بريبين عندما خرج .
... واخذ يتردد على بول دائما ، وكان حين يجد أحد رفاقه عنده يقبع في الزوايا صامتا يردد بين الفينة والفينة هذه الكلمة :
ــ هذا هو الواقع .

وفي احدى المرات نقل بصره بين الحضور ، وقال بوجه باسم :
ــ يجب ان تتحدثوا عما كان ... أما الذي سيكون فلا يعرفه احد .
اسمعوا : عندما يتحرر الشعب يقرر بنفسه ماذا يحسن به ان يفعل . انهم يحشون راسه بأشياء لا يريدها ، وهذا يكفي . ليختبر الشعب نفسه ، فلربما كان يود ان يرفض كل شيء ، الحياة كلها ، والعلوم كلها ، ولربما راى ان كل شيء موجه ضده ، كاله الكنيسة مثلا ، وليس لكم انتم الا ان تضعوا بين يديه الكتب كلها ، وسيجيب هو بنفسه جيدا .

وكان اذا ما وجد بول وحده ، يدخلان في نقاش لا نهاية له ، ولكنه نقاش هادىء ابدا ، وكانت الام تصغي اليهما بقلق ، وتتبعهما بنظراتها محاولة ان تفهم ما يقولان . وكان يخيل لها احيانا ان الفلاح ذا المنكبين العريضين واللحية السوداء ، وابنها القوي الشديد البنية . قد اصيبا كلاهما بالعمى . لقد كانا يسيران من ناحية الى أخرى بحثا عن مخرج ، ويتشبثان بكل شيء ، ويزعزعان كل شيء بأيديهما القوية غير الحاذقة ، ويبدلان وضع الاشياء ، ويطرحانها ارضا ثم يدوسانها بأقدامهما ... وكانا يلامسان هذا ، ويتلمسان ذلك ، ثم يدفعانهما كليهما دون أن يفقدا الامل ولا الايمان .

وكانا قد عوداها سماع الكثير من الكلمات المخيفة ، يتلفظان بها بحرية ووقاحة ، ولكن هذه الكلمات كانت لا تصدمها بنفس العنف الذي تعرضت له اول مرة ،
فلقد تعلمت كيف تتحامى تأثيرها . وكانت احيانا تستشعر وراء الكلمات التي تنكر وجود الله ، ايمانا قويا به ، واذا كان ريبين لا يعجبها ، فانها لم تعد تضمر له الكره الذي عرفته من قبل .
وكانت تذهب الى السجن مرة في الاسبوع لتحمل الى البيوروسي الثياب والكتب ، وقد استحصلت يوما على اذن بمقابلته ، وعندما قفلت ، راحت تتحدث عنه بحنان :
ــ انه ما فتىء كما عرفناه في البيت ، لطيفا مع كل الناس ، يمازح من

يمازحه . ان السجن بالنسبة له قاس ومؤلم ؛ ولكنه لا يظهر ذلك ابدا .
وعلق ريبين :
ـ هكذا يجب ان يكون الرجل . اننا نعيش جميعا في العذاب، ونتنفس به ، كأنه جزء من كياننا، وليس هناك ما نزهو به. ان الناس ليسوا معصوبي العيون ؛ كلهم ، بل هناك من يعصب عينيه بنفسه . وعندما يكون الناس ضربا من الحيوانات ، لا يكون لنا الا ان نصبر .

- ١٢ -

كان منزل آل فلاسوف الصغير الاشهب ، يسترعي اكثر فأكثر ، انتباه سكان الضاحية ؛ وكان في ذلك الاهتمام الذي يولونه اياه كثير من الحذر والريبة ؛ والكره اللاواعي ؛ والى جانب هذا الشعور كان ينمو باطراد فضول مطمئن . وكثيرا ما كان يقبل على المنزل رجل مجهول ليقول لبول وهو يتفحص ما حوله بكثير من الاحتراس :
ـ يا بني انك تقرأ الكتب والقوانين ، ومن المحتم انك تعرفها ، اذن تعال فاشرح لي .
ثم يروي لبول ظلامة الحقها به رجال البوليس او ادارة المعمل ؛ وفي الحالات المعقدة ، كان بول يسطر بطاقة صغيرة ، ويرسل الرجل الى المدينة ، الى محام من معارفه ، وقد يشرح بنفسه المسائل الاشياء التي تستعصي على فهمه ، حين يكون ذلك بمقدوره .
وأخذ شعور الاحترام يتنامى شيئا فشيئا ، الاحترام لهذا الشاب المتزن الذي يتكلم عن كل شيء ببساطة وجرأة ، ويلاحظ ويصغي لكل شيء بانتباه ، وينغمس بعناد في خضم قضية خاصة معقدة، ويكتشف ابدا الخيط المشترك ، الخيط الذي لا نهاية له والذي يربط الآلاف من البشر بوشائج لا تنفصم .
وزادت مكانة بول في نظر الراي العام ايضا ، بعد حادثة « كوبك المستنقع » (١) فلقد كان ينبسط وراء المعمل مستنقع واسع ، تنمو فيه اشجار الشربين والحور ويكاد يؤلف حوله حلقة عفنة ؛ وفي الصيف كانت الابخرة الصفراء الكثيفة تتصاعد منه ، مع سحب البعوض التي تنتشر في الضاحية ، فتزرعها بالحميات .
وكان المستنقع ملكا للمعمل ؛ وقد وضع المدير الجديد مشروعا لتجفيفه بقصد الاستفادة منه ؛ وفي الوقت نفسه لاستخراج ما فيه من فحم.

---

(١) الكوبك : جزء من الروبل ـ اي الليرة الروسية .

وقد قال للعمال ان هذه العملية تجعل جو المنطقة صحيا ، وتحسن شروط المعيشة ، وأصدر أوامره باقتطاع كوبك واحد من كل « روبل » من اجورهم؛ لتأمين المال اللازم للتجفيف .

وكان استياء العمال عظيما ، واثارهم بشكل خاص ان هذه الضريبة الجديدة لم تكن تطبق على الموظفين المستخدمين .

وفي اليوم الذي اعلن فيه قرار المدير اي يوم السبت ، كان بول مريضا فلم يشتغل ، ولم يعرف شيئا عن القضية ، وقد جاءه في اليوم الثاني ، بعد القداس ، المعدن سيزوف ــ وهو عجوز لطيف ــ وصانع الاقفال « ماكوين » وهو رجل فارع القامة شديد النزق فقصا عليه ما حدث .

وقال سيزوف باتزان :

ــ لقد اجتمع المسنون فينا وتباحثنا في الموضوع ، فاوفدنا رفاقنا اليك لنسألك لانك رجل واع مثقف ، عما اذا كان هناك قانون يجيز للمدير ان يشن الحرب على البعوض بدراهمنا ؟

وقال ماكوين وهو ينقل عينيه المنقبضتين :

ــ انك تذكر ان « الشطار » كانوا قد جمعوا المال منذ سنوات اربع ، لبناء حمامات . ولقد تجمع لديهم يومذاك ثلاث آلاف رثمانماية روبل . ولم تنشأ الحمامات فأين ذهب المال ؟

وبين بول جور هذه الضريبة، واظهر الفائدة الكبرى التي يجنيها المعمل من تحقيق هذا المشروع ، وعلى هذا الاساس انصرف الرجلان ، وقد بدا عليهما التجهم .

وقالت الام باسمة بعد ان شيعتهما الى الباب :

ــ ارايت يا بول . . حتى الطاعنون في السن يأتون اليك ليتزودوا من فطنتك .

ولم يجب بول ، بل جلس الى طاولته مهموما ، وراح يكتب، وبعد بضع دقائق قال لها : ارجوك الذهاب فورا الى المدينة لايصال هذه الوريقة .

ــ وهل الامر خطير ؟

ــ اجل . . . فهناك تطبع جريدتنا ، ويجب مهما كلف الامر ان تظهر قصة « الكوبك » في العدد المقبل .

واجابت : حسنا ، سأنطلق حالا .

وكانت هذه اول مهمة يكلفها بها، وكانت سعيدة لانه انبأها عن محتواها بصراحة .

وقالت وهي ترتدي ثيابها :

ــ اني ادرك هذا يا بول ، انه عمل لا يختلف عن السرقة . ماذا يدعى ذلك الرجل ؟ ايغور ايفانو فيتش ؟

... وعادت في المساء متأخرة منهكة ، ولكنها سعيدة ، وقالت لابنها :
ـ لقد رايت ساندرين وهي تسلم عليك ... وايفور هذا ، ليس بالمتعجرف. انه يمزح بلا انقطاع .
واجابها بول برقة :
ـ اني في غاية السرور لانهم ظفروا باعجابك .
ـ يا لهم من قوم بسطاء يا صغيري بول . كم هو جميل ان يكون الناس بسطاء . ثم ... انهم جميعا يقدرونك .
ولم يذهب بول نهار الاثنين الى العمل، فلقد كان يشكو بعض الصداع، غير ان « تيومازين » اقبل عليه ، عند الظهيرة ، منفعلا مسرورا ، واخبره وهو يسترد انفاسه :
ـ اسمع . لقد ثار عمال المعمل جميعا ، وبعثت اليك لاحضرك . فلقد قال سيزوف وماكوتين انك تستطيع شرح القضية احسن من الآخرين . ليتك ترى ما يحدث ؟
وارتدى بول ثيابه دون ان يتفوه بكلمة .
ـ لقد تجمعت النسوة ، وبدأن الصراخ .
وقالت الام : وانا ايضا سأذهب ، لارى ماذا يطبخون هناك ؟ سأذهب
وقال بول : اذهبي .
وساروا مسرعين ، صامتين ، وكان الانفعال يرهق الام ، فتحس ان شيئا فظيعا سيحدث . وعند باب المعمل ، كان رهط من النساء ، يصرخن ويتشاجرن .
وعندما اوشك الثلاثة ان يندفعوا الى الساحة ، اصطدموا فجأة بجمع كثيف اسود يضج هياجا ، ولاحظت الام ان العيون كلها كانت تتلفت باتجاه واحد ، نحو جدار معمل الحديد . وهناك كان يقف سيزوف ، وماكوتين ، وفيالوف ، وخمسة آخرون او ستة من العمال النافذين الناضجين ؛ يقفون على كومة من بقايا الحديد ، وهم يؤشرون بأيديهم .
وصاح احد الناس : هو ذا فلاسوف .
ـ فلاسوف ؟ ليأت الى هنا .
وتعالت الصيحات من هنا وهناك :
ـ الصمت . الصمت .
وارتفع من مكان قريب صوت ريبين المتسق النبرات :
ـ يجب ان نقاوم من اجل العدالة ، لا من اجل « كوبك » ؛ وان ما نتمسك به ليس هو هذا الكوبك ؛ فهذا القرش الصغير ليس اكبر من سواه ولكنه اثقل وزنا ، لانه اغنى بالدم البشري من « روبل » مدير . اننا لا نصنع منه قضية ولكننا نصنعها من دمنا ، من الحقيقة .

ــ احسنت . هذا صحيح يا ريبين .
ــ انك على حق ايها السائق .
ــ هو ذا فلاسوف .

وكانت الاصوات تتلاقى في عاصفة من الضجيج والضوضاء ، فتطغى على جلبة الآلات وتأوهات البخار العميقة ، ودوي المحركات ، وكان الناس يتراكضون من كل صوب ، يلوحون بسواعدهم ويحمس بعضهم بعضا ، بكلمات ملهبة مثيرة . ان الهياج الذي كان يغفو ابدا في الصدور المتعبة يستيقظ الآن ، وينشد لنفسه منطلقا ؛ وها هي القضية تنطلق منتصرة ، ناشرة جناحيها القاتمين لتنظيم الجماعات بقوة متناهية ولتثيرها وتمخضها وتمدها بالحقد اللاهب المسعور .

وكانت سحابة من الضباب والغبار تسبح فوق الحشد ، وكان العرق يتصبب من الوجوه المحتقنة، ويهمي دموعه السوداء على الوجنات المسفوعة. وكانت الاسنان تلمع ، والعيون ينطلق منها الشرر .

وظهر بول الى جانب سيزوف وماكوتين ، وعلت صرخته :
ــ ايها الرفاق .

ولاحظت الام ان وجه ابنها كان مصفرا ، وان شفتيه كانتا ترتعشان فاندفعت بلا وعي منها الى الامام ، تشق لنفسها طريقا بين الحشد . وكان الحضور يتدافعونها ويقولون لها بحنق : الى اين تريدين الذهاب ؟ ولكن ذلك لم يثنها ، اذ استطاعت ان تشق طريقها بين الجمهور بكتفها ومرفقيها ، واستطاعت ان تقترب ببطء من ابنها ، مدفوعة برغبة جامحة في ان تكون على مقربة منه .

وعندما قذف بول تلك الكلمة التي شحنها بمعنى عميق هائل ، احس بتشنج الفرحة ، فرحة النضال يزحم حنجرته ، واجتاحته الرغبة في ان يلقي الى الجماهير بقلبه ، هذا القلب الذي استغرقه حلمه اللاهب بالحقيقة والعدالة .

ــ ايها الرفاق
وكررها ، وهو يصب فيها كل حيويته واندفاعه :
ــ اننا نحن الذين نبني الكنائس ونقيم المصانع ؛ نحن الذين نصنع السلاسل ونصهر النقود ، نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعا الخبز والملذات من المهد الى اللحد .

وصرخ ريبين : اصبت ، اصبت .
ــ ابدا وفي كل مكان . نحن اول من يعمل ، وآخر من يعيش . من من الناس يهتم بأمرنا ؟ من منهم ينشد خيرنا ؟ من منهم يعاملنا كبشر ؟ لا احد .

... ودوى صوت : لا احد .

وراح بول بعد ان سيطر على نفسه ، يتكلم بكثير من البساطة والهدوء؛ واخذ الحشد يدنو منه شيئا فشيئا ، ويكتظ حوله كجسد قاتم كثير الرؤوس ويحدق به بمئات العيون اليقظة ، وينتشي بأقواله .

ـ لن يكون لنا مصير اذا لم نشعر بأننا رفاق ! واذا لم نكون اسرة واحدة من الاصدقاء ، تربطها بقوة رغبة واحدة ، رغبة النضال من اجل حقوقنا .

وتعالت بالقرب من الام اصوات خشنة :

ـ اخلص بنا الى النتائج .

وتصاعدت اصوات اخرى من هنا وهناك :

ـ دعوه يتكلم .

وكانت السحن المسودة المحتقنة تبدو حذرة متشككة ، وكانت بعض الابصار تتركز على بول وقورة متأملة .

وقال احدهم : انه اشتراكي ، ولكنه ليس غبيا .

وصاح رجل اعور ضخم الجرم ، متين البنية ، صاح وهو يدفع الام بكتفه :

ـ انه ليس بخائف .

ـ لقد آن ايها الرفاق ، ان ندرك ان احدا لن يساعدنا اذا لم نساعد نحن انفسنا . الفرد للجميع ، والجميع للفرد ، هذه هي شريعتنا اذا كنا نريد ان نقهر عدونا .

وصاح ماكوتين : انه على حق ايها الفتيان .

ثم لوح بقبضته في الهواء ، بحركة عريضة .

وتابع بول : يجب ان نحمل المدير على الحضور الآن . . .

وكأن اعصارا عصف بالحشد ، فأخذ يتموج ، واخذت عشرات الاصوات تتعالى متضمانة :

ـ المدير ، المدير .

ـ لنرسل اليه وفدا في الحال .

وكانت بيلاجي قد بلغت الصف الامامي ، وراحت تحدق ، من اسفل، بابنها ، وقد امتلأت زهوا . وكان بول هناك ، بين العمال الشيوخ الذين يحظون بالاحترام والتقدير ، وكانت الجموع كلها تصغي اليه وتستصوب رأيه ، وسرها انه لم يفقد اعتداله ، وانه لا يجدف كالآخرين .

وكنقاط الماء المتساقطة على سطح من تنك، انهمرت الهتافات المتقطعة، وانهمر معها السباب والشتائم ، وكان بول يتطلع من عل الى الحشد ،

بعينيه الواسعتين المتوحتين كأنه انما يبحث عن شيء ما .

ــ اعضاء الوفد .

ــ سيزوف .

ــ فلاسوف .

ــ ريبين ... فهو شرس الناب .

وفجأة ندت بعض الصرخات اقل دويا :

ــ هو ذا مقبل علينا .

ــ المدير .

وافسح الجمهور الطريق لرجل فارع القامة ، مستطيل الوجه ، يحمل في اسفل ذقنه لحية خفيفة ، فاندفع ، ينحي العمال من طريقه بحركة عصبية من يده ، ينحيهم دون ان يلمسهم ، مرددا :

ــ اسمحوا لي .

وكانت عيناه مزورتين ، وبصره يتفحص وجوه العمال بنظرة متقصية مستشفة ، نظرة رجل مجرب ، وكان هؤلاء يرفعون له قبعاتهم ، وينحنون، في حين كان هو يتابع طريقه دون ان يرد على مظاهر الاحترام هذه ، ناشرا الصمت والاضطراب في صفوفهم ، بشكل يستشعر المرء معه ان وراء البسمات المرتبكة وضجيج الهتافات الاصم ، ندم اطفال واعين ، على الحماقات التي ارتكبوها .

ومر امام الام مصوبا اليها نظرة قاسية ، ثم توقف امام كومة الحديد. ومد له احدهم يده من اعلى فلم يلمسها ، وبحركة رشيقة قوية تسلق، واتخذ لنفسه مكانا امام بول وسيزوف .

ــ ماذا يعني هذا الاجتماع ؟ ولماذا تركتم العمل ؟

وخيم الصمت في لحظات ، وتموجت الرؤوس كالسنابل ، وبدا على سيزوف انه يود لو يقذف بقبعته في الفضاء ، ثم هز كتفيه وطأطأ راسه .

وصرخ المدير : اجيبوا .

فانتقل بول الى جانبه ، وقال بصوت قوي مشيرا الى سيزوف وريبين:

ــ لقد كلفنا نحن الثلاثة ، من قبل رفاقنا ، ان نبلغك ضرورة الرجوع عن قرارك باقتطاع « كوبك » من اجورنا .

وقال المدير دون ان ينظر الى الشاب :

ــ ولماذا ؟

فرد بول بصوت داو :

ــ لاننا نعتبر هذه الضريبة جائرة .

ــ انكم اذا لا ترون في مشروعي الرامي لتجفيف المستنقع الا رغبة في

استثمار العمال : لا وسيلة لتحسين مستواهم ، أليس كذلك ؟
واجاب بول : نعم !
وسأل المدير ريبين : وأنت ايضا ؟
فرد هذا : ان وجهة نظرنا جميعا متفقة .
وقال المدير ، وهو يستدير نحو سيزوف :
ـ وانت ايها « البطل » ؟
ـ وانا ايضا ارجوك ان تتخلى عن « قرشنا » .
وابتسم بارتباك وهو يطأطىء راسه من جديد .
واجال المدير بصره ، في الحشد ، ببطء ، وهز كتفيه ثم صب على بول نظرة متفحصة وقال :
ـ انك شاب مثقف ، كما احسب ، فهل انت ايضا لا تدرك فائدة هذا المشروع ؟
ـ اذا جفف المستنقع على نفقة العمل ، فان كلا منا يلمس فائدة ذلك .
فأجاب المدير بجفاف :
ـ ليس العمل مؤسسة للاحسان ، واني آمركم جميعا باستئناف العمل فورا .
ثم هبط ، تتحسس اطراف قدميه الحديد بحذر ، ولا يلتفت الى احد .
وانتشرت بين الجميع ضوضاء تنم عن عدم الرضا فتوقف المدير وسأل :
ـ ما هذا ؟
وصمت الجميع الا صوت لعلع من بعيد ، من بين العمال :
ـ اذهب واعمل بنفسك .
وصاح المدير وهو ينتزع الكلمات انتزاعا :
ـ سأفرض الغرامة عليكم جميعا اذا لم تستأنفوا العمل في مدى ربع ساعة .

ثم تابع سيره وسط الزحام ، وارتفعت وراءه غمغمة خرساء ، وكان كلما نأى ، تعلو شيئا فشيئا ضوضاء الاصوات .

اذهب الآن وكلمه .
ـ هذا هو موقفهم من حقوقنا .. آه .. اننا حقا لمحظوظون .
وكانوا يصرخون في وجه بول :
ـ هه ايها المحامي ، ماذا يجب ان نفعل الآن ؟
فيما يتعلق بالكلام ، لقد احسنت الكلام ... ولكنه اتى ولا يتيسر الحال .
ـ وانت يا فلاسوف ... ما العمل ؟

وتلاحقت النداآت الملحة ، فأعلن بول :

ـ ايها الرفاق .. اني اقترح ان تتركوا العمل ما زال مصرا على اقتطاع « كوبك » من اجرنا .

وتأججت جذوة الهياج من جديد :

ـ انك تحسبنا بلهاء .

ـ الاضراب ؟

الاضراب من أجل « كوبك » ...؟

ـ وماذا يهم ؟... فلنضرب .

ـ انهم سيطرحوننا جميعا خارج الابواب .

ـ ومنذ الذي يستجديهم البقاء ؟

ـ سيجدون من يتوسل اليهم .

ـ أمثال يوضاس ؟

- ١٣ -

ونزل بول ، وعاد الى جانب امه ، وعاد حولهما الطنين : هذا يجادل ذاك ، والكل منفعلون .

وقال ريبين لبول وهو يقترب منه :

ـ لا تعلن الاضراب ، فالشعب متعطش الى الربح ولكنه جبان ، وهناك ثلاثماية عامل فقط قد يتبعونك لا أكثر . اننا لن نستطيع أن نزيح « مزبلة » كهذه بمذراة واحدة !

وكان بول صامتا ينظر الى الحشد ذي الوجه الاسود الهائل ، ينظر اليه وهو يتململ ، ويحدق به ينتظر منه شيئا ، وكان قلبه يخفق بضيق ، ويتراءى له ان كلماته قد تبددت دون أن تترك اثرا في نفوس القوم ؛ كالقطرات المتناثرة المتساقطة فوق أرض انهكها طول الجفاف .

وقفل الى منزله حزينا منهكا ، وكانت امه وسيزوف يسيران وراءه أما ريبين فكان يسير الى جانبه وصوته يطن في اذنه :

ـ انك تتكلم جيدا ، هذا صحيح ، ولكنك لا تمس القلب ؛ والشرارة يجب ان تلقى في أعماق القلب . انك لن تقنع الناس بالمنطق ، فالحذاء لطيف جدا ولكنه شديد الضيق على أقدامهم .

وكان سيزوف يقول للام :

ـ هذا هو الزمن الذي يجب ان نرحل فيه ، نحن العجائز ، الى المقبرة؛ لاننا الآن أمام شعب جديد ينمو . كيف نعيش ؟ لقد كنا نزحف ، وننحني

حتى الارض لكي نحيا . ولكنني لا ادري ما اذا كان الشبان قد ثابوا اليوم الى رشدهم ، أم انهم ما زالوا ينغمسون في ضلال يفوق ضلالنا انهم على كل حال ليسوا مثلنا .

لقد رايتهم كيف يخاطبون المدير كأنه ند لهم . اجل ... الى اللقاء يا بول ، لقد احسنت يا بني الدفاع عن الناس ، وستجد بعونه تعالى الطريقة التي تنقذهم بها ، أن شاء الله .

ومضى سيزوف ؛ ودمدم ريبين :

ــ الى قبرك ، لا ردك الله . فانك لم تكن اليوم انسانا بل غراء صالحا لسد الشقوق . ارايت يا بول ؟ ان اولئك الذين كانوا يهتفون ليرسلوك مندوبا عنهم . انهم هم انفسهم الذين يقولون عنك انك اشتراكي مشاغب . اجل انهم هم . لقد كانوا يتهامسون : سيطرد من العمل ، وهذا ما يليق به .

ــ انهم على حق بوجهة نظرهم .

ــ والذئاب ايضا على حق عندما يمزق بعضها بعضا .

وكان وجه ريبين مكفهرا وصوته يرتعش بشكل غير معتاد .

ــ ان الناس لا يصدقون الكلام المجرد العاري ، بل يجب ان تتألم ليصدقوك ، وأن تغمس كلماتك بالدم .

... وظل بول طوال نهاره مغموما ، مضنى ، يسيطر عليه قلق غريب، وكانت عيناه البراقتان تبدوان كأنهما تبحثان عن شيء ، وقد لاحظت امه ذلك ، فسألته بجزع : ما بك يا صغيري بول ؟

فاجابها مطرقا : انه الصداع .

ــ يجب أن تنام ، وسأذهب لاستدعاء الطبيب .

ــ لا حاجة لذلك .

وحدث نفسه بصوت هامس :

ما زلت فتى تنقصني القوة . هذا هو الواقع . انهم لم يثقوا بي ، ولم يتبعوني لاني لم أعرف كيف أقول لهم الحقيقة . وان ذلك لاذلال لي .

وقالت له امه برقة ، وهي ترنو الى وجهه المتجهم وتعزيه :

ــ قليلا من الصبر، انهم لم يفهموا اليوم شيئا، ولكنهم غدا سيفهمون. يجب أن يفهموا .

ــ هذا مؤكد ، فلقد فهمت انا نفسي حقيقتك .

ودنا بول منها : ولكنك يا اماه امرأة طيبة .

ثم تحول عنها اما هي فقد هزتها الرعشة ، كما لو احرقتها النار ، متأثرة بالكلمات التي سمعته يرددها هامسا ، ووضعت يدها على قلبها ، وابتعدت متقبلة بحذر دعاب ابنها .

وفي الليل عاد رجال الدرك ، فيما كانت هي نائمة ، وكان هو في سريره يقرا ، عادوا واستأنفوا التفتيش بضراوة . لقد فتشوا في كل مكان ، في غرفة المؤونة ، في فناء الدار ، وتصرف الضابط الباهت اللون ، كالمرة الاولى ، تصرفا جارحا ساخرا ، كأنما كانت هوايته أن يسخر ، وقد اجهد نفسه ليمسهم بسخريته حتى الاعماق ، وكانت الام تجلس في احدى الزوايا صامتة لا تحول بصرها عن ابنها ، اما هو فكان يحاول أن يكبت اضطرابه ، ولكن أصابعه كانت ترتعش بشكل غريب عندما يضحك الضابط ، وكانت تشعر انه يكاد يعجز عن الاجابة على أسئلة الدركي ، وانه يتحمل مزاحه الثقيل ، ولم يكن ذعرها كمثله عند التفتيش الاول ، وكانت تستشعر كرها اكثر لضيوف الليل هؤلاء بلباسهم الرمادي ومهاميزهم . وكان كرهها يطغى على خوفها .

وجاء بول يوشوشها :
ـ انهم سيأخذونني .
فطاطأت رأسها ، وأجابت بصوت خفيض .
ـ افهم ذلك .
اجل . لقد كانت تفهم انهم سيزجونه في السجن لانه خطب اليوم في العمال ، ولكن العمال جميعا كانوا موافقين على كل ما قاله . وسيدافعون عنه جميعا فلا يلبث ان يطلق سراحه .

واشتهت ان تضمه الى صدرها ، وان تبكي ، ولكن الضابط كان الى جانبها يراقبها مسبل الاجفان ، وكانت شفتاه تختلجان ، وشارباه يتراقصان ؛ وداخلها احساس بأن هذا الرجل ينتظر منها ان تسفح بين يديه الدموع ، والشكوى والتوسلات ، وظلت تضغط على يد ابنها ، وهي تحشد كل ارادتها ، وتحاول ان تجتزىء في كلامها ، وقالت له ببطء ، وهي تمسك انفاسها ، هامسة :
ـ الى اللقاء يا بول ، هل اخذت كل ما يلزمك ؟
ـ اجل ... لا تقلقي .
ـ ليكن الله معك .
وعندما اقتادوه تهالكت على المقعد مغمضة العينين ، وراحت تنتحب ببطء .

... وانتحبت طويلا وهي مطأطئة الراس ، تسند ظهرها الى الجدار كما كان يفعل زوجها ، ويثقل عليها الضيق وشعورها المذل بضعفها ؛ وتصب في نوح تأوهاتها الرتيب كل ما في قلبها المجروح من اسى . وكانت ترى أمامها ، كالبقعة الجامدة ، ذلك الوجه الشاحب ، ذا الشاربين الخفيفين ،

الذي تبدو الغبطة في عينيه المتغضنتين ، فيتدحرج في صدرها : كالكرة السوداء . الغضب الشديد والسخط على اولئك الذين ينتزعون الابن من والدته ، لا لسبب الا لانه ينشد الحقيقة .

... وكان الطقس باردا ، والمطر ينقر زجاج النوافذ ، وكان يخيل اليها ان اشباحا ترود حول منزلها في حلك الليل ، اشباحا رمادية ، طويلة الاذرع ، ذات وجوه حمراء عريضة لا عيون فيها . وكانت هذه الاشباح تسير ورنين مهاميزها يتصادى ضعيفا .

وكانت الام تتمنى :

ـ ليتهم على الاقل اخذوني معه .

وعوت صافرة المعمل بصوتها الآمر تدعو لاستئناف العمل ، وكان صوتها اليوم اصم خفيفا ، مضطربا ، ودخل ريبين وهو يمسح قطرات المطر عن لحيته ، وسألها :

ـ هل أخذوه ؟

وتنهدت : اجل ... لقد أخذه « الملاعين »

وقال ريبين ساخرا : حسنا ... ولقد فتشوا منزلي ، نبشوا كل شيء ،

نعـ...ـم ... وعووا ، ولكنهم لم يوجهوا الي اية اهانة . اذن لقد اخذوا بول ؟ لقد ادركت المؤامرة ، فلقد غمز المدير غمزة ، واشار الدركي اشارة معناها : لقد فهمت ... ومن ثم ... كان الاعتقال . آه ... انهم زملاء ... بعضهم ينهمك في حلب الشعب ، في حين يمسك الآخرون بقرونه.

وصاحت الام وهي تنهض :

ـ يجب ان تعملوا شيئا من اجل بول ، لان ما فعله كان من اجلكم جميعا .

ـ ومن الذي يجب أن يعمل ؟

ـ أنتم جميعا .

ـ اتصدقين أن ذلك يحدث ؟ لا ... يجب الا تدخلي هذا في حسابك.

ومضى ضاحكا ثقيل الخطى ، وظلت كلماته القاسية اليائسة تؤجج حزنها .

ـ انهم قد يضربوه ويعذبونه ...

وتخيلت جسد ابنها وقد اشبع ضربا ، تخيلته ممزقا مدمى ، فجثم الرعب على صدرها كالخزف البارد ، وسحقها هذا الرعب ، واحست بألم في عينيها . ولم تشعل في هذا اليوم موقدها ، ولم تهيىء فطورها ، ولم تشرب الشاي ، ولم تتناول الا كسرة من الخبز أكلتها عند المساء .

وعندما آوت الى فراشها استعرضت حياتها كلها . انها لم تكن في يوم من ايامها شديدة الوحدة ، شديدة العري كمثلها الآن . لقد تعودت في سنواتها الاخيرة أن تعيش في الترقب الدائم ، ترقب شيء ذي اهمية ، شيء يحمل اليها السعادة ، وكانت ترى الفتيان حولها يضطربون ضاجين جذلين تملأهم الحيوية ، وكان وجه ابنها الجاد نصب عينيها أبدا ، وجه ابنها ، خالق حياتها المنكودة . الطيبة مع ذلك . وها هو الآن بعيد عنها . . .

- ١٤ -

ومر النهار بطيئا ، وجاء في اعقابه ليل مؤرق ونهار آخر اشد طولا ، وكانت ترجو أن يلم بها خلاله احد ، ولكن أحدا لم يأت ، وهبط المساء ، ثم خيم الظلام .

وكان المطر ينتحب ، ويرشح من الجدران ، والريح تعصف في المدخنة ، وشيء ما يتحرك تحت الخشب في أرض الحجرة ، وكانت قطرات الماء تتساقط من السقف فيواكب نقرها الكئيب دقات الساعة . وبدا المنزل كله كأنه يتأرجح بفتور وهو منغرس في قلب الغم ، غير مبال بما يحيق به .

ونقرت النافذة نقرة . . . ثم نقرتين . .

لقد كانت تعرف هذه الاشارة ، ولم تك من قبل تروعها ، ولكنها هذه المرة أحست معها برعشة من الغبطة ، وقذفها من سريرها أمل غامض ، فطرحت على كتفيها شالا ، وفتحت .

ودخل ساموالوف ، وتبعه آخر كان يغطي وجهه بقبعة معطفه وينثال شعره على عينيه .

وسألها سامو الوف دون أن يحييها ، وكان ، على غير عادته ، قاتم الوجه مغموما ، سألها :

ـ لعلنا ايقظناك من رقادك ؟

فأجابته : لم اك نائمة .

وسكتت ، وسمرت على الزائرين عينين يملأهما الترقب .

وخلع رفيق سامو الوف قبعته ، وهو يطلق آهة ثقيلة مبحوحة ، ومد الى الام يدا عريضة قصيرة الانامل ، وقال لها بمحبة كما لو كان يخاطب صديقة قديمة :

ـ طاب مساؤك يا اماه . . . الم تعرفينني ؟

وصرخت بيلاجي فجأة وبفرح غامر :

ـ أهذا انت . يا ايغور ايفانو فيتش ؟

ورد وهو يحني راسه الضخم ، ذا الشعر الطويل كشعر الكاهن :
ـ بلحمي وعظمي .
وتالق وجهه المستدير ببسمة حلوة، وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تركزان على الام نظرة صافية ودودا . لقد كان ، بعنقه الضخم المستدير وذراعيه القصيرين، اشبه ما يكون بابريق الشاي ؛ وكان وجهه يطفح بالبشر، وينساب من صدره صوت كانه الحشرجة المبحوحة .
واقترحت الام :
ـ تفضلا الى الغرفة ، فسأرتدي ثيابي بسرعة .
واجاب سامو الوف وهو قلق اللامح ، يصوب اليها نظرة مزورة :
ـ نريد ان نحدثك في امر .
ودخل ايغور ايفانوفيتش الغرفة وقال :
ـ في هذا الصباح يا عزيزتي خرج من السجن نيقولا ايفانوفيتش الذي تعرفينه .
ـ لقد كان في السجن اذن !
ـ لقد قضى فيه شهرين واحد عشر يوما ، والتقى بالبيوروسي وبول اللذين يقرآنك السلام . ان ابنك يتوسل اليك الا تقلقي ، ويقول لك ان الطريق التي اختارها تستلزم ان يكون السجن ابدا موطن الراحة ، وان هذا هو ما قررته « سلطاتنا الباسلة » . ولننتقل الآن الى الموضوع . . . افتدرين كم هو عدد الذين اوقفوا نهار امس ؟
ـ كلا . . : اهناك اذن آخرون غير بول ؟
فقاطعها ايغور بهدوء :
ـ انه الموقوف التاسع والاربعون ، وينتظر ان يصطاد البوليس دزينة اخرى ، وهذا السيد واحد منهم .
وقال سامو الوف متجهما : نعم . . . أنا واحد منهم .
وشعرت بيلاجي انها تتنفس بسهولة أكثر ، ومرت بخاطرها هذه الفكرة كالبرق :
« انه ليس وحده هناك » .
وعندما ارتدت ثيابها ، دخلت الغرفة ، وقابلت ضيفها ببسمة شجاعة:
ـ حتما اذا كانوا قد اعتقلوا عددا كبيرا ، فانهم لن يوقفوهم طويلا .
واجاب ايغور ايفانوفيتش .
ـ هذا صحيح . واذا نظمنا انفسنا لنفسد عليهم لعبتهم ، فانهم سيكونون كالسابق بلهاء اغبياء ، وهذه هي الخطة اننا اذا ما توقفنا الآن عن توزيع المناشير في المعمل ، فان رجال الدرك ، عليهم اللعنة ، سيرتاحون من

هذا العمل المؤسف ، وسيكرسون جهودهم لمقاومة بول ورفاق سجنه ...
وصاحت الام مضطربة :
ـ وكيف ذلك ؟
فقال ايغور بهدوء : انه امر بمنتهى البساطة . ان رجال الدرك قد يفكرون احيانا تفكيرا صحيحا : عندما يكون بول طليقا يكون هناك كراريس ومناشير ، واذا لم يكن كذلك ، فليس هناك كراريس ولا مناشير . فماذا يعني هذا ؟ هذا يعني انه هو الذي ينشرها . أليس كذلك ؟ واذن فسيبدا رجال الدرك في نهشهم ، لانهم يحبون ان يعملوا اسنانهم في احد ما ، فلا يبقوا منه الا الغبار .
وردت الام مغمغمة ؟
ـ لقد فهمت ، لقد فهمت ... يا آلهي ، ما العمل اذن ؟
ورفع ساموالوف من صوته :
ـ لقد اعتقلهم السفلة ، اعتقلوا الجميع تقريبا ، وعلينا الآن أن نتابع العمل كالسابق ، ليس من اجل قضيتنا فحسب ، بل لانقاذ رفاقنا .
واضاف ايغور وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
ليس لدينا رجال للعمل ، ولدينا مقال رائع انشأته بنفسي ؛ فكيف ندخله الى المعمل ؟ هذه هي العقدة .
وقال ساموالوف : لقد بداوا في تفتيش الداخلين جميعا ، عند الباب .
وادركت الام انهم ينتظرون منها شيئا فسارعت تسأل :
ـ حسنا ... ما الذي يجب عمله ، وكيف ؟
وظهر ساموالوف على العتبة :
ـ انت على صلة طيبة بالبائعة ماريا كورسونوف .
ـ نعم .. وماذا يعني ذلك ؟
ـ فاتحيها بالامر فقد تقوم هي بتهريب الكراريس ...
فأشارت الام بيدها اشارة الرفض :
ـ لا ، لا ، انها ثرثارة ، وسيعرفون أن ذلك قد حصل بايحاء مني وبانه صدر عن بيتنا ...
وفجاة ، لمعت في خاطرها فكرة ، فقالت بصوت خفيض :
ـ هاتوها ، اعطوني اياها فسأتدبر الامر جيدا وسأجد الوسيلة ، سأطلب من ماريا ان تأخذني كمساعدة لها . سأقول لها : انني مضطرة ان اعمل لكي آكل . وسأحمل الطعام الى المعمل . سأتدبر الامر جيدا .
واكدت لهم بكلام سريع ، وهي تضع يدها فوق صدرها، بأنها ستؤدي المهمة على وجهها الاكمل دون ان ينكشف امرها ، ثم انتهت الى القول بلهجة ظافرة :

ـ سيرون انه وان كان بول ليس هنا ، فان يده تطالهم حتى وهو في سجنه . سيرون .

وانتشى الثلاثة . وكان ايغور يبتسم ويفرك يديه بحرارة :

ـ عظيم ايتها الام . ليتك تعلمين كم هو مدهش هذا ... انه بكل بساطة شيء رائع .

وقال ساموالوف وهو يفرك يديه ايضا :

ـ اذا نجحت الخطة فسأكون في السجن اسعد حالا مما لو كنت على مقعد وثير .

وصاح ايغور بصوته المبحوح : انك كنز ، انك ثروة .

وابتسمت الام ، فلقد كانت تدرك انه اذا ما ظهرت المناشير في المعمل ، فان الادارة ستتأكد أن ابنها ليس هو الذي يحملها . وكانت ترتعش من الغبطة ، ترتعش بكل كيانها ، وهي تأنس في نفسها القدرة على اداء هذا الواجب .

وقال ايغور لساموالوف :

ـ أبلغ « بول » عندما تذهب لزيارته ان له أما مدهشة .

واجاب ساموالوف والبسمة ترتسم على ثغره :

ـ سأقابله أولا .

ـ قل له اني سأعمل ما يتوجب عمله ؛ وليثق من ذلك .

وقال ايغور وهو يشير الى ساموالوف :

ـ واذا لم يوقفوه ؟

ـ وماذا تصنع ؟ ليكن ما يكون .

ـ وانفجرا ضاحكين ، وابتسمت هي ، بعد ان ادركت هفوتها ، ابتسامة طويلة غامضة فيها شيء من الخبث ؛ ثم قالت وهي تطرق رأسها :

ـ لكل همومه التي تشغله عن التفكير بهموم الآخرين !

واندفع ايغور يقول :

ـ هذا طبيعي . اما بشأن بول فلا تقلقي ولا تبتئسي ، انه سيخرج من السجن افضل من ذي قبل ، ففي السجن يرتاح المرء ويتثقف ، وهذا ـ ولنتكلم بحرية ـ ما لا يتيح لنا الوقت ، نحن الآخرين ، أن نحصل عليه . وانا مثلا ، دخلت السجن ثلاث مرات ! لم ادخله بفرح عظيم طبعا . ولكن دخوله كان شيئا مفيدا جدا بالنسبة لي روحيا وفكريا .

وقالت الام وهي تتأمل بمحبة وجهه البسيط الملامح :

ـ انك تتنفس بصعوبة .

فأجاب وهو يرفع اصبعه في الهواء :

ـ ان لذلك اسبابا خاصة . والآن ... هل ما قلته مفهوم يا اماه ؟ غدا سنهيىء لك المواد ، وستبدا الآلة التي تبدد ظلمات القرون عملها . عاش القول الحر ، وعاشت قلوب الامهات ... والى اللقاء بانتظار الغد .

وقال ساموالوف وهو يشد على يده بقوة :

ـ الى اللقاء ، اما انا فـلا استطيع ان اهمس مثلك اية كلمة من هذا ، في اذن الام .

واجابت بيلاجي تجامله :

ـ سننتهي جميعا الى الفهم ..!

واوصدت الباب بعد انصرافهم ، وركعت في وسط الحجرة تصلي ، في حين كان المطر يتساقط في الخارج .

لقد كانت تصلي دون ان تنبس بكلمة ؛ وكانت تجمع في فكرة واحدة عظيمة ، كل اولئك الذين اقحمهم بول في حياتها . لقد كانت تراهم يعبرون بينها وبين الصور القديسة ، وكانوا جميعا شديدي البساطة ؛ شديدي التراص ، والانفراد .

وفي ساعة مبكرة من الغد انطلقت الى ماريا كورسونوف ، فاستقبلتها البائعة الصاخبة ابدا ، الملطخة ابدا بالشحم ، استقبلتها بحرارة وسألتها وهي تربت على كتفها بيدها السمينة :

ـ هل تشعرين بالسأم ؟ لا ، لا تقلقي فالامور تسير في مجراها وليس ثمة ضير . لقد كانت الامور في السابق هكذا . كانوا يسجنون الناس عندما يسرقون ولكنهم الآن يسجنونهم اذا جهروا بالحقيقة . ربما كان بول قد قال ما لا يجب قوله ، ولكنه ، انبرى للدفاع عن الجميع ، والناس جميعا يعرفون هذا ؛ فلا تقلقي . انهم لا يقولون جميعا قوله ، ولكن الشجعان منهم يعرفونه جيدا . لكم وددت ان ازورك دائما ولكن ليس لدي متسع من الوقت ، فأنا اهتم بشؤوني المطبخية .. ثم بتجارتي ؛ وسأموت متشردة . ان عشاقي ـ يا لهم من سفلة ـ هم الذين ينهشونني .! انهم شرهون كالدويبات في قطعة خبز . لقد وفرت عشرة رويبلات ولكن واحدا من هؤلاء المارقين زحف ، فالتهم منها على الاقل روبلين . لكم هو بائس ان يكون المرء امراة ، ولكم هي قذرة الحياة على وجه هذه الارض . انه لقاس حقا ان يعيش المرء وحيدا ، ولكنه شيء قاتل ايضا ان يعيش مع آخر .

وقطعت بيلاجي هذا السيل من الكلام :

ـ لقد جئت اطلب اليك ان تقبليني مساعدة لك .

وسألت ماريا : وكيف ذلك ؟

ثم راحت بعد ان فرغت صديقتها من الكلام ، تهز راسها ملعنة :

ـ هذا ممكن . اتذكرين كم مرة حميتني مـن زوجي ؟ حسنا ... فـاحميك انا الآن من العوز . يجب علينا جميعا ان نساعـدك لان ابنـك يقاسي العذاب من اجل قضية هي قضية الجميع . انه فتى شجاع ؛ هـذا ما يقوله الجميع ويتألمون له ، اما انا فاتنبأ بان هذه التوقيفات لن تحمل الهناء للادارة ... الا تعلمين ما يحدث في المعمل ؟ انهم يا عزيزتي مستاؤون . اما في الادارة فانهم يقولون لبعضهم بعضا : لقد عقص الرجل في كاحله ، ولـن يستطيع ان يتابع طريقا طويلا ... اما النتيجة فهي انـه من اجـل عشرة ضربوا ، يثور سخط المئات .

وتوصلنا الى اتفاق . وفي اليوم التالي ، وفي وقت الغداء كانت بيلاجي في العمل ، تحمل الطعام الذي اعدته ماريا في طنجرتين ؛ اما هذه ، فكانت في السوق تشتري حوائجها .

- ١٥ -

وسرعان ما تنبه العمال الى البائعة الجديدة ، وكان البعض يقتربـون منها مشجعين :

ـ هل عثرت على عمل يا بيلاجي ؟

وكانوا يواسونها ، ويؤكدون لها ان بول سيطلق سراحه عما قريب ، وكان آخرون يثيرون بعباراتهم المواسية قلبها المعذب ، في حين يكيل آخرون غيرهم الشتائم للادارة ورجال الدرك ، فيترك سخطهم هـذا أعمق الاثـر في نفسـها .

والى جانب هؤلاء كانت هناك فئة تنظر اليها بشماتة ، حتى ان المصوب « ايساي غوربوف » قال لها وهو يكز اسنانه :

ـ لو كنت حاكما لشنقت ابنك ، لاعلمه كيف ينكب الشعب الطريـق القويم .

وجمدها هذا التهديد الحقود ببرد مميت ، ولم تجب على « ايساي » بشيء ، بل القت نظرة خاطفة على وجهه الضيق المغطى ببقع الكلف ، ثـم اسبلت عينيها متاوهة .

وكـان الاضطراب يسود المعمـل ، والعمـال يتنـاثرون جمـاعات صغيرة ، وينقدون باهتمام وبصوت خفيض ، ارباب العمل وتند عنهم من حين الى حين ، وهم يطوفون ارجاء المعمل ، شتائم وهتافات حانقة .

ورات بيلاجي ساموالوف يمر بالقرب منها يخفره اثنان من رجـال البوليس ، وكان يسير واحدى يديه في جيبه ، والاخـرى تلامس شعـره الاشقر والاشهب ، ونحو من مئة عامل يواكبونه ، ويغرقون رجلي البوليس بالسباب والسخرية .

وصاح به أحدهم : هل ستقوم بجولة ؟

وهتف آخر : المجد للعمال ... انهم يسيرونهم بموكب . ثم ندت عنه شتيمة صارخة .

وصرخ رجل اعور ضخم ، صرخ بحنق :

ـ انه لاجدى لكم ان تقبضوا على اللصوص ، لا ان تطاردوا الشرفاء .

واكمل آخر من بين الجمع :

ـ ليتهم فعلوا ذلك في الظلام ، ولكنهم سفلة لا يخجلون حتى في وضح النهار .

وكان الشرطيان يسيران مسرعين متجهمي الملامح ، يحاولان الا يريا شيئا مما حولهما ، ويتظاهران بأنهما لا يسمعان الهتافات التي كانت تواكبهما . وتقدم منهما ثلاثة عمال يحملون عصيا ضخمة من الحديد ، فهددوهما بها صائحين :

ـ حذار يا عشاق الصيد .

وعندما مر ساموالوف بالقرب من بيلاجي ، اومأ لها براسه ضاحكا وقال :

ـ لقد امسكوني .

وحيته باكبار وصمت ، وقد اثر فيها مشهد أولئك الفتيان الشرفاء الذين لا يعاقرون الخمرة ، بل ينطلقون الى السجون والبسمة فوق شفاههم ؛ وبدأت تكن لهم حبا عطوفا ، حب ام .

وبعد عودتها من العمل ، قضت بعد الظهر كله عند ماريا ، تساعدها في عملها وتستمع الى ثرثرتها ، وفي ساعة متأخرة من المساء عادت الى بيتها الفارغ البارد الذي لا ود عنده ، ولبثت وقتا طويلا تروح وتجيء ، قلقة لا تدري اين تجلس ولا تدري ماذا تفعل . لقد كانت قلقة ؛ اذ هبط الليل ولم يأت ايفور والمنشورات التي وعد باحضارها .

ووراء النافذة كانت تتراقص نتف الثلج الثقيلة الرمادية، ثلج الخريف، وتعلق بالزجاج ثم تنزلق بصمت ، وتدوب تاركة بقايا رطبة . وكانت بيلاجي تفكر بابنها .

وطرق الباب بحذر ، فعدت اليه مسرعة لتفتحه ، فاذا الطارق ساندرين . انها لم ترها منذ امد بعيد ، وكان اول ما فاجاها من الفتاة بدانتها المفرطة .

وحيتها ، سعيدة بأن تعثر على رفيقة ، تجنبها قضاء جزء من ليلها في الوحدة ؛

وكان قد مضى عليهما زمن طويل لم تلتقيا فيه فسألتها :

ـ هل كنت في سفر ؟

وأجابت الفتاة باسمةً :

ـ كلا .. لقد كنت في السجن مع نيقولا ايفانوفيتش ، الا تذكرينه ؟

وصاحت الام :

ـ وكيف انساه ، لقد قال لي ايغور البارحة انهم اطلقوا سراحه . اما انت فلم اك اعلم ، ولم يقل لي احد ذلك ...

وقاطعتها الفتاة وهي تدير بصرها فيما حولها :

ـ ولم الخوض في هذا الحديث ؟ يجب ان استبدل ثيابي ريثما يصل ايغور .

ـ انك مبتلة .

ـ لقد كنت احمل المنشورات .

وقالت الام بلهفة : اعطنيها ، اعطنيها .

... وفكت الفتاة ازرار معطفها بسرعة ثم انحنت فتساقطت منها رزم الاوراق كما تتساقط اوراق الشجرة ، فجمعتها الام ضاحكة :

ـ لقد قلت في نفسي عندما رايتك منتفخة هكذا انك لا شك متزوجة ، وانك تنتظرين مولودا ... يا الله ، كيف حملت هذا كله ؟.. الم تأتي سيرا على قدميك ؟

وقالت ساندرين وهي تبدو رشيقة رقيقة كالسابق :

ـ بلى .

ورات الام ان وجنتيها كانتا غائرتين ، وان عينيها قد أمستا واسعتين تحف بهما هالات سوداء .

وقالت الام وهي تهز رأسها متأوهة :

ـ لقد اطلقوا سراحك منذ قليل ، وكان عليك ان ترتاحي ، وبدلا من ان ...

ـ ذلك واجب . قولي لي كيف حال بول ؟ اليس شديد الوهن ؟

وكانت تتكلم دون ان ترفع بصرها الى الام ، وتصفف شعرها محنية الهام ، مرتعشة الانامل .

ـ أؤكد لك انه قوي العزيمة ، وانه على ما يرام .

وتابعت الفتاة بصوت خفيض :

ـ ان صحته حسنة اليس كذلك ؟

ـ انه لم يعرف المرض ابدا ... لشد ما ترتجفين ... مهلا ، ساتيك بقدح من الشاي مع مربى التوت الشوكي .

ـ لا بأس ... ولكن علام تزعجين نفسك ؟ ان الوقت متأخر فاسمحي لي ان اعد ذلك بنفسي .

وردت الام بلهجة مؤنبة :

ـ انك جد متعبة .

ثم انهمكت في اعداد الشاي ، وتبعتها ساندرين الى المطبخ ، وجلست على المقعد .

وقالت وهي تلقي بيدها وراء راسها :

ـ ومع ذلك فالسجن ينهك القوى . يا للبطالة اللعينة ، فليس هناك ما هو اشد ايلاما منها . ان المرء ليعرف كل ما عليه ان يعمله ... ولكنه يظل هناك في قفصه كالحيوان .

ـ ومن يثيبك عن هذا كله ؟

وردت الام بنفسها على السؤال الذي طرحته ، ردت متأوهة :

ـ لا احد الا الله . اما انتم فما من ريب انكم لا تؤمنون به .

واجابت الفتاة بايجاز وهي تهز رأسها :

ـ كلا ...

واعلنت الام بلهجة حماسية مفاجئة :

ـ حسنا ... وانا لا اصدقكم .

وبعصبية مسحت بمريولها يديها الملطختين بالفحم ، وتابعت بأيمان متأجج :

ـ انكم لا تفهمون عقيدتكم ! كيف يستطيع المرء ان يحيا حياة كهذه دون ان يؤمن بالله ؟

وتساحبت في المدخل خطى صاخبة ودمدم صوت ، واخذت الام رجفة اما الفتاة فانتصبت واقفة ، ووشوشت بسرعة :

ـ لا تفتحي اذا كانوا من رجال الدرك . قولي لهم انك لا تعرفينني ؛ وانني اخطأت المنزل فدخلت بيتك صدفة ، وانني كنت في غيبوبة ، فنضوت عني ثيابي ، ووجدت الكتب .. افهمت ؟

وسألتها الام بحنان :

ـ ولم ذلك يا صغيرتي العزيزة ؟

ـ انتظري .

واصغت ساندرين : يخيل الي انه ايفور .

وكان القادم هو ايفور فعلا ، وكان مبلل الشياب يحطمه التعب، وعندما دخل صاح :

ـ آه . آه . ابريق شاي ؟ هذا افضل ما في الدنيا يا اماه ؟ هل وصلت يا ساندرين ؟

وكان ، وهو يملأ المطبخ الضيق برنات صوته المبحوح ، يخلع ببطء

معطفه الثقيل ، ولا يتوقف عن الكلام :

ـ هي ذي يا أماه فتاة غير مرغوب بها من السلطات . لقد أهانها حارس السجن فأعلنت انها ستدع نفسها تموت جوعا اذا لم يقـدم لها اعتذاره ، ولبثت ثمانية أيام مضربة عن الطعام ، وكان من العدل ألا تخرج الا وقدماها من امام . . . وبطني الصغير ماذا تقولون عنه ؟

ودخل الغرفة وهو ما زال يثرثر ويحتضن بذراعيه القصيرين بطنـه المترهل ، ثم ما لبث ان صفق الباب وراءه .

وسألت الام ساندرين مندهشة :

ـ اصحيح انك لم تأكلي طوال ايام ثمانية ؟

فردت الفتاة وهي تهز كتفيها بتأثر ظاهر :

ـ لقد كان عليه أن يقدم لي اعتذاره .

واثار هدوؤها وعنادها الصارم شعورا في نفس الام يمازجه التعنيف ، فسألتها من جديد :

ـ وماذا لو مت ؟

ـ فأجابت بصوت خفيض :

ـ ليكن ، ومع ذلك فقد اعتذر . ان الاهانة يجب أن تغتفر .

وقالت الام ببطء :

ـ اجل . . ولكننا نحن النساء نهان طوال حياتنا .

وصاح ايغور وهو يفتح الباب :

ـ لقد تخففت من حملي الآن . هل الشاي جاهـز ؟ اسمحي لي ان أذهب لاحضاره .

واضاف وهو يقترب من ابريق الشاي :

ـ كان أبي الفاضل لا يشرب أقل من عشرين قدح من الشاي يوميا . ولذلك سلخ بسلام في هذا العام الحقير ثلاثا وسبعين عاما دون أن يمرض . لقد كان يزن مئة وخمسة وعشرين كيلوغراما ، وكان خادم رعية في قريـة فوسكريسانسكي .

وصاحت بيلاجي :

ـ الانت ابن الكاهن جان ؟

ـ اجل . . . وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لاني انا ايضا من قرية « فوسكريسانسكي »

ـ اذن انت مواطنة ؟ من اي عائلة ؟

ـ نحن جيران لكم . . . فانا من آل « سيرغين »

ـ انت ابنة « نيل » الاعرج ؟ لقد عرفته جيدا ، ولقد شد اذني اكثر من مرة .

وكانا يتضاحكان واحدهما يقف قبالة الآخر ، يتضاحكان تحت نار الاسئلة والاجوبة المتشابكة ، وكانت ساندرين ، وهي منهمكة في اعداد الشاي ، ترنو اليهما وتضحك .

ونبه احتكاك الاقداح الام الى واجباتها :

ـ آوه ، المعذرة . اني اثرثر . ولكنه من الجميل جدا ان يلتقي المرء بمواطن ...

ـ انا الذي يتوجب علي ان اطلب منك المعذرة لتتصرفي في بيتك كما اتصرف في بيتي ... ولكن الساعة الآن قد بلغت الحادية عشرة ، وامامي طريق طويل يجب ان اقطعه ...

وصاحت الام بدهشة : الى اين ؟ الى المدينة ؟

ـ نعم .

ـ كيف ذلك . ان الوقت ليل والسماء ممطرة ، وانت منهك ... ابق الليلة هنا .

والتفتت الى ساندرين :

ـ ينام ايغور في المطبخ ، وننام نحن هنا .

فاجابت الفتاة ببساطة :

ـ كلا ... يجب ان انصرف .

وقال ايغور :

ـ أجل ... يجب ان تتوارى هذه الفتاة يا مواطنتي ، فهي معروفة هنا ، واذا ظهرت غدا في الشارع فسيكون ذلك سيئا .

ـ ولكن ... هل ستذهب وحدها ؟

وقال ايغور والبسمة ترتسم على شفتيه : نعم .

وصبت الفتاة شيئا من الشاي لنفسها ، وتناولت قطعة من الخبز ، واخذت تلتهمها ، وعيناها المتأملتان تتركزان على الام .

ـ وكيف تستطيعين السير بمفردك ؟ وناتاشا ايضا ؟. انا لا اسير وحدي ، لانني اخاف .

وقال ايغور : وهي تخاف ايضا .. أليس كذلك يا ساندرين ؟

ـ هذا اكيد .

ونقلت الام بصرها عليهما واحدا بعد الآخر ، وهتفت بصوت كالهمس :

ـ لكم انتم قساة .

وعندما انتهت ساندرين من شرب الشاي، شدت على يد إيغور مودعة:

دون ان تنبس بكلمة ، واجتازت المطبخ ، والام تتبعها :

ــ ارجوك ان تبلغي بول تحيتي اذا ما رأيته .

وكانت يدها على مزلاج الباب ، حين استدارت بغتة ، وسألت بصوت خفيض :

ــ هل لي ان اعانقك ؟

واحتضنتها الأم دون ان تجيب ، وعانقتها بحرارة :

ــ شكرا لك .

... وخرجت بعد ان حيتها بايماءة من راسها .

والقت الام ، وهي تعود الى الحجرة، نظرة خاطفة مغمومة عبر النافذة. لقد كانت نتف الثلج المتميعة تتساقط في الظلمات ثقيلة بطيئة. وسألها ايغور:

ــ اتذكرين آل بروزوروف ؟

وكان يجلس متباعد الساقين ، وينفخ قدح الشاي بصوت مسموع وكان وجهه احمر مطمئنا ، ينضح بالعرق .

وقالت الام بسهوم وهي تتجه نحوه بخطى مزورة :

ــ اجل اني اذكرهم .

ثم جلست ، وركزت على الرجل نظرة حزينة ، وسألته بلهجة رؤوم :

ــ آه ... وساندرين ... كيف ستصل ؟

وابتسم ايغور :

ــ سوف تصل منهكة . لقد سبر السجن غورها ، وكانت من قبل اصلب عودا ، خاصة انها لم ترب تربية قاسية ... واعتقد انها تشكو مرضا في رئتيها .

واستوضحت الام :

ــ من اي عائلة هي ؟

ــ انها ابنة ملاك ، ووالدها ــ كما تقول هي ــ رجلٌ خليع ... اتعرفين يا اماه انهما سيتزوجان ؟

ــ ومن هما اللذان سيتزوجان ؟

ــ بول وهي ... ولكن ذلك متعذر ، فحين تكون هي طليقة يكون هو في السجن ، والعكس بالعكس .

واجابت الام بعد صمت :

ــ لا اعرف شيئا من ذلك ، فان بول لا يتكلم ابدا عن خصوصياته .

كانت ما تزال تحس بالاشفاق على الفتاة ، فقالت لضيفها وهي ترمقه بنظرة حقد غير مقصود :

ــ لقد كان من الواجب ان ترافقها .

واجاب بهدوء : -

ـ ان ذلك مستحيل ، فلدي هنا كومة من الاعمال يتوجب علي ان انجزها واحتاج معها الى السير نهارا بكامله ... وانه لعمل سيء بعض الشيء ... مع الربو الذي اعانيه .

وقالت بلهجة لا يمكن تعريفها :

ـ انها لفتاة جريئة .

وكانت تفكر بما قاله لها ايغور ، ويغيظها الا تتلقى هذا النبأ من ابنها مباشرة بل من رجل غريب ... وكانت من اجل ذلك تزم شفتيها وتقطب حاجبيها .

وقال ايغور وهو يهز راسه :

ـ جريئة جدا . ولكني الاحظ انها تثير فيك الشفقة فعلام ذلك ؟ اذا كنت ستوزعين شفقتك علينا جميعا فلن يكفيك ما عندك . اننا جميعا ، نحيا ، في الواقع حياة قاسية ، فمنذ امد غير بعيد مثلا عاد احد رفاقي من المنفى ؛ وعند وصوله الى « نينيي ـ نوفغورد » كانت زوجته وطفله ينتظرانه في « سمولانسك » وعندما بلغها كانوا في سجن من سجون موسكو . اما الآن فلقد جاء دور زوجته للذهاب الى سيبيريا . وانا ايضا كانت لي زوجة ؛ زوجة رائعة ، ولكن خمس سنوات من هذه الحياة جرتها الى المقبرة .

وكرع قدحه دفعة واحدة ، واستمر في كلامه ، وراح يعد الاشهر والسنين التي قضاها في المعتقل والمنفى ، ويسرد قصص الشقاء المتنوع ، والضرب الذي تعرض له في السجون ، وقصص الجوع في سيبيريا . وكانت الام ترنو اليه ، وتصغي وقد اذهلتها تلك البساطة ، وذلك الهدوء اللذان كان يصف بهما تلك الحياة المفعمة بالآلام والاضطهاد ، والمذلة .

ـ ولكن ... لنتحدث في موضوعنا ...

وتغير صوته واتزنت ملامحه وسألها اولا عن الخطة التي اعدتها لادخال المناشير الى المعمل ؛ وذهلت بيلاجي لمعرفته الدقيقة للتفاصيل كلها ، حتى اذا انتهيا من هذا الحديث ، عادا الى استرجاع الذكريات ، ذكريات مسقط الرأس . وفيما كان ايغور يتفكه ، كانت هي تتبع مجرى سنيها العابرة فتبدو لها كالمستنقع تتناثر فيه الهضاب المتشابهة ، وتنمو شجيرات الحور بارتعاشها الجبان ، واشجار الصنوبر ، والصفصاف الابيض الضائع بين التلال . لقد كانت اشجار الصفصاف تنبت ببطء وتعيش خمسا من السنوات أو ستا، فوق هذه التربة والموارة العفنة، ثم تتساقط، وتتعفن هي الاخرى.

لقد كانت الام تستحضر في ذهنها هذه اللوحة وقد استبد بها اشفاق ينوء به قلبها ، وكان ينتصب امامها ظل لفتاة قاسية الملامح، عنيدة التقاطيع،

تنطلق الآن تحت ندف الثلج الرطبة ، وحيدة هلكى .

... وابنها في السجن قد يكون ما زال حتى الآن ارقا لم ينم .. انه يفكر ، ولكنه لا يفكر بأمه ؛ بل هناك من هو اقرب اليه منها .

وكغمامة ملونة الانعكاسات . حائرة الاشكال ، كانت الافكار الثقيلة تزحف نحوها وتهصر قلبها بقوة .

وقال ايغور وهو يبتسم : انك متعبة يا اماه ، فهيا الى النوم . وتمنت له ليلة طيبة ، واجتازت المطبخ بخطى متأرجحة وحذر ، تحمل في قلبها اساها المحرق .

وفي الصباح ؛ عندما كانا يتناولان الشاي سألها :

ـ .. واذا قبضوا عليك، وسألوك من اين لك هذه المنشورات الملحدة، فماذا تقولين لهم ؟

ـ أقول لهم ان هذا الامر لا يعنيهم .

ـ نعم ... ولكن هذا القول لا يقنعهم ، وسيقنعون جيدا ، فيما لو كان الامر يعنيهم بالفعل ؛ وسيسألونك بالحاح دون ان يضجروا ..

ـ ولكنني لن أبوح لهم .

ـ انهم سيسجنونك .

فزفرت : سأحمد الله ، لانني سأكون عضوا صالحا لشيء ما على الاقل . من يحتاج الي ؟ لا احد .. ثم انهم ـ على ما يقال ـ لا يعذبون ...

وهمهم بعد أن حدق فيها بامعان :

ـ كلا .. انهم لا يعذبون ... ولكن سيدة جريئة مثلك يجب ان تحتاط ... واجابت بابتسامة مرة :

ـ انه لجميل منك ان تلقنني هذا الدرس .

وصمت ايغور لحظة ، وذرع ارض الغرفة ثم اقترب منها :

ـ ان هذا لعسير يا مواطنتي ، اشعر جيدا انه عسير جدا بالنسبة لك.

واجابت بحركة من يدها :

ـ انه عسير بالنسبة للجميع ، ولكنه ربما كان يسيرا على اولئك الذين يدركون ، وانا ، ادرك شيئا فشيئا ما ينشده الناس الطيبون .

وقال ايغور بلهجة وقور :

ـ اذا كنت يا اماه تدركين ذلك فالطيبون جميعهم ، اجل جميعهم ، بحاجة اليك .

ورشقها بنظرة خاطفة ، وابتسم بصمت .

... وعند الظهيرة خبأت النشرات في صدرها بهدوء وبكثير من المهارة مما حمل ايغور على ان يصيح مغتبطا :

ـ « شيرغات » كما يقول الالماني الطيب عندما يكرع اناء من الجعة .
ان الادب لم يبدل فيك شيئا ايتها الام ، فلقد ظللت امرأة باسلــة طيبه .
متقدمة في السن بعض الشيء ، ولكنها قوية كبيرة ، ألا فلتبارك خططك الآلية التي لا عد لها .

.. وبعد نصف ساعة وصلت الى باب العمل وهي تنوء بحملها الثقيل، ويبدو عليها الهدوء ورباطة الجأش .

وكان هناك حارسان احنقهما هزء العمال ، يفتشان كل من يدخــل الباحة دونما تمييز ، ويتراشقان الشتائم مع الداخلين ، وكان احد رجــال البوليس يقف جانبا ، كما يقف ايضا رجل آخر هزيل القائمتين ، احمــر الوجه ، زائغ النظرة ، وقد اخذت بيلاجي ، وهي تنقل حمالتها مــن كتف الى آخر ، تتبع حركاته بطرف عينها ؛ ويداخلها احساس بأنه جاسوس .

وكان هناك فتى فارع الطول اجعد الشعر ، يعلق قبعته في عنقــه ، ويصرخ في وجه الحارسين اللذين كانا يفتشانه :

ـ يجب ان تفتشوا في الراس ايها الابالسة لا في الجيب .

واجابه احد الحارسين :

ـ ليس في الرأس شيء سوى القمل .

ـ حسنا ... التقطوا هذا القمل . فهذا هو العمل الوحيد الــذي تتقنونه .

ولف الجاسوس الفتى بنظرة سريعة ثم بصق .

وقالت الام : اسمحوا لي بالمرور ، فأنتم ترون اني مثقلة ، وان حملي يقصم ظهري .

وصاح بها الحارس الرهيب : مري ، مري ولا تثرثري .

ووضعت الام آنيتها على الارض ، عندما وصلت الى مكانها المعتاد ، ثم القت نظرة عجلى على ما حولها وهي تمسح العرق المتصبب من وجهها...
واقترب منها في الحال صانعا اقفال هما الاخــوان « غوسوف » وسألهــا اكبرهما ، ويدعى « فاسيلي » ، سألها بصوت مرتفع، وهو مقطب الحاجبين:

ـ هل يوجد معك فطائر ؟

فأجابته : كلا .. سوف احضر منها غدا ...

وكانت تلك كلمة المرور ، فبرقت أسارير الاخوين ، ولم يتمالك جان وهو اصغرهما ، من ان يهتف : آه ايتها الام ... انك أمراة فاضلة .

وقرفص فاسيلي وراح يحدق في احد الاوعية بينما كانت رزمة مــن الاوراق تنزلق تحت سترته .

وقال لاخيه بصوت جهير :

ـ لن نذهب الى المنزل يا جان ، وسنتناول غداءنا من طعام السيدة ، اذ من الواجب ان نقدم العون للبائعة الجديدة . .

ثم دس ببراعة كلية ، من المنشورات في ساق جزمته .

ووافق جان على الفكرة : هذا صحيح . . . ثم انفجر ضاحكا .

وكانت الام تتلفت حولها بحذر ، وتنادي بين الفترة والفترة معلنة عن بضاعتها :

وكانت تحتال فتسحب من المنشورات رزمة بعد رزمة ، ثم تدسها في ايدي العمال الاصدقاء ، ومع كل رزمة ، كان وجه ضابط الدرك يبدو لعينيها كبقعة صفراء اشبه ما تكون بلهيب عود من الثقاب في غرفة مظلمة ؛ وكانت تقول له بذكاء وغبطة ساخرة :

ـ خذ . . . هذه لك يا ابني الصغير .

ثم تضيف منشرحة الصدر وهي تدس الرزمة التالية :

ـ خذ ايضا . . .

. . . وعندما اقبل العمال وصحونهم في ايديهم أخـذ جـان يضحك بضجيج . فتوقفت بيلاجي عن توزيع النشرات ، وراحت تسكب شوربـاء الملفوف والعجة ، في حين كان غوسوف يقول مازحا :

ـ لكم هي بارعة . . . هذه البيلاجي .

ورد عليه سائق متجهم الوجه :

ـ الحاجة تعلمك كيف تصطاد الجرذان . لقد اختطف الاوباش ذاك الذي كان يعولك . . حسنا . . اعطني عجة بثلاثة قروش . . ولا تبتئسي ايتها الام . . فستتدبرين أمرك .

وابتسمت الام : شكرا لهذا الكلام الطيب .

وابتعد العامل وهو يغمغم : هذا الكلام الطيب لا يكلفني غاليا .

وعادت بيلاجي تنادي من جديد :

ـ شوربا سخنة ، عجة ، شوربا بالملفوف . .

وكانت تقول في نفسها بأنها ستقص على ابنها حديث هذه الخطـوة الاولى ، وكان وجه الضابط الشاحب يمثل امامها ابدا ، كريها قلقا ، وشارباه الاسودان يتراقصان فينمان عن اضطرابه ، وكانت اسنانه المتراصة تلمع تحت شفته العليا التي قلصها الغضب ، وكـان الفرح يغـرد في قلب الام كالعصفور ، وعيناها تتغضنان بخبث ، وكانت تحدث نفسها وهي توزع بضاعتها بمهارة فتهمس :

ـ خذ هذه . . . وهذه ايضا .

وفي المساء بينما كانت تتناول الشاي ، تعالى ، تحت النافذة ، وقع حوافر ، حوافر جواد تخب في الوحل، وسمعت صوتا تعرفه، وبوثبة واحدة تخطت المطبخ الى الباب ؛ فاذا بها ترى شخصا يجتاز الباحة بخطى واسعة ، فيزوغ بصرها ، وتدفع الباب برجلها وهي تستند الى حاجز السلم .

وقال الصوت الذي تعرفه جيدا :

— طبت مساء ايتها الام الصغيرة .

واستقرت على كتفها يدان طويلتان خشنتان .

واجتاحتها مرارة الامل الخائب ، وفرحة اللقيا ، لقيا اندريه ، وامتزج الاحساسان المتفجران في احساس واحد ، احساس عميق لاهب ملأها بموجته العارمة ، وعصف بها فالقاها على صدر اندريه .

وضمها اندريه بذراعيه الراعشين ، وكانت هي تبكي بصمت دون ان تتفوه بكلمة وكان اندريه يداعب شعرها ، ويقول لها بصوت غريد :

— لا تبكي ايتها الام الصغيرة ، ولا تنهكي قلبك . اقسم لك انهم سيطلقون سراحه قريبا ، فهم لا يملكون ضده اي دليل ، لان الشبان التزموا الصمت جميعا كالاسماك المشوية .

وقادها الى الحجرة وهو يغمر كتفيها بذراعه ، وراحت وهي تلتصق به ، تمسح الدموع عن وجهها بحذر الستجاب ، وبدا وجودها المتعطش لسماع ما سيقول ، بدا هذا الوجود كله معلقا بشفتيه .

— ان بول يعانقك ؛ وهو بصحة جيدة وعلى احسن ما يكون نشاطا ؛ ولا شيء يشكو منه الا ضيق السجن ، فلقد اوقف عدد من الناس يفوق المئة ، من هنا ومن المدينة ، ولذلك يقيم في الغرفة الواحدة ثلاثة او اربعة . ولا مجال للتشكي من ادارة السجن فالقوم هناك ليسوا اشرارا ، ولكنهم مرهقون بالعمل ، العمل الذي اغرقهم به حتى الآذان رجال الدرك الشياطين؛ وهم ليسوا ، في مطلق الاحوال ، قساة القلوب ، بل انهم يرددون دائما : « الهدوء أيها السادة ، الهدوء . لا تخلقوا لنا المتاعب » ، وهكذا تسير الامور على أحسن وجه .

اما السجناء فانهم يثرثرون ، ويتبادلون الكتب ويتقاسمون الطعام ؛ والسجن سجن جيد ، صحيح انه قديم البناء ؛ مسرف في القدم ، ولكنه رغم ذلك لطيف ، لا يصاب المرء فيه بالصفراء . ورجال السلطة العامة قوم طيبون يساعدوننا كثيرا . لقد أطلق سراحي انا ، وسراح بوكين وأربعة آخرين ، وسيطلق سراح بول عما قريب ، وهذا امر اكثر من اكيد . . . اما فيسوشيكوف فسيطول امد اعتقاله : انهم غاضبون عليه وهو يوسعهم سبا

بلا هوادة . ورجال الدرك لا يطيقون رؤيته ، وربما أحيل الى المحاكمة أو الى الجلد .... ويحاول بول أن يهدئه فيقول له : « استكن يا نيقولا ، فانهم لن يكونوا افضل مما هم ، اذا صرخت في وجوههم » ولكن نيقولا يخور: « سأبقر بطونهم كالارانب » ... اما بول فيظل هادئا متزنا ، واني لأؤكد انهم سيطلقون سراحه عما قريب .

ورددت الام باسمة مطمئنة :

ـ نعم ... عما قريب ، أنا أعلم ذلك ، عما قريب .

ـ حسنا ... ما دمت تعرفين ذلك ، فصبي لي قدحا من الشاي وحدثيني عن الحال .

وكان يرنو اليها متهلل الوجه ، وقد التمع في عينيه لهب ودود يخالطه حزن خفيف .

وقالت الام ، وهي تطلق زفرة عميقة ، وتتأمل وجهه النحيل الذي يثير السخرية بما انبت فيه من اجمات الشعر القاتم :

ـ يا صغيري اندريه ... أني احبك حبا جما .

ورد البيوروسي وهو يتأرجح فوق كرسيه :

ـ ان القليل منه يكفيني ؛ فأنا أعلم انك تحبينني ، وانك تستطيعين ان تحبي العالم كله ، لان لك قلبا كبيرا ...

واصرت : لا ... اني احبك انت بصورة خاصة ، فلو كانت لك ام لغبطها الناس لان لها ابنا مثلك .

وقال بهمس : وانا ايضا لي أم في ناحية ما من الأرض .

وهتفت : هل عرفت ما فعلته اليوم ؟

وقصت عليه بحرارة ، ولسانها يتعثر من الغبطة ، كيف ادخلت المنشورات الى المعمل وزوقت القصة بعض التزويق .

وجحظت عيناه دهشة ، ثم انفجر ضاحكا ، هازا فخذيه ، ولطم راسه بيده وصاح يملأه الفرح .

ـ اوه ، اوه ... ولكن هذا ليس مزاحا . انه عمل جدي سيسر به بول أليس كذلك ؟ هذا جميل أيتها الام الصغيرة بالنسبة لبول ، وللجميع .

وكان يفرقع بأصابعه جذلا ، ويتأرجح في مقعده ويصفر، وكانت فرحته المتفجرة الغابرة توقظ فيها رجعا قويا .

وعادت الى الكلام كأنما قد فتح قلبها على مصراعيه وانبجس منه كينبوع طروب، فيض من الالفاظ المعبرة عن تلك الغبطة الهادئة التي تفعمها.

ـ يا الهي ... لقد تأملت حياتي ، وتساءلت ... لماذا عشت ؟ عشت للضرب ... والعمل ... وكنت لا أرى احدا سوى زوجي ؛ ولا اعرف شيئا

سوى الخوف . وحتى انني لا ادري : لقد كان همي كله . وافكاري كلها تدور حول امر واحد هو ان اطعم ذلك الوحش الضاري، ليشعر بالاكتفاء والشبع. وأن أضع نفسي في خدمته في الوقت المناسب ، كيلا يستشيط غضبا ، ويشبعني ضربا ؛ أو على الاقل ، لكي يوفرني من الضرب هذه المرة . ولا اذكر انه فعل ذلك ابدا . لقد كان يضربني بضراوة . حتى لاحسب انه كان لا يضربني انا بالذات . بل يضرب في كل اولئك الذين يكرههم . ولقد عشت عشرين عاما على هذه الوتيرة ، ولا أعرف شيئا مما حدث قبل زواجي ، وقد تعاودني الذكرى ، ولكنني لا ألبث أن أصبح كالعمياء ، لا ارى شيئا ابدا .

لقد كان ايغور ايفانوفيتش ، وهو ابن قريتي . كان هناك . وكان يتحدث عن هذا أو ذاك . اما انا فأذكر بيوتا وناسا . . . اما كيف كان يعيش هؤلاء الناس ، وماذا كانوا يقولون ؟ وماذا حل بهم ؟ فذلك ما لا اذكره ، وانما اذكر بعض الحرائق ، بل اثنتين منها . لقد أفلت مني كل شيء وباتت نفسي مغلقة كمنزل مهجور . انها عمياء صماء .

وتنفست الصعداء وتنشقت الهواء بنهم كسمكة خرجت من الماء ، وانحنت ثم تابعت بصوت أشد خفوتا :

ـ عندما قضى زوجي نحبه تعلقت بابني . اما هو فقد اخذ يهتم بهذه الامور التي ، تعرفها ، وكنت انظر الى تصرفه بعين غير راضية ، وكنت في الوقت نفسه اشفق عليه ؛ وأسائل نفسي : كيف أعيش وحيدة اذا هلك لا سمح الله ؟ اية كآبة كنت استشعرها واي قلق ؛ لقد كان قلبي يتمزق كلما فكرت بالمصير الذي ينتظره .

وصمتت وهزت راسها بهدوء ثم اردفت بلهجة متزنة :

ـ ليس حبنا نحن النساء حبا صافيا، فنحن نحب ما نشعر اننا بحاجة الى حبه . خذ على ذلك مثلا . انت الذي تعيش معذبا بعيدا عن امك مـا حاجتك اليها ؟ وكل اولئك الذين يتعذبون من أجل الشعب ، والذين يذهبون الى السجن أو الى سيبيريا، أو يموتون، وتلك الفتيات اللاتي ينطلقن وحدهن في الليل ، في الوحل ، وتحت الثلج والمطر ، واللاتي يقطعن سبعة كيلومترات ليأتين الينا . . . هؤلاء جميعا من يدفعهم ؟ من يستحثهم ؟.. انهم يحبون فحسب ، وهذا هو الحب الصافي . انهم يعتقدون . انهم يؤمنون يا اندريه .. اما انا فلا اعرف حبا كهذا ، انني احب ما في ذاتي ، وكل ما يتعلق بي .

وقال البيوروسي الذي كان يفرك كعادته بعصبية ، راسه ووجنتيه وعينيه ، قال لها دون أن يرفع بصره :

ـ انك تستطيعين ايضا . فنحن جميعا نحب ما هو اقرب الينا ، ولكن ما هو بعيد يغدو بالنسبة للقلب الكبير .. قريبا . انك تستطيعين أن تحبي

حبا عظيما لان قلبك كأم ..
وقاطعته هامسة : ان شاء الله . انا احس هذا الحب بكل تأكيد ، احسه جيدا ، وان الحياة لجميلة معه . اسمع . انني أحبك ، وربما كنت احبك اكثر مما احب بول . انه منطو على نفسه . تصور انه يود أن يتزوج من ساندرين ، وانه لم يحدثني عن ذلك ابدا ؛ لم يحدثني أنا .. أمه ..
ـ ليس هذا صحيحا . انا اعلم ذلك . اما الصحيح فهو انه يحبها وهي تحبه ، ولكن غاية هذا الحب ليست الزواج ؛ انها تتمنى ذلك ؛ ولكن بول لا يبغيه .
وقالت الام بشرود ، وبصرها الحزين يتعلق بأندريه :
ـ اذا فالامر هكذا ؟ ان الناس يتنكرون لذواتهم .
واجاب اندريه بصوت خفيض :
ـ ان بول رجل فذ .. انه من حديد .
وتابعت هي بلهجتها الحزينة :
ـ والآن .. هوذا في السجن . وذلك أمر مريع مخيف ، يختلف عن ذي قبل . ان الحياة لم تعد هي نفسها ، وكذلك الخوف ، وكلاهما يرعبانني.

وقلبي ... هو الآن غيره بالامس . لقد فتحت نفسي عينها وتطلعت ، فاذا الحزن فيها يمتزج بالغبطة . اني ادرك قليلا من الامور ، وانه لشديد علي الا تؤمنوا بالله . هذا هو الواقع ، ولست استطيع حياله أن أفعل شيئا، ولكنني ، مع ذلك ارى انكم قوم طيبون .. وانكم نذرتم انفسكم لحياة قاسية في سبيل الشعب ، نعم .. لحياة قاسية في سبيل الحقيقة .

لقد أدركت انا أيضا تلك الحقيقة التي تنشدونها ، ما دام هناك اغنياء فسيظل الشعب معدما لا يعرف العدالة ولا الفرحة ، ولا اي شيء آخر . اني أعيش بينكم ، وفي كل ليلة اتذكر حياتي الغابرة أكثر من مرة ، واتذكر قوتي التي سحقتها الاقدام ، وقلبي الفتي الممرغ ، فأشفق على نفسي ، وهذا أمر شديد المرارة ؛ ومع ذلك فان الحياة أصبحت بالنسبة لي افضل من ذي قبل ، وانا أرى نفسي بوضوح يوما عن يوم .
ونهض البيوروسي ، وراح يذرع ارض الغرفة بقامته الفارعة الهزيلة ، جاهدا الا يجر قدميه جرا :
ـ ان ما قلته حسن ، حسن .. ولقد كان في « كيرتش » شاب ينظم الاشعار ، فكتب يوما هذين البيتين :

... والابرياء الذين اعدموا ،
ستبعثهم من رموسهم قوة الحقيقة ..

وقتله البوليس ، هو نفسه ، في « كيرتش » ، ولكن ذلك لا اهمية له ،

بل المهم انه كان يعرف الحقيقة ، وأنه بذرها بين الناس ، وانت ايضا ، كما ترين ، مخلوق بريء حكم بالموت ..

وقاطعته الام : لقد جاء دوري ... اني اتكلم ، واصغي ، ولا اصدق اذني .

لم افكر قط في حياتي الا بأمر واحد هو ان اعبر مع النهار منسية . لا يراني احد قانعة فقط بالسلامة . اما الآن فأنا افكر فيكم جميعا . انا لا افهم تمام الفهم تصرفاتكم ، ولكني احسكم جميعا قريبين مني . اشفق على الناس جميعا ، واتمنى لهم الخير جميعا ، وبصورة خاصة ، لـك انت يا عزيزي اندريه .

ودنا منها وقال :

ــ شكرا .

واخذ يدها بين يديه ، وشدها بحرارة وطواها ثم استدار عنها سريعا. وارهق الانفعال الام ، فراحت تغسل آنية المطبخ متباطئة . وكانت تلتـزم الصمت ، ويدفىء قلبها شعور البأس والبسالة .

وقال لها البيوروسي :

ــ اسمعي ايتها الام الصغيرة . عليك ان تدللي ، في يوم من الايـام ، فيسوشيكوف بعض الدلال ... لان اباه ، هو ايضا في السجن . ويا له من شيخ قميء مقرف ؛ اذا رآه نيقولا من نافذته شتمه ، وليس هذا باللائق . ان نيقولا رجل طيب ، يحب الكلاب والفئران والمخلوقات كلها ، ولكنـه لا يحب الناس ..

آه .. لشد ما يمكن ان يفسد انسان .

وقالت بيلاجي وهي مطرقة :

ــ لقد اختفت امه ، وأباه لص سكير ..

وعندما مضى اندريه لينام باركته الام دون أن يلحظ ذلك ، وكان قد مضى عليه وهو في سريره نحو نصف ساعة عندما سألته برقة :

انك لم تنم بعد يا اندريه .

ــ لا ... ولماذا ؟

ــ طابت ليلتك .

واجابها ممتنا : شكرا ايتها الام الصغيرة . شكرا .

- ١٧ -

وفي الغد عندما بلغت بيلاجي باب المعمل مثقلة بحملها اوقفها الحـرس بخشـونة وامروها بأن تضع طناجرها في الارض ، ثم فتشوها بدقة .

واحتجت بهدوء فيما كانوا يتحرون ثوبها دونما خجل :

ـ سيبرد طعامي بسببكم .
وأجابها احدهم بصوت كريه : اخرسي
وقال لها الآخر بثقة وهو يدفعها بكتفه دفعا رفيقا :
ـ واذا لم تصمتي فسيلقى طعامك كله في السياج .
وكان أول من اقترب منها سيزوف العجوز. لقد تلفت حواليه بحذر ؛ وسألها بصوت خافت :
ـ هل سمعت ما يقال أيتها الام ؟
ـ وماذا يقال ؟
ـ لقد عادت المناشير الى الظهور . لقد نثرت في كل مكان . نثرت كالملح في الخبز . وبدأت الاعتقالات ، والتحريات . لقد زجوا بحفيدي مازين في السجن . واعتقلوا ابنك ، ثم ظهر بصورة أكيدة انهما ليسا هما اللذين يوزعانها . . لقد ظهر ذلك جليا الآن .
وجمع لحيته في قبضته ، ورنا الى بيلاجي وقال وهو ينأى عنها :
ـ عرجي على بيتنا . . فأنت وحيدة ، وهذا ما يبعث السأم . أليس كذلك ؟

وشكرته . وكانت وهي تعلن عن بضاعتها تراقب بعين يقظة ، الاضطراب غير العادي الذي يسيطر على العمل. لقد كان العمال جميعا كأنهم في هياج ؛ يتجمعون في زمر لا تلبث أن تتفرق ، وينتقلون من ورشة الى اخرى ، وكانت تتنسم في الهواء المثقل بالهباب نفحة استبسال وجراة . وكانت تتصاعد من هنا وهناك صيحات تحريض ، وهتافات ساخرة وكان العمال المتقدمون في السن يكتفون بالابتسام ، والمناظرون يروحون ويجيئون، والقلق باد في ملامحهم ، ورجال البوليس يتراكضون فيتفرق العمال ببطء حين يرونهم ، أو يكفون عن الحديث دون أن يتحركوا من أماكنهم ، ويرنون الى وجوههم الكريهة الحانقة بصمت .

وكان العمال يبدون كمن استحم في النضارة ، وكان الشبح الشامخ ، شبح « غوسيف » البكر يظهر هنا وهناك ، يتبعه أخوه الاصغر كظله ، ويقهقه بصوت داو .

ومر النجار « فافيلوف » والثقاب ايساي ، بالقرب من الام على مهل . وكان ايساي ، وهو رجل صغير هزيل ، شامخ الرأس ، يميل بعنقه الى اليسار ، ويرنو الى النجار المنتفخ الوجه ، الذي تبدو عليه اللامبالاة ، ويحدثه بحرارة ولحيته تهتز :
ـ انظر يا ايفان ايفانوفيتش . انهم يقهقهون . انهم مغتبطون رغم ان تصرفهم كما قال حضرة المدير ، يؤدي الى خراب الدولة . انه لا يجب هنا ،

يا ايفان ايفانو فيتش تنفية التربة من النباتات الطفيلية فحسب ، بل يجب حرثها .

وكان فافيلوف يسير ، ويداه مشبكتان وراء ظهره ، وأصابعه تتشنج وكان يقول بصوت مرتفع :

ــ قل ما شئت يا ابن الكلبة ، ولكن لا تحاول ان تأتي على ذكري

واقترب غوسيف من الام :

ــ لقد جئت لاتناول طعامي عندك .. لان « بضاعتك » جيدة .

ثم اضاف وهو يخفض صوته ويغمز بعينيه :

ــ لقد كانت ضربتك محكمة ايتها الام .. هذا عظيم .

واومات اليه بيلاجي براسها ايماءة ود، وكان يسره ان يرى ذلك الفتى الذي يعد اكثر شبان الضاحية مزاحا ، وان يتحدث اليه سرا ، مخاطبا اياه باحترام . وكانت هي سعيدة ، بهذا الهيجان الشامل وتحدث نفسها :

ــ من الاكيد اني لو لم أكن هناك ..

وتوقف ثلاثة جنود على مقربة منها ، وقال احدهم بصوت خفيض ولهجة متحسرة !

ــ لم اعثر على واحد من المنشورات .

ــ ينبغي ان يقرا المنشور بصوت عال . صحيح اني لا اعرف القراءة ولكنني ارى جيدا انهم تلقوا ضربة في الضلوع ..

وتلفت الثالث حواليه واقترح :

ــ هيا بنا الى غرفة الوقود .

وتمتم غوسيف غامزا :

ــ لقد بدات النتائج تظهر ..

... وعادت بيلاجي الى منزلها شديدة الابتهاج .

وقالت لاندريه : انهم يتحسرون لانهم لا يعرفون القراءة .. اما انا فقد كنت اعرفها عندما كنت صغيرة .. ولكنني نسيتها .

ــ يجب ان تتعلميها من جديد .

ــ وفي سن مثل سني ؟ علام تريدني ان اثير ضحك الناس علي ؟

ولكن اندريه تناول كتابا عن الرف ، واشار الى حرف من حروف الغلاف براس سكينة وسالها :

ــ اي حرف هو هذا ؟

فأجابت ضاحكة : انه حرف الراء .

ــ وهذا ؟

ــ حرف الالف .

وكانت مضطربة منفعلة . فلقد توهمت ان عيني اندريه تضحكان منها وتسخران ، وكانت تتحاشى نظراتهما ، ولكن صوته كان يرن عذبا صافيا ، ووجهه يبدو متزنا جادا ، فسألته ببسمة مكبوتة :

ــ أمن الممكن يا اندريه انك تفكر حقا في تعليمي ؟

ــ ولم لا ، ما دمت تعرفين القراءة ؛ فانك ستتذكرين بسهولة ؛ ولقد قال المثل : « اذالم تكن هناك معجزة فيا للخسارة .. واذا كانت ... فذلك احسن . » كماقال أيضا : «انك لا تصبح قديسا بمجرد التطلعالى الايقونات» ثم اردف وهو يهز رأسه :

ــ اجل .. ان الامثال لا تغفل شيئا ، فلقد قيل : « اذا عرفنا قليلا نمنا هنيئا » فهل هذا صحيح ؟ ان المعدة هي التي تفكر بالامثال ؛ انها تحبك منها لجاما للنفس بزمامها جيدا .. وهذا الحرف ما هو ؟

وكانت الام تجهد نفسها ، مسترخية النظرة مقطبة الحاجب ، لتتذكر الاحرف المنسية وكانت وقد استغرقتها هذه الغاية، تنسى الاحرف الباقية. وبدت عيناها منهكتين ، وظهرت فيهما اولا دموع الاجهاد ، ثم غزرت فيهما دموع الاسى .

وقالت وهي تنفجر منتحبة :

ــ انا اتعلم الابجدية . اتعلم القراءة في سن الاربعين .

وقال اندريه بصوت خفيض ملاطف :

ــ يجب الا تبكي . فأنت لا تستطيعين العيش الا كذلك ؛ ومع هذا فانت تدركين الآن ان الناس يعيشون حياة منكودة . ان هناك آلافا منهم يستطيعون ان يحيوا حياة أفضل من حياتك ، ولكنهم يعيشون كالحيوانات . وهم مع ذلك ، يعتزون بحياتهم تلك . فأي خير يتحقق في وجود هؤلاء ؟ انهم اليوم يعملون ويأكلون ، وسيفعلون ذلك في الغد ، وسيظل الامر هو نفسه طوال حياتهم : عمل واكل . وفي خلال ذلك ينفحون الدنيا اطفالا يكونون في باديء الامر مصدرا لسلواهم ، ولكن عندما يبدأ هؤلاء في الاكل كثيرا ، يحنق الاهل ، ويسيئون معاملتهم : « هيا ، ايها الشرهون ، انموا سريعا . يجب ان تشتغلوا » انهم يودون ان يجعلوا من صغارهم بقرة حلوبا ، ولكن هؤلاء يكدحون بدورهم من اجل بطونهم ؛ ويحيون بدورهم ، حياة بائسة ، كحياة المحكوم بالاعدام وهو في اغلاله . ان هؤلاء وحدهم هم الذين يحطمون قيود العقل البشري ، وانت الآن ، ايتها الام تتصدين على قدر طاقتك ، لمثل هذه المهمة .

وزفرت الام : لا تحدثني عن نفسي ، فماذا استطيع انا ان افعل ؟

ـ ولم ذلك ؟ ان كل قطرة من المطر تروي بذرة . انك عندما تستطيعين القراءة . .

.. وراح يضحك ، ثم نهض ، واخذ يذرع الغرفة طولا وعرضا :

ـ أجل ستتعلمين . . وعندما يعود بول . . أليس كذلك ؟

وردت عليه :

ـ آه يا اندريه . عندما يكون المرء شابا يسهل عليه كل شيء . . ولكنه يغدو كلما تقدم في السن ، غنيا بالاحزان ، فقيرا بالقوى ، وبالعقل . . ثم لا يعود يملك شيئا . .

- ١٨ -

وفي المساء خرج اندريه من المنزل . واشعلت بيلاجي المصباح . وجلست قرب الطاولة تنسج جوربا ؛ ولكنها ما عتمت ان نهضت ، وسارت بضع خطوات حيرى ، وانطلقت نحو المطبخ ، ثم احكمت اقفال البـاب وعادت الى الغرفة وقد ارتسم على جبينها تغضن قلق .

وأسدلت الستائر ، ثم أخذت كتابا كان على الرف . واقتعدت مـن جديد ، مكانها من الطاولة ، وسرحت بصرها في ارجاء الغرفة ، واتكبت على الصفحات ، وراحت شفتاها تتحركان . وكانت عندما تترامى الى سمعهـا جلبة في الشارع ، تطبق الكتاب وتصغي بانتباه شديد ؛ ثم لا تلبث ان تعـود من جديد ، فتفتح عينيها تارة ، وتغمضها تارة اخرى ، وتغمغم :

« ا . . ر . . ض . . بنا »

وطرق الباب فوثبت على عجل . والقت الكتاب على الرف وسألـت محنقة :

ـ من الطارق ؟

ـ انا .

ودخل ريبين . فمسد لحيته بزهو وقال :

ـ لقد كنت قبلا تسمحين بالدخول دون ان تسألي من الطارق ؟ هـل انت وحدك ؟ لقد كنت اعتقد ان البوروسي هنا ، فلقد رايته اليوم . . ان السجن لا يفسد الرجال .

وجلس .

ـ حسنا . لنتحدث قليلا .

وكان على ملامحه مسحة جد ، وسر خفي بعثا في قلبها رعبا غامضا .

ورن صوته المتزن :

ـ كل شيء يكلف مالا ، فلا شيء يتم بدون بذل ؛ لا الحياة ولا الممات .

وهكذا النشرات فانها تكلف مالا .. فهل تعرفين من أين يأتي المال الذي يغطي نفقاتها ؟

واجابت بيلاجي بهدوء وهي تتوقع خطرا :

ـ لا ادري .

ـ وانا ايضا لا ادري شيئا من ذلك .. افهل تدرين ايضا من يكتبها ؟

ـ انهم فئة من العلماء ...

وقال ريبين ، ووجهه الملتحي يستطيل ويتضرج :

ـ انهم سادة . اجل . انهم سادة اذن اولئك الذين يصوغونها ويوزعونها ، وفي هذه النشرات يهاجم السادة ، فقولي لي الآن .. اية فائدة يجنونها من بذل المال لاثارة الشعب ضد أنفسهم ؟

وارتعشت أجفان الام ، وصرخت بهلع :

ـ ماذا تتخيل ؟

وقال ريبين وهو يتململ فوق مقعده بتثاقل الدب :

ـ وانا ايضا شعرت بالبرد عندما توصلت الى هذه الفكرة .

ـ هل توصلت الى معرفة شيء ما ؟

ـ اشم رائحة الخديعة . انا لا اعرف شيئا ولكني موقن انها خديعة . اني احتاج الى معرفة الحقيقة ، وقد عرفتها . لن أتعاون مع هؤلاء السادة فهم اذا ما احتاجوا الي دفعوني الى الامام لتكون عظامي الجسر الذي يعبرونه الى ابعد من ذلك .

وكانت كلماته القاتمة كانها انما تهصر قلب الام ، فصرخت وقد تملكها الضيق :

ـ يا سيد .. أمن الممكن الا يدرك بول ذلك ؟ واولئك الذين ..

.. واخذت الوجوه النبيلة الصارمة ، وجوه ايفور وتيقولا ايفانوفيتش وساندرين تنتصب امامها ، فيتفطر قلبها ، وتتابع وهي تهز رأسها بالنفي :

ـ كلا ، كلا ... انا لا استطيع ان اصدق . انهم يعملون بوحي ضمائرهم ؟

ـ عمن تتحدثين ؟

ـ عنهم جميعا . عن كل اولئك الذين رأيتهم بلا استثناء .

واطرق ريبين وقال :

ـ يجب ان ينطلق بصرك الى ابعد ، ايتها الام ، فقد لا يكون اولئك الذين يترددون الى هنا ، والذين كنا نراهم عن كثب ، قد لا يكونون هم انفسهم على علم بشيء . ان هؤلاء يؤمنون ، وهذا ما يجب ان يكون ، ولكن

ربما كان وراءهم آخرون لا ينشدون الا المصلحة .. ان المرء لا يندفع ضد مصلحته الا بثمن .

ثم اضاف بايمان عنيد ، ايمان قروي :

ـ لا خير ابدا يرتجى من هؤلاء السادة .

وسألته الام وقد وقعت من جديد فريسة للشك :

ـ وماذا قررت ؟

وتأملها ، وصمت لحظة ثم قال :

ـ انا ؟ يجب الا استمر في التعاون مع هؤلاء السادة ... هذا هو ما قررته .

ثم صمت من جديد ، وهو متجهم الاسارير .

ـ لقد اردت ان اضع نفسي انا وفتيانك ، للعمل معهم ، واني لاصلح لهذه المهمة ، واعرف ماذا يجب ان يقال للناس .. اما الآن فسأرحل . انا لا استطيع ان اثق بهم ، وعليّ ان اذهب .

وطأطأ راسه ، يفكر :

ـ سأنطلق وحدي في القرى والدساكر ، سأوقظ الشعب ، اذ على الشعب ان يأخذ مكانه في النضال . واذا ادرك ذلك فانه لن يضل الطريق ابدا . وسأبذل جهدي لكي يدرك بانه لا امل له الا بنفسه ، والا منطق الا منطقه .. هذا هو الواقع .

وداخل الام اشفاق عليه وخوف ، ولم تك من قبل تشعر نحوه بأي تعاطف ، ولكنه اصبح فجأة قريبا من نفسها ؛ فقالت له برقة :

ـ سوف يقبضون عليك .

فرنا اليها واجاب بهدوء :

ـ سيقبضون عليّ ثم يطلقون سراحي فأعيد الكرة .

ـ ان الفلاحين انفسهم سيوثقون يديك ، وستزج في السجن .

ـ اذا زججت في السجن فاني سأخرج منه ، وسأعود للعمل . اما الفلاحون فانهم سيوثقون يدي مرة ومرتين ، ثم ينتهون الى الاعتقاد بأنه يجب الاصغاء اليّ لا القبض عليّ ، وسأقول لهم : « لا تصدقوني ولكن اصغوا الي فقط ... واذا اصغوا الي فانهم سيصدقونني » .

وكان يتكلم ببطء كأنه يتحسس كل كلمة قبل ان يلفظها :

ـ لقد مررت ، في الزمن الاخير هذا ، بتجارب كثيرة ، وادركت كثيرا من الامور ..

وقالت بيلاجي وهي تهز راسها بأسى .

ـ سوف نهلك يا ميشال .

فركز عليها عينيه السوداوين العميقتين اللتين كانتا تبدوان كأنهما تنتظران جوابا ، وكان جسمه القوي يميل الى الامام ، ويداه تستندان الى متكأ المقعد ، ووجه البرونزي يبدو شاحبا في اطار لحيته السوداء .

ـ انت تعرفين ما قاله يسوع عن حبة القمح . « ينبغي ان تموت لتبعث في سنبلة جديدة ، وما زال لدي متسع من الوقت .. قبل ان اموت .. واني لامرؤ ذو حيلة ..

وتململ في مقعده ثم نهض متباطئا :

ـ انا ذاهب الى الفندق ، وسأمكث هناك ، بعض الوقت . يظهر ان البيوروسي لن يحضر ، فهل تراه انهمك في العمل من جديد ؟

واجابت الام باسمة :

ـ نعم .

ـ هذا ما يجب . اعيدي عليه ما قلته لك .

واجتازا المطبخ بتثاقل ، وتبادلا بعض العبارات دون ان ينظر احدهما الى الآخر .

ـ والآن ، وداعا .

ـ لقد قضي الامر .

ـ ومتى ترحل ؟

ـ غدا ، في الصباح الباكر . وداعا .

وسار ريبين محني الظهر واجتاز الردهة كالمكره ، وظلت الام على العتبة لحظة تصيخ بسمعها الى الخطى الثقيلة، والى الشكوك التي استيقظت في قلبها ؛ ثم ارتدت دونما جلبة الى الغرفة ، ورفعت طرفا من اطراف الستارة ، وتطلعت من النافذة . لقد كانت الظلمات الكثيفة وراء الزجاج جامدة لا تتحرك .

وقالت في نفسها :

ـ انه الليل .

وكانت تشفق على هذا القروي النير التفكير ، وكان هو واسع الصدر شديد البأس .

... واقبل اندريه بادي النشاط والمرح ،

وعندما حدثته عن زيارة ريبين صاح :

ـ حسنا ، لينطلق في القرى ، يبشر بالحقيقة ويوقظ الشعب . انه لا يشعر بالراحة معنا ؛ فلقد نبتت في راسه افكاره القروية ، ولم يبق في هذا الراس مكان لافكارنا .

وقالت بغبطة

ـ ان ما قاله عن السادة يدل على ان هناك امرا مبيتا ... فضلا عن انهم يخدعوننا .

وصاح البيوروسي ضاحكا :

ـ هل يزعجك هذا ؟ آه ... المال ... ليتنا نملك المال ايتها الام الصغيرة ؛ فنحن ما زلنا نعيش حتى الآن بمال الآخرين : خذي مثلا نيقولا ايفانوفيتش . انه يقبض خمسة وسبعين روبلا في الشهر يدفع لنا منها خمسين . والآخرون كذلك . وهنا طلاب جياع يبعثون الينا ، اكثر الاحيان، ببعض المال الذي يجمعونه فلسا فلسا . ان السادة بلا شك انواع : بعضهم يخدع ، والبعض الآخر في المقدمة ، اما افضلهم فانهم معنا .

وفرك يديه وتابع بقوة :

ـ ان نصرنا ليس للغد ، ولكننا سنعد بانتظار اول ايار ، عيدا «صغيرا» طيبا ، وسيكون هذا العيد بهيجا .

وطردت حماسته الكآبة التي زرعها ريبين في نفسها ، وكان يختال في الغرفة وهو يمسح شعره بيده ، ويقول ، وعيناه مسمرتان في الارض :

ـ اني احس احيانا تفجر حياة عجيبة في قلبي ، ويخيل الي ان المرء يلقى اصدقاء انى ذهب ، اصدقاء يدفعهم جميعا نفس اللهب ، اصدقاء طيبين ، مرحين ، يتفاهمون دونما كلام ؛ ويعيشون في انسجام رائع ، ويغني كل قلب انشودته ، وتسيل هذه الاناشيد كلها كالجداول ، وتصب في نهر واحد يندفع عريضا ، حرا ، نحو البحر ، بحر الهناآت الصافية ، هناآت الحياة الجديدة .

وكانت بيلاجي تجهد نفسها في الا تأتي باية حركة كيلا تقطع عليه حديثه . لقد كانت تصغي اليه دائما اكثر مما تصغي للآخرين ، وكان يتحدث ببساطة اكثر ، فتمس كلماته القلب بقوة . كان بول لا يقول ابدا كيف يرى المستقبل ، في حين ان المستقبل كان في نظر اندريه كشطر من قلبه ؛ وكان يخيل اليها وهي تستمع الى خطبه انها تصغي الى حكاية حلوة ، حكاية العيد العظيم الذي سيشرق على الناس جميعا ، وكانت هذه الحكاية تلقي الضوء، بنظرها ، على اتجاه حياة ابنها وعمله ، هو ورفاقه .

وتابع البيوروسي وهو يهز رأسه :

ـ وعندما نعود الى الواقع ، عندما نتلفت حولنا نجد كل شيء باردا موحلا ، والناس هلكى محنقين .

ثم تابع بحزن عميق :

ان هذا لمهين ؛ ولكن ينبغي ان نحذر الانسان ، ان نخافه . وحتى ان نكرهه . ان الانسان موزع . وعلينا ان نحب فقط ... فهل هذا ممكن ؟

كيف تغفر لمن ينقض عليك كوحش ضار لا يعترف بان فيك روحا تحيا ؛ ويسدد ضربات قبضته الى وجهك كانسان ؟ محال ان تغتفر له ذلك ؛ وهذا ليس بالنسبة لي انا ، فأنا اتحمل الاهانات كلها اذا لم يكن سواي ؛ ولكنني لا اريد ان اخضع ابدا ، لاولئك الذين يستخدمون القوة ولا اريدهم ان يتعلموا ضرب الآخرين على حسابي .

وهنا لمعت عيناه بألق بارد ، فأحنى راسه بعناد وقال بكثير من الحزم:

ـ يجب الا اغتفر اي عمل سيء ؛ حتى ولو لم يكن يمسني شخصيا ؛ فأنا لست وحدي على الارض . لنفترض اني استكنت اليوم للاهانة فلم ارد عليها ، وبأني ضحكت منها لانها لم تجرحني ؛ فان وجهها الذي اختبر قوته فيّ ، سيعتدي غدا على شخص آخر . من اجل هذا يجب التمييز بين الناس ؛ ويجب ان يكون المرء ثابت الجنان ؛ وان يقول : « هؤلاء اخوتي ، وهؤلاء ليسوا كذلك » ان هذا الموقف صحيح ولكنه لا يبعث على السرور .

وانطلق تفكير الام بصورة لا واعية الى الضابط وساندرين فزفرت :

ـ كيف نصنع الخبز من قمح لم يزرع بعد ؟

فصاح اندريه :

ـ هذه هي المصيبة .

ـ اجل .

وتراءى لها فجأة شبح زوجها عبوسا ثقيلا كصخرة ضخمة يغطيها العشب ، وتخيلت البيوروسي وقد تزوج ناتاشا ، وابنها وقد ربط مصيره بساندرين .

وتابع اندريه مستنشاطا :

ـ وعن اي شيء ينتج هذا ؟ انه ناتج فقط ـ وهذا ما يبدو في الوقت نفسه مضحكا ـ ناتج عن ان الناس غير متساوين . لنضع الناس جميعا في مستوى واحد ، لنوزع بالتساوي كل ما ابدع العقل وكل ما صنعته الايدي، نتحرر من عبودية الخوف والحسد واغلال الطمع والغباوة .

هذه هي الاحاديث التي كانت تدور غالبا بين البيوروسي والام .

وكان اندريه الذي عاد الى العمل في المصنع ، يضع اجره كله بين يدي بيلاجي التي كانت تقبضه ـ بكل بساطة ـ كما تقبض اجر بول .

وكان اندريه يقترح احيانا بعين ضاحكة :

لم لا نقرأ قليلا ايتها الام الصغيرة ، لم لا نقرأ ؟

وكانت هي ترفض مازحة ، ولكنها ترفض بعناد ، وكانت بسمة اندريه تربكها وتحنقها فتقول :

ـ اراك تضحك ، فهل في هذا ما يضحك ؟

وكانت تسأله دائما عن معنى هذه اللفظة او تلك . حين يشكل عليها معناها ، تسأله دون ان ترفع اليه بصرها ، وبصوت تحاول ان تشحنه باللامبالاة ؛ وقد استنتج انها كانت تدرس على نفسها في الخفاء . وادرك مبلغ ضيقها فلم يعد يقترح عليها ان تقرأ معه .

وصارحته مرة :

ــ ان بصري ضعيف يا اندريه . اني بحاجة الى نظارتين .

ــ ربما كان ذلك . سنذهب نهار الاحد الى المدينة ، وسآخذك الى الطبيب ، وسيكون لك نظارتان .

كانت قد طلبت السماح لها بمقابلة بول ثلاث مرات ، وكانت تتلقى في كل مرة ، رفضا « شهما » من قائد الدرك ، وهو عجوز صغير قرمزي الوجنات ، ضخم الانف : سنرى خلال اسبوع يا سيدتي على الاقل : وليس اقل من ذلك . اما الآن فمستحيل .

وكان مربوع القامة ممتلئا ، يذكرها بحبة خوخ ناضجة طال عليها الامد في الدكان وعلاها زغب التعفن ؛ وكان ينقب دائما اسنانه النضيدة البيضاء بقطعة صغيرة من الخشب الاصفر المدبب ، وكانت عيناه الصغيرتان المدورتان والخضراوان تبتسمان بحرارة ، وفي صوته جرس محبب ودود .

وقالت الام للبيوروسي : انه عالي التهذيب ، يبتسم ابدا .

ــ اجل . اجل . انهم في غاية اللطف والبشاشة . يقال لهم : خذوا . هو ذا رجل ذكي شريف . انه خطر علينا فاشنقوه ، فيبتسمون ويشنقون الرجل ثم يعودون الى الابتسام .

ــ لقد كان الضابط الذي قام بالتفتيش عندنا شديد البساطة ؛ ثم تبين على الاثر انه كان سافلا .

ــ هؤلاء ليسوا ببشر . انهم مطارق لسحق الناس وابتلائهم بالصمم . انهم آلات تستخدم لتكييفنا نحن افراد الشعب ، لنغدو اداة طيعة . وهم انفسهم في خدمة اليد التي تحركنا . انهم ينفذون ما يؤمرون به دونما تفكير ، ودون ان يسألوا عن الغاية .

واخيرا اعطي الاذن لبيلاجي .

واقبلت يوم الاحد الى نظارة السجن ، وقبعت متواضعة في احدى الزوايا ، وكان في الغرفة الضيقة القذرة المنخفضة السقف بضعة اشخاص غيرها ينتظرون موعد الزيارة ولم تكن هذه ، بلا شك ، هي المرة الاولى التي يأتون بها الى السجن ، فلقد كانوا يعرفون بعضهم بعضا ، وكانوا ، يتجاذبون فيما بينهم ، بصوت منخفض متساحب ، حديثا لحمته الشكوى والهذر ، حديثا لزجا كنسيج العنكبوت .

وكانت امرأة بدينة ذاوية الوجه تقول وعلى ركبتيها كيس :
ـ هل عرفتم ؟ ان كاهن الكنيسة كاد ، هذا الصباح ، وفي القداس الاول ، ان يقتلع اذن صبي من جوقة التراتيل .
وسعل رجل طاعن في السن يرتدي بزة عسكري متقاعد ، سعل بصوت مسموع وقال :
ـ يا لهم من متشردين ، صبية الجوقة هؤلاء . . . .
وكان هناك رجل قصير اصلع ، قصير القائمتين ، طويل الذراعين ناتيء الفك يذرع ارض الغرفة وهو بادي الانهماك ، ويقول ، بصوت كئيب ، ودون ان يتوقف :

ـ ان غلاء المعيشة يزداد اكثر فأكثر ؛ لذلك صار الناس اكثر فسادا من ذي قبل . ان الليبره من لحم البقر ، الصنف الثاني ، تساوي اربعة عشر « كوبكا » ؛ ورغيف الخبز يساوي الآن « كوبكين » ونصفا .

وكان يدخل الغرفة احيانا سجناء يرتدون اللباس الاشهب الموحد . ويغطون احذيتهم بكواليش ثقيلة من الجلد ، وكانت عيونهم تعشى عندما يدخلون الغرفة المظلمة قليلا ، وكانت السلاسل تثقل رجلي واحد منهم .

وكان كل شيء هادئا هدوءا عجيبا ، وبسيطا لدرجة تثير القرف ، حتى ليحسب المرء ان هؤلاء الناس قد ألفوا هذا الجو منذ امد بعيد . لقد كان بعضهم يجلس بهدوء ، والآخرون يتسلقون السلم بفتور ، وآخرون ايضا يقبلون لزيارة السجناء متأنقين مستسلمين . وكان قلب الام يرتعش ضيقا، وكانت ترنو قلقة الى كل ما يحيط بها فتدهشها تلك البساطة الثقيلة الوطأة.

وكانت تجلس الى جانبها عجوز قصيرة مجعدة الوجه ، الا انها ما برحت شابة النظرة ، وكانت تصغي الى الحديث ، وهي تمد عنقها الهزيل ، وترنو الى الناس ، وفي نظرتها غرابة التحدي .

وسألتها بيلاجي بلطف .
ـ من لك هنا ؟
فأجابت العجوز بسرعة وبصوت عال : ـ ابني ، وهو طالب . . .وانت؟
ـ ابني ايضا ، وهو عامل .
ـ ما اسمه ؟
ـ فلاسوف .
ـ لا اعرفه . . . امنذ وقت طويل هو في السجن ؟
ـ منذ ستة اسابيع .
ـ اما ابني فهو هنا منذ اكثر من عشرة اشهر .

وخيل لبيلاجي انها تتميز في صوتهـا أحساسا لا يوصف . احساسا كأنه الزهو .

وكان العجوز الصغير الاصلع يقول بسرعة :

ـ نعم ، نعم ... لقد نفذ صبر الناس . انهم جميعا غاضبون . انهم يضجون فلقد ارتفع سعر كل سيء ، واصبح الناس ، بنتيجة ذلك ، اقل تيعة . اننا لا نسمع اصوات المصلحين .

ـ هذا صحيح كل الصحة . يا للفوضى ، يجب ان يرتفع صوت ليأمر بالصمت ، هذا ما يجب ان يحصل ؛ صوت حازم .

ونشط الحديث واشترك به الحاضرون ، وكان كل واحد منهم يسارع الى قول كلمته عن مستوى المعيشة ، ولكنهم كانوا جميعا يتكلمون بصوت منخفض وكانت الام تستشف في حديثهم شيئا بدا لها غريبا . ان الآخرين يتكلمون في منزلها بشكل آخر . انهم يتكلمون لغة اكثر بساطة ، ووضوحا . وادنى الى الفهم .

ونادأها حارس ضخم الجثة ، مربع اللحية اشقرها ، وتفحصها من راسها حتى اخمص قدميها ، ثم راح يحلج امامها بعد ان قال لها :

ـ اتبعيني .

وتبعته ، وراودتها رغبة في ان تدفعه من وراء ليسرع خطاه . وفي غرفة صغيرة كان بول واقفا يبتسم ويبسط لها يده . وحضنتها الام وراحت تضحك . وكانت اجفانها ترتعش ولسانها يبحث عن الكلمات ؛ واخيرا قالت برفق :

ـ صباح الخير ، صباح الخير .

ـ هدئي من روعك يا اماه فليس ما يدعو الى الاضطراب ...

وشد على يدها بقوة .

وقال الحارس متأوها :

ـ تراجعي الى الوراء ايتها الام ، لا تقتربي منه كثيرا ، ولتبق بينكما فسحة ..

وتثاءب بصوت مرتفع .

وسألها بول عن صحتها ، وعن البيت ، وكانت تنتظر اسئلة اخرى ، فراحت تبحث عنها في عينيه ، ولكنها لم تعثر عليها . لقد كان ـ كما هو دائما ـ هادئا ، ولكنه اكثر شحوبا ، وكانت عيناه تبدوان اكبر من ذي قبل .

ـ ان ساندرين تقرئك السلام .

وارتعشت اجفانه ورقت ملامحه وابتسم ؛ ووخزت قلب الام مرارة شديدة فتابعت وهي تشعر بالحنق والمذلة :

ـ هل سيطلقون سراحك قريبا ؟ لماذا سجنوك ما دامت المنشورات قد عادت الى الظهور ؟

ولمعت عينا بول بألق الغبطة .

ـ عادت من جديد ؟

واعلن الحارس بلهجة اللامبالي :

ـ الحديث عن هذه الامور ممنوع هنا . تحدثوا فقط عـن الشؤون العائليـة .

وسألته الام :

ـ اليس هذا من الشؤون العائلية ؟

فاجابها باستخفاف : لا ادري ... وكل ما ادريه ان هذا ممنوع .

وتدخل بول :

ـ حدثيني يا اماه عن العائلة .

واجتاحها شعور ببطولة فتية : لقد حملت ذلك كله الى المعمل .

ثم توقفت لحظة وتابعت باسمة :

ـ شورباء ، ومجدرة ، وكل ما تطبخه ماريا ... ومأكولات اخرى...

وفهم بول وعض شفته ليخنق رغبتـه في القهقهة ، ورد الى الـوراء شعره المنثال ثم قال بصوت مداعب لم تأنسه من قبل :

ـ جميل ... لقد وجدت اذن عملا فلا تضجرين ابدا !

وردت دونما صلف :

ـ وعندما عادت هذه المناشير الى الظهور ، عادوا أيضا الى تفتيشي .

وصاح الحارس غاضبا .

ـ عدنا الى الحديث في السياسة ؟ لقد قلت ان هـذا ممنوع . يحرم المرء من الحرية لكيلا يعرف شيئا . انك لا تصغين الى شيء مما اقول . يجب ان تفهمي ان هذا ممنوع .

وقال بول :

ـ حسنا .. لا تتكلمي في الموضوع يا اماه ... ان ماثيو ايفانوفيتش رجل طيب ؛ ويجب الا نثير غضبه . اننا على اتم التفاهم ، وقد جيء بـه اليوم الى هنـا ، صدفة ، اذ ان نـائب المدير هو الذي يشرف عـادة على المقابلات .

واعلن الحارس وهو ينظر الى ساعته :

ـ لقد انتهت المقابلة .

واحتضنها بول بحرارة وعانقها ؛ واسعدها هذا التصرف ، واثر فيها فاخذت تبكي . وصاح ماثيو : هيا افترقا .

وقاد الام وهو يغمغم :

ـ لا تبكي . سيطلقون سراحه . انهم سيطلقون سراحهم جميعا اذ لم يبق هنا مكان متسع لهم .

وعندما عادت الى المنزل اخبرت اندريه بحماسه وغبطة :

ـ لقد حدثته بلباقة ... وفهم هو ...

ثم زفرت : لقد فهم ؛ والا لما كان عانقني . انه لم يفعل ذلك في حياته ابدا .

وقال اندريه ضاحكا :

ـ آه ... هذا جميل منك . ان كل انسان في هذه الدنيا ينشد شيئا ما . والام تنشد المداعبة دائما .

وصاحت بدهشة مفاجئة :

ـ عجبا كيف تسيطر العادة على اولئك الذين يترددون على السجن . لقد انتزع اولادهم منهم . ووضعوا في السجن ، ولم يؤثر ذلك فيهم شيئا . انهم يأتون فيجلسون وينتظرون ويثرثرون ..اليس كذلك ؟ فاذا كان المثقفون يتعودون هذا ... فما هو حال الشعب ؟

واجاب مبتسما :

ـ هذا امر طبيعي ، ومع ذلك فان القانون بالنسبة لهم اخف وطأة مما هو بالنسبة لنا ؛ حتى ولو صفعهم هذا القانون ، فانهم يسخرون منه، ولكن ليس الى حد كبير ؛ لان الضربة تظل اقل ايلاما حين يتلقاها المرء من عصاه .

- ٢٠ -

وفي احدى الامسيات . بينما كانت الام جالسة تحيك الجوارب ؛ واندريه يقرأ بصوت عال قصة ثورة العبيد الرومان ، طرق الباب بشدة ، ففتح اندريه ، ودخل فيسوشيكوف يتأبط صرة وهو منسرح الشعر على رقبته . غارق في الوحل حتى ركبتيه ؛ وقال بصوت غريب ، وهو يأخذ يد بيلاجي بيده ويهزها بعنف :

ـ كنت مارا من هنا فرأيت نورا في النافذة ؛ فدخلت لاحييكم . اني خارج توا من السجن . ان بول يبعث اليكم بتحيته .

ثم تهالك مترددا على احد المقاعد ، واجال في الحجرة بصره المتشكك القاتم .

لم يكن فيسوشيكوف يعجب الام ؛ فلقد كان في راسه الحليق ذي الزوايا ، وعينيه الصغيرتين ، شيء يثير رعبها ، اما الآن ، فانها تشعر في حضرته بالغبطة ، لذلك قالت بحرارة وهي تبتسم منفعلة :

ـ لشد ما نحلت ... لنعد له الشاي يا اندريه .

واجاب اندريه الذي كان في المطبخ :

ـ ها انذا اعده .

ـ وكيف حال بول ؟ هل اطلق سراح آخرين سواك ؟

فطأطأ رأسه وقال :

ـ بول لا يزال في السجن . انه يتجلد . ولم يطلق سراح احد سواي .

ثم رفع رأسه ، ونظر الى الام ، وتابع ببطء وهو يكز على اسنانه :

ـ لقد قلت لهم : عندكم ما يكفيكم فاطلقوا سراحي ، واذا لم تفعلوا فاني اقتل شخصا ، ثم اقتل نفسي ... وكان ان اطلقوا سراحي .

ـ نعم .

قالتها بيلاجي وهي تنأى عنه ، واجفانها ترف بحركة لا ارادية ، عندما تلتقي عيناها بالعينين الصغيرتين ، عيني الرجل ذي الوجه المجدور .

وصاح اندريه من المطبخ :

ـ وتيو مازين ... اما زال ينظم الاشعار ؟

ـ نعم ، ولكني لا افهم شيئا من هذا .

ثم اردف وهو يهز رأسه :

ـ أهو هزار ؟ لقد وضع في القفص فراح يغني . انا لا افهم سوى امر واحد هو انه ليست لي اية رغبة في الذهاب الى المنزل .

وقالت الام بشرود :

ـ هذا اكيد ، فماذا ستجد في منزلك ؟ انه خاو لا دفء فيه كل شيء فيه بارد كالجليد .

وصمت لحظة مسبل الاجفان ، واخرج من جيبه علبة للسجائر فتناول سيجارة وراح يدخنها ببطء ؛ ويتتبع ببصره سحابة الدخان الرمادي التي تتلاشى امامه ، ثم لم يلبث ان انفجر ضاحكا ، فكانت ضحكته اشبه ما تكون بنباح الكلب .

ـ أوه بارد ؟ يجب أن يكون كذلك . قد تكون الجعلان المتجمدة تتساحب في ارضه ، كما ان الفيران قد تموت فيه من البرد .

ثم سأل بصوت اصم دون ان يرفع بصره الى الام :

ـ اتسمحين لي بان اقضي الليل عندك ؟ هل تريدين ؟

فقالت بحرارة : اجل .

وكانت تشعر بالضيق ، وبأنها في حضرته ليست على ما يرام .

ـ اننا نعيش في زمن يخجل فيه الابناء من ذويهم .

وسألت الام وهي ترتعش : ماذا ؟

فرجمها بنظرة ، واغمض عينيه ، وبدا وجهه المجدور فجأة كوجه اعمى . ثم ردد وهو يصعد زفرة :

ـ لقد قلت ان الابناء بداوا يخجلون من ذويهم . وهذا لا ينطبق عليك، فان بول لن يخجل بك ابدا ؛ ولكنني انا الذي اخجل بأبي ، ولن اذهب الى منزله ابدا . ليس لي اب ولا منزل . وقد وضعت تحت رقابة البوليس ولولا ذلك لانطلقت الى سيبيريا . هناك سأحرر المنفيين ، وسأهيىء لهم خطة الهرب .

وكانت الام تدرك بقلبها الحساس ان الفتى يتألم ؛ ولكن الم لم يكن يوقظ فيها الشفقة ، فقالت له كيلا تثقل عليه بصمتها :

ـ اذا كان الامر كذلك على وجه اكيد ، فانه من الافضل لك ان تذهب الى سيبيريا .

وخرج اندريه من المطبخ فقال :

ـ بماذا تكرزين ؟ قولي ؟

فنهضت الام : يجب ان اعد شيئا للاكل .

وركز فيسوشيكوف بصره على اندريه وصاح فجأة :

ـ اعتقد ان هناك ناسا يجب ان يقتلوا .

ـ اوه ، اوه ... ولماذا ؟

ـ كيلا يبقى منهم احد .

وكان يقف في وسط الغرفة ضخما جافا يترنح ويتفحص نيقولا من عل ، ويداه في جيبه ، وكان فيسو شيكوف يتكوم في مقعده ، تلفه سحابة من دخان ، وتبدو في وجهه الاغبر بقع حمراء .

ـ سانتزع فك ايساي غوربوف ... سترى .

ـ ولماذا ؟

ورد فيسو شيكوف وهو يرمق اندريه بعين متجهمة شريرة :

ـ ليستمر في تجسسه ، ليستمر . انه المسؤول عما آل اليه والدي : فهو يعتمد عليه في خطواته الاولى كجاسوس .

وصاح به اندريه :

ـ اتحققت من هذا ؟ ومن الذي جعلك مسؤولا ؟ يا لهم من اوغاد .

فاجاب بحزم : ان الاوغاد كالاذكياء تماما . انهم متشابهون ، فأنت مثلا فتى ذكي وكذلك بول ، ولكن هل انا في نظرك كثيومازين او ساموالوف، او كواحد منكم بالنسبة للآخر ؟ لا تكذب فلن اصدقك . انكم جميعا تدفعونني وتنحونني جانبا .

وقال اندريه برقة وعطف وهو يجلس الى جانبه :

ــ انك مريض يا عزيزي المسكين .
ــ مريض ؟ وانتم ايضا مرضى . ولكن اوجاعكم تبدو لكم اكثر نبلا من اوجاعي . اننا بالنسبة لبعضنا البعض . قذرون . هذا ما اقوله فبماذا تستطيع ان تجيبني ؟ قل !

وسدد اندريه نظرته الحادة . وراح ينتظر الجواب ضاحك السن . وكان وجهه المجدور لا يحمل اي تعبير ؛ وشفتاه السميكتان ترتعشان كما لو احرقهما سائل مغلي .

وقال اندريه والابتسامة الحزينة الحارة في عينيه . تداعب نظرة فيسو شيكوف الحقود .
ــ لن ارد عليك فانا اعرف جيدا ان الجدل مع امرىء دامي القلب ليس الا اثارة له . اعرف ذلك يا اخي العجوز .
فغمغم نيقولا وهو مطرق :
ــ يجب الا تجادلني ؛ فانا لا اعرف الجدل .
وتابع اندريه :
ــ ارى ان كلا منا قد مشى على نثار الثلج عاري القدمين . وان كل انسان قد نفث في ساعاته القاتمة . النار نفسها التي تنفثها انت الآن .
ورد فيسو شيكوف بتؤدة :
ــ انك لا تستطيع ان تقول لي شيئا . ان نفسي تعوي في داخلي كذئب . .
ــ وانا لا اريد ان اقول شيئا ، وكل ما اعرفه هو ان هذا سينجلي ؛ ربما لم يحصل ذلك بكامله ، ولكنه سينجلي على كل حال .
ــ واخذ يضحك ، ثم ربت على كتف نيقولا :

هذا هو . ايها الاخ العجوز مرض من امراض الطفولة . . انه شيء كالحصباء . وسنعاني منه جميعا ؛ الاقوياء اقل قليلا ؛ والضعفاء اكثر قليلا . انه يصيب الناس امثالنا عندما يكونون قد وجدوا ما يريدون ؛ ولكنهم قصروا عن فهم الحياة ، ولم يهتدوا بعد الى المكان الذي يجب ان يتمركزوا فيه . انهم يتخيلون انهم الوحيدون من نوعهم كثمرة طيبة . كخيارة صغيرة يود الناس جميعا ان ينهشوها . وبعد زمن ما تكتشف ان افضل ما فيك هو ايضا عند آخرين ليسوا اكثر سوءا . وهذا ما يفريك . وتشعر بقليل من الخجل لانك تسلقت قبة الجرس لتهز جلجلك الصغير لدرجة لا يسمع معها صوته عندما يقرع الجرس الضخم ، جرس الاعياد . وستكتشف بعد ذلك ان جلجلك ليس سوى جزء من الجوقة الشاملة ، في حين انه لو قرع وحده لغرق في ضجيج الاجراس الهرمة ، كذبابة في اناء من

زبدة . فهل فهمت ما أود ان اقوله ؟
وهز نيقولا راسه : ربما فهمته جيدا .
وراح يمشي بخطى صاخبة :
ـ وانا ايضا لم اك اومن به ابدا ، فاغرب من وجهي ايتها الحطبة .
وقال نيقولا ببسمة مغتصبة ، وهو يرنو الى اندريه :
ـ اانا حطبة ؟ لماذا ؟
ـ هكذا . انك تشبهها .
وفجاة خرج فيسوشيكوف وهو يفغر فمه الواسع ويضحك ضحكة داوية .
وسأله اندريه مشدوها وهو ينتصب في وجهه :
ـ ماذا دهاك ؟
ـ كنت أقول في نفسي انه سيكون غبيا لعينا ذاك الذي يشتمك .
ـ كيف ولماذا يشتمني ؟
وهز اندريه كتفيه بتهكم . وقال فيسوشيكوف بسذاجة وهو يكشر عن اسنانه :
ـ لا ادري ... كنت اود ان اقول ان المرء الذي سيوجه اليك الشتيمة يجب ان يكون فاسد الضمير .
وقال اندريه ضاحكا :
ـ آه .. هذا ما كنت تود ان تنتهي اليه .؟
وصاحت الام من داخل المطبخ :
ـ يا اندريه .

فخرج ، وبقي فيسوشيكوف وحده . واجال فيسوشيكوف بصره فيما حوله ، ومد ساقه التي تنتهي بحذاء ثقيل ، فتفحصها، وتلمس عضلات ساقه الثخينة ، ثم رفع يده ، وادناها من وجهه ، وتأمل راحتها بدقة ، ثم تأمل ظاهرها ؛ لقد كانت مكتنزة قصيرة الانامل يغطيها زغب اصفر . وحركها في الهواء ثم نهض .

وعندما اقبل اندريه يحمل الشاي كان هو امام المرآة :
ـ لم ار شدقي منذ امد طويل .
وابتسم ابتسامة ساخرة ثم اضاف :
ـ ان لي شدقا قذرا ...
وقال اندريه وهو يتأمله بفضول :
ـ واي ضير في هذا ؟
واجاب نيقولا ببطء :

ـ تقول ساندرين ان الوجه مرآة النفس .
ـ ليس هذا صحيحا . فهي تحمل انفا اعقف ، ووجنتين كالمقص ، ومع ذلك فهي تحمل روحا كالنجم .

وحدق به فيسوشيكوف وابتسم . ثم جلسا لتناول الشاي . وتناول فيسوشيكوف حبة كبيرة من البطاطا ، وذر بحركة عنيفة قليلا من الملح على قطعة من الخبز ، وراح يمضغ بهدوء وبطء كالثور .
وسأل ، والطعام يملأ فمه :
ـ وكيف تسير الاعمال هنا ؟
وفيما كان اندريه يروي له بغبطة : كيف تنمو الدعاوة في المعمل ، تجهم وجهه وقال بصوت اصم :
ـ ذلك امر يطول ، يطول كثيرا . يجب الانطلاق بسرعة اكثر .
ورمقته الام واحست في نظرته من جديد ظل الضغينة .
وقال اندريه :
ـ الحياة ليست حصانا ، ولا يمكن حملها على الجري بالسياط ...
غير ان فيسوشيكوف هز رأسه بعناد :
ـ ذلك امر يطول ، ولا جلد عندي على الانتظار في العمل .
ومد ذراعيه في حركة اعياء ، وتطلع الى اندريه ثم صمت ينتظر جوابا .
ـ يجب ان نتعلم جميعا ، وان نعلم الآخرين . هذا هو واجبنا .
ـ والى متى تستمر هذه الفوضى ؟
وابتسم اندريه وقال :

سنتلقى الضربات اولا ، واني لاعرف ان هذا سيحدث اكثر من مرة ، ولكننا لن نكون كذلك عندما يتوجب علينا ان نخوض المعركة . يجب ان نسلح الراس اولا ... ثم نسلح الايدي بعد ذلك . هذه هي وجهة نظري .

وشرع نيقولا يأكل ، وكانت الام تراقب وجهه العريض خلسة محاولة ان تجد فيه شيئا يوطد السلام بينها وبينه ؛ بينها وبين هذا الكيان الضخم الذي نحته ازميل ؛ وكانت كلما التقت نظرتها بتلك النظرة النافذة التي تشع من عينيه الصغيرتين ، ترتعش اجفانها رهبة ، وكان اندريه متحمسا ، لذلك اخذ يتكلم ويضحك ، ثم توقف فجاة وراح يصفر .

وكانت الام تعتقد انها تعرف سبب قلقه ، الا ان نيقولا لبث في مكانه صامتا ، فاذا ما وجه اندريه اليه سؤالا ما ، اجاب عليه باقتضاب ، وبنفور ملحوظ .

وشعرت الام واندريه بضيق ما ، وبأنهما ليسا على ما يرام في هذه

الغرفة الصغيرة . فراحا يرمقان ضيفهما ، متناوبين ، بنظرات مختلسة .

... واخيرا نهض .

ـ سأنصرف لانام فلقد طال سجني ثم اطلق سراحي دفعة واحدة ، فمشيت طويلا ، لذلك فأنا متعب .

وعندما بلغ المطبخ خفتت حركته ، ثم جمد فجأة كميت ، فمالت الام التي كانت تتبعه بسمعها ، مالت الى اندريه توشوشه :

ـ انه يحمل افكارا رهيبة .

فأجاب اندريه ، هازا راسه :

ـ انه فتى صعب المراس ، ولكنه لن يظل على هذه الحال ، فلقد كنت مثله . ان الهباب يتكدس في القلب اذا كانت جذوته لا تشتعل بصفاء . ايتها الام الصغيرة ، اذهبي الآن ونامي ، اما انا فسأبقى قليلا لاقرأ .

وتوجهت الى الزاوية حيث كان سريرها الملفع بستارة مطرزة وظل اندريه وقتا طويلا ، يصغي ، وهو امام الطاولة ، الى همسها الدافيء ، همس صلواتها وزفراتها ؛ وكان ، وهو يقلب صفحات كتابه بسرعة ، يمسح جبهته بحركة محمومة ، ويفتل شاربيه بأصابعه الدقيقة ويحرك رجليه . وكان رقاص الساعة ينبض ، والريح تعول في النوافذ .

وكان صوت الام الخفيض يتناهى اليه :

ـ يا آلهي . ما اكثر البشر في هذه الدنيا .. ومع ذلك فكلهم يشكو على طريقته . فأين هم اذا اولئك الذين يعرفون الغبطة ؟

وردد اندريه كالصدى :

ـ انهم موجودون . وعما قريب سيتكاثرون ... اجل سيتكاثرون .

- ٢١ -

... وكانت الحياة تمر سراعا بوجوه ايامها المتقلبة ، المشرقة او المتجهمة ، وكان كل يوم يحمل معه جديدا ، جديدا لا يقلق الام ابدا ؛ وكان يتوافد الى منزلها عند المساء ، مجهولون يتزايد عددهم يوما بعد يوم ؛ فيتحدثون مع اندريه بصوت خفيض والاهتمام باد في ملامحهم ، ثم يخرجون في ساعة متأخرة من الليل ، وقد رفعوا قبات معاطفهم ، وتهدلت شعورهم فوق عيونهم ، يخرجون في الظلمات دونما ضجيج كيلا يثيروا انتباه احد ، ان من يراهم يحس ان كلا منهم يكبت حماسه ؛ وانهم يشتهون جميعا ان يغنوا ويضحكوا ، ولكنهم ، وهم المنهمكون ابدا ، لا يجدون لديهم وقتا لذلك ؛ فبعضهم ساخر وقور ، وبعضهم مرح يملأه زخم الشباب الفائض ؛ وآخرون غيرهم هادئون كثيرو التأمل ، ولكنهم كانوا جميعا ، في نظر الام ، متساوين

في عنادهم وثقتهم بأنفسهم ، ورغم ان لكل منهم ملامحه الخاصة ، فانهم كانوا ، في نظرها ، ينصهرون في وجه واحد هزيل يشع منه تصميم هادىء ، وجه صاف متهجم العينين ، في نظراته عمق ودعاب وقسوة .

وكانت الام تعدهم ، واحدا واحدا ، وتتصورهم حشدا يحيط ببول ويتوسطهم فلا تراه اعين اعدائهم .

وفي احدى الامسيات ، جاءت من المدينة فتاة شديدة الحذر ، مجدولة الشعر ، تحمل الى اندريه رزمة . وفيما كانت تنصرف قالت لبيلاجي وهي ترمقها بنظرة مشرقة مرحة :

ــ الى اللقاء يا رفيقة .

واجابت الام وهي تكبت بسمتها :

ــ الى اللقاء :

وبعد ان شيعتها اقتربت من النافذة ضاحكة ، لترقب « رفيقتها » وهي تنطلق في الشارع رشيقة الخطو ، ريانة كزهرة الربيع ، خفيفة كالفراشة ، وعندما اختفت الزائرة عن عينيها همست :

ــ رفيقة ؟ آه يا عزيزتي . ليمنحك الله رفيقا طيبا ، رفيقا لحياتك كلها .

وكانت تلاحظ غالبا ان في اولئك الذين يقبلون من المدينة جميعا ، شيئا صبيانيا ، وكانت تبتسم لذلك بتسامح ، ولكن الشيء الذي يؤثر في نفسها ، ويبعث فيها دهشة الفرح ، هو ايمانهم ، هذا الايمان الذي كانت تحس عمقه دائما ، وبكثير من الوضوح . وكانت أحلامهم بانتصار العدالة تحرك مشاعرها ، وتدفيء قلبها ، وكانت وهي تصغي اليهم، تتأوه بلا وعي ، وتحس انها فريسة حزن غامض ، ولكن ما كانت تحسه اشد الاحساس هو بساطتهم وطيبتهم ونسيانهم لذواتهم ؛ وهو نسيان مفرط السخاء والطيبة .

وكانت تدرك كثيرا من الاشياء من خلال جدلهم حول الحياة ، وتشعر انهم اكتشفوا الينبوع الحقيقي لشقاء الناس ، وقد تعودت ان توافقهم على آرائهم ، ولكنها كانت في اعماقها ، لا تؤمن بأنهم يستطيعون ان يكيفوا الحياة وفقا لما يعتقدون ، وبأنهم يملكون من الطاقة ما يكفي لان يشبع لهب نفوسهم في الطبقة الكادحة كلها .

ان كل انسان يريد ان يشبع اليوم ، وليس هناك من يرضى بأن يرجيء طعامه حتى ولو الى الغد ، اذا كان باستطاعته ان يتناوله الآن . وقليلون هم اولئك الذين يستطيعون سلوك هذا الطريق الشاق الطويل . ان عيونهم لا ترى انه يفضي الى تلك المملكة الرائعة ، مملكة الاخوة الشاملة ، ومن اجل ذلك ، كان اولئك القوم الطيبون ، يبدون لها اطفالا رغم لحاهم ووجوههم التعبى .

وكانت ترثي لهم ، وتهز راسها هامسة : يا للصغار المساكين .
ولكنهم كانوا جميعا يحيون حياة طيبة ، جادة ، ذكية . لقد كانوا يتحدثون عن الخير ويرغبون في ان يلقنوا الآخرين ما كانوا يعرفون ، ثم يحققون هذه الرغبة دونما هوادة . وكانت هي تدرك ان وجودا كهذا يمكن أن يحب رغم مخاطره ، ثم تسترجع ماضيها متأوهة ، فيتراءى لها كطريق لاهب ضيق كئيب ، وكانت تستشعر ، دون ان يساورها الشك ، انها شيء مفيد ، في هذا الوجود الجديد . لقد كانت تحس من قبل انها ليست شيئا مفيدا لاي انسان ، أما الآن فهي ترى بوضوح ان الكثيرين يحتاجون اليها ؛ ولقد كان هذا الشعور بالنسبة لها شعورا جديدا حلوا ، يحملها على ان ترفع راسها باعتزاز .

وكانت تحمل دائما وبانتظام ، النشرات الى المعمل ، يحدوها شعور باداء الواجب ، حتى اصبح دخولها الى المعمل امرا معتادا بالنسبة لرجال البوليس الذين كانوا لا يعيرونها اي اهتمام ، ولقد فتشوها في مناسبات عدة الا أن هذا التفتيش كان يجري في اليوم التالي لظهور النشرات ؛ وكانت تعرف كيف تثير الشبهة في نفوس الحراس والجواسيس عندما تكون لا تحمل شيئا ، فيستوقفونها ، فتتظاهر بأن كرامتها قد مست ، وتدخل معهم في جدل عنيف حتى اذا اوقعتهم في الارتباك ، انطلقت فخورة بحذقها . . . .
وصارت تجد في هذه اللعبة ، لذة كبرى .

وكان المعمل قد رفض اعادة فيسوشيكوف الى المعمل فدخل كمستخدم عند احد التجار ، وكانت مهمته ان ينقل الى الضاحية كميات من الجسور والالواح وحطب التدفئة ، وكانت تراه ، وهو يمر ، كل يوم تقريبا : يسير جواداه الاسودان وقد ارتعشت قوائمهما وتقوست تحت وطأة حملهما الثقيل ، يسيران عجوزين نافري العظام يترنح راساهما تعبا وحزنا ، ويبدو الانهاك في عيونهما الكمداء ، ويمتد وراءهما جسر طويل رطب ، يتذبذب على ايقاع الجلبة ، او صوت كدسة من الاخشاب تتساحب اطرافها على الارض بضوضاء ، في حين يسير نيقولا الى جانبهما ، وقد اطلق لهما الأعنة ، رث الثياب ، صلب الملامح ، اخرق الخطوة ، كجذع نابت من الارض ، يلطخه الوحل ، وينتعل حذاء ثقيلا ، ويعلق قبعته في عنقه .

وكان راسه هو ايضا يترنح ، وعينه منغرزة في التراب ، وكان جواداه يجتاحان ، على غير هدى ، العربات والمارة الذين كانوا يقبلون من الاتجاه المعاكس ، فتتطاير حوله الشتائم القاسية كالزنابير وتمزق الفضاء صيحات الغضب ، ويظل هو ، يدب ، دون أن يرفع رأسه أو يجيب ، وينبعث من بين شفتيه صفير حاد يصم الاسماع ، ويغمغم بصوت ثقيل مخاطبا جواديه :

ـ خذا هذا ...

وفي كل مرة كان يجتمع فيها رفاق اندريه في بيتها ، ليقراوا بعض المنشورات . او العدد الاخير من مجلة تطبع في الخارج ، كان نيقولا يأتي فيجلس في احدى الزوايا . ويصغي طوال ساعة أو ساعتين دون أن ينبس بحرف . وكان الشبان ، اذا ما انتهت قراءاتهم يتناقشون طويلا ، ولكن فيسوشيكوف لم يكن ليشترك في النقاش ابدا ، الا انه كان يمكث طويلا ، حتى اذا لم يبق غيره مع اندريه سأله وهو باهت الملامح :

ـ ومنذا الذي تعتقده اشد اجراما من الآخرين ؟

ويجيب اندريه مازحا . وفي عينيه تعبير قلق :

ـ انه اول من قال « هذا لي » ، أرايت ؟ ان هذا الرجل قد انطوى منذ آلاف من السنين ، وليس هناك اي جدوى في ان نثور عليه .

ـ والاغنياء والذين يساندونهم ؟

وكان اندريه ينحني فيأخذ راسه بين يديه ويمسد شاربه ويتكلم باسهاب وببساطة عن حياة الناس، وكان كلامه كله يتلخص بأن العالم بأجمعه آثم ، الا ان ذلك لم يكن ليشبع نهم نيقولا .

لقد كان يهز رأسه بالنفي ، وهو يطبق شفتيه الغليظتين بقوة ، ويعلن بلهجة مرتابة ، ان الامر ليس كما شرحه اندريه ، ثم يمضي متجهم الوجه محنقا .

ولقد صرخ مرة :

ـ لا ... يجب ان يكون هناك مسؤولون . صدقني : انهم موجودون ، ويجب ان يمزقهم المحراث انى كانوا ! وبلا رحمة ، كما يمزق حقلا من الشيل.

وقالت الام : هذا ما قاله يوما ايساي الثقاب ، وهو يتحدث عنك .

فتساءل فيسوشيكوف بعد صمت :

ـ ايساي ؟

ـ نعم . ايساي . الرجل الخبيث .. انه يتجسس علينا جميعا ، ويسال ، ولقد اخذ يتردد على شارعنا ، ويراقب نوافذ بيتنا .

فردد نيقولا : يراقب ؟

وكانت الام قد اضطجعت فلم تعد ترى وجهه ، ولكنها ادركت انها اطنبت في الحديث عن ايساي لان اندريه اجاب بسرعة . وبلهجة مهدئة :

ـ دعيه يسير ويتطلع . ان لديه فيضا من الوقت يتنزه خلاله

فقال نيقولا بصوت اصم : رويدا .. انه هو .. هو المسؤول .

فرد اندريه بحدة : مسؤول عن ماذا ؟ مسؤول عن كونه حيوانا ؟

ولم يجب فيسوشيكوف ، ثم خرج .

وظل البيوروسي يذرع ارض الغرفة ببطء ، منهك الخطى ، يجر ساقيه الطويلين الجافين كسيقان العنكبوت ، وكان قد خلع حذاءه . كما تعود ان يعمل دائما ، كيلا يحدث اية ضجة فيزعج بلاجي ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد .

وقالت بقلق بعد ان انصرف نيقولا : اني اخاف منه .

فرد عليها ، وهو يمط كلماته :

ــ أجل . . انه فتى نزق فلا تحدثيه عن ايساي ، فايساي ، ايتها الام الصغيرة ، جاسوس حقا .

ــ لا غرابة في ذلك فزميله دركي .

واجاب اندريه مذعورا :

ــ قد يعتدي نيقولا عليه أرأيت اية مشاعر يولدها السادة ضباط مجتمعنا ـ في نفوس الجنود البسطاء ؟ ماذا سيحدث اذا ما استشعر امثال بيقولا مهانتهم وافلت زمام الصبر من ايديهم ؟ ان الدم سيتدفق حتى السحاب ، وسيغطي الارض زبد احمر كرغوة الصابون .

فقالت الام بهدوء : ان هذا لمخيف يا اندريه .

واجاب بعد صمت قصير :

ــ اذا لم يخزهم الذباب فلن يرفسوا ، ومع ذلك ، فكل نقطة تسفك من دمهم ستغسلها سلفا سيول الدموع ، دموع الشعب .

ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ــ سيكون ذلك عدلا ، ولكنه لا يحمل العزاء .

- ٢٢ -

كان ذلك يوم احد ، وكانت الام عائدة من دكان البقال ، وما كادت تفتح الباب وتقف على العتبة حتى غمرها فجأة طوفان من الفرح ، كمطر حار في صيف : لقد سمعت في الغرفة صوت بول الجهوري .

وصاح البيوروسي : هي ذي . . . لقد جاءت

ولاحظت السرعة التي استدار بها بول نحوها ، ورات ان وجهه كان يشرق بانفعال واعد بألف فرحة وغمغمت وقد افقدتها المباغتة وعيها :

ــ ها انت ذا قد عدت الى المنزل .

ثم جلست .

وانحنى فوقها ، وكانت شاحبة الوجه تلتمع في مآقيها دموع صغيرة متلألئة ، وكانت شفتاها ترتعشان . واستولى عليه الصمت هنيهة ، وكانت تحدق فيه صامتة ايضا .

ومر البيوروسي امامها وهو يصفر ، مطأطىء الرأس ، ثم خرج .
وقال بول بصوت عميق خفيض :
ـ شكرا لك يا اماه ، شكرا لك يا امي العزيزة .
وشدّ يدها بأصابعه المرتعشة .
ودغدغت رأسه وقد غمرتها بالنشوة نبرات صوته وملامحوجهه المعبر، وقالت بهمس وهي تهدىء وجيب قلبها :
ـ ليكن يسوع معك . علام تشكرني ؟
ـ شكرا لك على العون الذي قدمته لنا في قضيتنا الكبرى انها لسعادة نادرة ان يستطيع امرؤ القول ، وبالفعل ايضا ، ان امه غالية عليه .
وكانت ، دون ان تنبس بكلمة ، تتلقف كلماته بنهم ، متفتحة القلب ، وتتأمله مشدوهة . انه هناك ، امامها ، انه واضح كل الوضوح ، قريب كل القرب .

ـ لقد كنت يا اماه ارى كثيرا من الامور تبعث في قلبك الغم ، وكان ذلك شاقا عليك . وكنت اعتقد انك لن تهادنينا ابدا ، وانك لن تؤمني بأفكارنا ، ولكنك ستتحملينها بصمت ، كما كانت دائما .. وكان هذا شديد الايلام ...
ـ لقد علمني اندريه كثيرا من الاشياء .
وقال ضاحكا : اجل ... لقد قص علي ذلك .
ـ وايغور ايضا . فنحن من قرية واحدة ، اما اندريه فقد كان يود ان يعلمني حتى القراءة .
ـ وانت كنت خجولة بعض الشيء، فرحت تدرسين على نفسك خفية .
وقالت باضطراب : آه ... لقد كان يتجسس علي .
ثم اقترحت على بول ، والانفعال باد في ملامحها لفرط الغبطة :
ـ يجب ان تناديه فلقد خرج عمدا كيلا يزعجنا . انه يعيش دون ام .
وصاح بول وهو يفتح باب المدخل :
ـ يا اندريه ... اين انت ؟
ـ هنا ، اقطع الحطب .
ـ تعال .
ولم يأت على الفور ، وعندما دخل المطبخ قال بلهجة رب البيت :

ـ يجب ان اطلب الى نيقولا ليحضر لنا حطبا ، فلم يعد عندنا منه الكثير . ارأيت ايتها الام الصغيرة كيف هو بول ؟ ان السلطات تسمن العصاة بدلا من ان تعاقبهم .
... واخذت الام تضحك ، وكانت سكرى بالغبطة، يملأ قلبها اطمئنان

حلو ، ولكن شعوراً من الحذر الشحيح كان يحملها على التمني بأن ترى ابنها هادئاً كما كان من قبل . لقد كانت اوبته بالنسبة لها سعادة غامرة ، وكانت تود ان تنطوي هذه الفرحة ــ وهي اولى الفرحات في حياتها واكبرها ــ في قلبها ابداً ، وان تظل فيه قوية حية ! وخشية ان تتضاءل هذه السعادة ، كانت تتعجل اخفاءها ما امكنها ذلك كصياد اقتنص صدفة طائراً جميلا .

واقترحت باهتمام :

ــ هيا الى المائدة يا بول . انك على التأكيد لم تتناول اي طعام حتى الآن ؟

ــ كلا ، فلقد ابلغني الناظر البارحة انهم قرروا اخلاء سبيلي ، ولم اشعر لليوم بجوع أو عطش .

وتابع :

ــ لقد كان اول من التقيت به هنا هو سيزوف العجوز . انه ما كاد يراني حتى اجتاز الشارع ليسلم علي . فقلت له : يجب ان تحذرني منذ الآن ، فأنا رجل خطر ، يراقبني البوليس ، فأجابني : لا « يهمني ذلك » . . اتدرين ماذا سألني بخصوص حفيده ؟ قل لي هل سلوك ثيو في السجن حسن ؟ ــ ماذا تقصد بحسن السلوك ؟ ــ اقصد اذا كان لسانه ما يزال يسرف في الاستطالة حين يتحدث عن الرفاق .

وعندما قلت له : ان فيدور فتى شريف وذكي ، داعب لحيته وقال لي بزهو :

ــ ليس فينا ، نحن آل سيزوف ، رجال اشرار .

وقال اندريه وهو يهز راسه :

ليس هذا العجوز بغبي . اننا نثرثر معاً احياناً فيبدو لي انه رجل طيب .

ــ هل سيطلقون سراح ثيو قريباً ؟

ــ سيطلقون سراحهم جميعاً على ما اعتقد ، فليس لديهم ما يدينهم اللهم الا وشايات ايساي ، وأي شيء استطاع هذا ان ينقله لهم ؟

وكانت الام تروح وتجيء وتتأمل ابنها ، وكان اندريه ، وهو واقف بالقرب من النافذة ويداه وراء ظهره ، يصغي الى حديث الفتى الذي كان يذرع ارض الغرفة طولا وعرضاً . وكانت لحيته قد نبتت ، وكان شعرها يتناثر في وجنتيه ، حلقات سوداء ناعمة ، تخفف من سمرة وجهه المسفوع .

والحت الام : هيا الى الطعام .

وقفت هي تشرف بنفسها على المائدة .

واخذ اندريه يتحدث اثناء الطعام عن ريبين ، وعندما انتهى حديثه صاح بول بأسف :

ـ لو كنت موجودا لما تركته يمضي . ماذا يحمل معه ؟ انه يحمل شعورا كبيرا بالتمرد وافكارا مشوشة ...

واجاب البيوروسي مبتسما :

ـ أجل ... ولكن عندما يكون الرجل في الاربعين من عمره ، وعندما يكون قد قضى وقتا طويلا يصارع الدببة فانه لمن الصعب تطويره ..

واستغرقا في جدل كان الكثير من تعابيره يستعصي كالمعتاد على فهم الام ، وفرغا من الطعام وكانا ما يزالان يتراشقان بضراوة رشاشا من الالفاظ الصعبة العصية ، وكانا احيانا يعبّران عن آرائهما بلغة بسيطة سهلة .

واعلن بول بعزم : يجب علينا ان نتابع طريقنا دون ان ننحرف عنه خطوة واحدة . وان نرتطم ، في هذا الطريق، بملايين البشر الذين يستقبلوننا كأعداء ..

... وكانت الام تصغي وتفهم مما يدور ان بول لا يحب الفلاحين ، في حين كان اندريه يدافع عنهم ، ويحاول ان يؤكد انه من الضروري ان يلقنوا هم ايضا الافكار الخيرة ، وكانت تفهم ما يقوله اندريه بوضوح اكثر ، ويبدو لها انه محق فيما يقول ،.ولكنها كانت في كل مرة يرد بها على بول تفتح اذنيها جيدا وتكبت انفاسها ، وتنتظر بفارغ الصبر جواب ابنها ، لترى ما اذا كان رد البيوروسي قد اثاره ، الا انها كانت تلاحظ انهما وان تناقشا بحرارة وحماسة فان احدا منهما لم يكن يستثير حنق الآخر .

وكانت الام تسأل ابنها بين الفينة والفينة :

ـ هل الامر هكذا يا بول ؟

فيجيبها باسما : اجل ... انه لكذلك .

ويقول اندريه بمحبة وهزء :

ـ لقد اكلت حتى كدت تنشق ، ولكنك لم تمضغ طعامك جيدا ، وما زالت قطعة منه عالقة في زلعومك ، فغرغر لهاتك .

فينهض بول : لا تتصنع البله يا اندريه .

ـ ولكنني جاد كأني في جنازة .

وتضحك الام بهدوء ، وتهز رأسها .

- ٢٣ -

كان الربيع يقترب ، والثلج يذوب وينحسر عما كدسه تحت جبته البيضاء من وحل وطمي ، وكان الوحل يزداد كل يوم بروزا حتى بدت الضاحية كلها كأنها انما ترتدي كل الاسمال القذرة ، وكان الماء يتساقط من السقوف اثناء النهار ، نقطة نقطة ، واللهب يتصاعد من جدران المنازل

الدكناء الراشحة التعبى ؛ في حين تبرز ؛ عند الغـروب ـ تماثيل الجليد ؛ منتثرة في كل مكان ، وهي بيضاء كدراء اللون ؛ وصارت الشمس تظهر اكثر فاكثر ، والسواقي تدندن حيرى في طريقها الى المستنقع

وكان الناس يستعدون لاستقبال اول ايار .

وكانت النشرات تلقى في المعمل ، وفي الضاحية ؛ لتشرح معنى هـذا العيد ، وحتى الفتيان الذين لم تمسهم الدعاية بعد ، كانـوا يقولون وهـم يقرأون هذه النشرات :

ــ يجب التغلب على المصاعب .

وكان فيسوشيكوف يصرخ دائما بشراسة :

ــ لقد آن الاوان ، وكفى تضليلا وتمويها .

وكان ثيو مازين فرحا ؛ كثير النحول ، تذكر كلماته والعصبية البادية في حركاته بقبرة سجينة في قفص . وكان يرافقه دائما جاك سومون وهو فتى صموت يعمل الآن في المدينة ويبدو عليه الجد اكثر مما يحتمل سنه .

وكان ساموالوف الذي ازداد لونه شقرة اثناء وجوده في السجـن ، وباسيل غوسيف ، وبوكين ، وداغونوف ؛ كان هؤلاء جميعا وآخرون غيرهم ينادون بضرورة التسلح ؛ اما بول والبيوروسي وسوموف ، وآخرون معهم؛ فقد كانوا يخالفونهم في الراي .

ووصل ايغور منهكا لاهثا كالعادة ، ينضح عرقا ، وقال مازحا :

ــ ايها الرفاق . ان تغيير النظام الراهن عمل عظيم ، ولكن ، يجب ان اشتري حذاء جديدا لكي يتحقق هذا العمل سريعا .

واراهم حذاءه المزق المبلل ، وتابع :

ــ ولقد اصيبت جزمتي ايضا بداء عـضال لا يرجى البرء منـه ، فتعرضت قدماي بسبب ذلك ، للبلل كل يوم . انا لا اود أن أرحل الى القبر قبل ان يتوب هذا العالم العجوز توبة علنية واضحة ؛ ولهذا ارفض اقتراح الرفيق ساموالوف الرامي الى التسلح ، واقترح تسليحي انا ، بزوج مـن الاحذية المتينة ؛ لانني مقتنع كل الاقتناع بأن هذا سيكون اكثر جدوى لنصر الاشتراكية من اعظم تحطيم .. للاشداق ..

وراح بهذه اللهجة الودود نفسها ، يروي لهم كيف حاول الشعب ، في بلدان مختلفة ، ان يحسن من مستوى حياته . وكانت الام تحب ان تسمع احاديثه ، اذ تترك في نفسها انطباعا غريبا ، فأعداء الشعب الاكثر احتيالا ، والذين خدعوه اكثر الاحيان وبقسوة اشد ، كانوا رجالا صغارا ، ضخـام الكروش ، حمر الجلود ، طماعين ، مخاتلين ، قساة القلوب لا ضمائر لهم ؛ وعندما حولت سلطة القياصرة حياتهم الى جحيم انبروا يحرضون الشعب

الصغير ضد هذه السلطة، وعندما ثار الشعب وانتزع السلطة من الامبراطور، انتزعها الرجال الصغار بالحيلة ، وراحوا ينكلون بالشغيلة ، فاذا أراد هؤلاء ان يحاجوهم انقضوا عليهم ففتكوا بالمئات منهم والالوف .

وتجرأت ، في احد الايام ، فقصت عليه ما كانت تكونه في نفسها من اشياء ، خلال اصغائها اليه ، وسألته وهي تبتسم ابتسامة مرتبكة :

ــ اذن فالامر كذلك يا ايغور ايفانوفيتش .

فانفجر ضاحكا يقلب عينيه الصغيرتين ، وبعد قليل استعاد انفاسه، ودعك صدره :

ــ الحقيقة انه كذلك يا اماه . لقد امسكت ثور القصة بقرنيه ، ونسيت بعض التزويقات ، وبعض الحواشي ، ولكن ذلك لا يغير في الامر شيئا . ان هؤلاء الصغار البدنيين هم حقا اعظم الخطاة ، واسم الحشرات التي تلدغ الشعب .

ان الفرنسيين يسمونهم بحق برجوازيين .. فاحفظي هذه الكلمة يا اماه : برجوازيين ... انهم يلوكوننا ويمتصون دمنا .

وسألت الام : الاغنياء ... اليس كذلك ؟

ــ تماما . ارأيت لو دسسنا قليلاً من النحاس كل يوم في طعام طفل ؟ ان ذلك سيعيق نمو عظامه ، فيظل قزما . وهكذا اذا سممنا رجلا بالذهب ، فان نفسه تغدو حقيرة جدا ، وغبراء كدرة ، تماما ككرة من المطاط تساوي خمسة سحاتيت .

وقال بول مرة وهو يتحدث عن ايغور :

ــ اتدري يا اندريه ؟ ان اكثر الناس مزاحا هم اشدهم عذابا ؟

فصمت البيوروسي فترة ، ثم اجاب :

لو كان هذا صحيحا ، لماتت روسيا كلها من الضحك .

وظهرت ناتاشا من جديد . لقد دخلت هي ايضا السجن ، ولكن في مدينة اخرى ؛ ولم يبدل السجن منها شيئا .

ولاحظت الام ان البيوروسي يكون في حضرتها اكثر مرحا ، فلقد كان يمزح ، ويثقل على الناس جميعا بخبث لا لؤم فيه ، وذلك لكي يحملها على الضحك . وعندما تنصرف ، يشرع هو يدندن بكآبة ، أغانيه التي لا تنتهي ، ويلبث وقتا طويلا وهو يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، ويجرجر قدميه .

وكانت ساندرين تأتي شكسة الطباع دائما ، مسرعة ابدا ، وتغدو باستمرار اسرع غضبا واعنف طبعا .

وفي احدى المرات تبعها بول حتى المدخل ليرافقها ، ونسي ان يقفل الباب وراءه ، فسمعت الام حديثهما الخاطف .

لقد سألته الفتاة بهمس :
ــ هل ستحمل العلم ؟
ــ نعم ..
ــ هل تقرر ذلك ؟
ــ نعم وهذا حق لي .
ــ السجن من جديد ؟
ولزم بول الصمت .
ــ الا تستطيع ... ثم توقفت
ــ ماذا ؟
ــ ان تتركه لآخر ...
فقال بصوت مرتفع :
ــ كلا .

ــ فكر في الامر مليا ، ان تأثيرك كبير ، والجميع يحبونك . انك ونالودا قائدا الحركة هنا انكما تستطيعان عمل الكثير وانتما طليقان فكرا مليا ؛ فانكما ستنفيان ، من اجل ذلك : الى مكان قصي ، ولامد طويل .

واعتقدت الام انها تتميز في صوت الفتاة احاسيس عرفتها هي نفسها جيدا ! احاسيس الغم والخوف ، ووقعت كلمات ساندرين على قلبها كنقاط كبيرة من الماء المثلج

وقال بول : كلا ، لقد قررت ولا شيء يثنيني عن قراري .
ــ حتى ولو توسلت اليك ؟
فاكمل بول على عجل وبصوت فيه قسوة :
ــ يجب الا تتكلمي هكذا ، بماذا تفكرين ؟ يجب الا تتكلمي هكذا .
فقالت بصوت خافت : ــ اني كائن بشري .
فرد بول بهدوء ولكن بلهجة خاصة كأنه لا يستطيع امساك انفاسه :
ــ نعم كائن بشري ، كائن عزيز علي ، ومن اجل ذلك ينبغي ألا تتكلمي هكذا .
وقالت الفتاة : وداعا .
وادركت الام من وقع خطاها انها انطلقت مسرعــة ، حتى لتكاد تعدو عدوا .
وخرج بول في اثرها .
وشد على صدرها رعب خانق ثقيل ؛ فلقد فاتها ان تلتقط تفاصيل حديثهما ، ولكنها كانت تحس ان هنالك حزنا ما ينتظرها .
ــ ماذا يريد ان يفعل ؟

وعاد بول يصحبه اندريه ، وقال هذا الاخير وهو يهز رأسه :
ـ ايساي البؤس هذا ... ماذا سنفعل به ؟
فأجاب بول بحدة :
ـ يجب ان نسدي اليه النصح ليتخلى عن خططه التجسسية .
وتدخلت الام وسألت مطرقة :
ـ ماذا تود ان تفعل يا صغيري بول ؟
ـ متى ؟ الآن ؟
ـ في اول ... اول ايار .
فأجاب وهو يخفض من صوته :
ـ آه . آه سأحمل علمنا واسير به في الطليعة ؛ ومن المحتمل انيزجوني في السجن مجددا من اجل ذلك .
واشتعلت عينا الام ، واجتاح فمها جفاف مقيت ، فأخذ بول يدها يداعبها :
ـ هذا ضروري ... اتفهمين ؟
فقالت وهي ترفع رأسها ببطء :
ـ لم اقل شيئا .
وعندما التقت عيناها النظرة النافذة المصممة في عين بول ، طوت عنقها من جديد . وافلت هو يدها ، وزفر ، ثم قال بلهجة تقريع :
ـ يجب الا تبتئسي ، بل يجب ان تغتبطي ، متى يكون لنا امهات يرسلن ابناءهن بغبطة حتى الى الموت ؟
وغمغم اندريه :
ـ مهلا ، مهلا .. هوذا سيد ينطلق على جياده العظيمة .
وتساءلت الام :
ـ هل قلت شيئا ؟ انا لم امنعك ، واذا كنت اشفق عليك ، فهذا من عمل قلبي كأم .
واستدار ، وسمعت بعض الكلمات القاسية الجارحة .
ـ هناك عواطف تحرم الانسان من ان يعيش ...
وارتعشت ، وخشية ان يتفوه بما يجرحها صرخت بحدة :
ـ لا تقل هذا يا بول . فأنا اعلم انك لا تستطيع ان تتصرف تصرفا مغايرا .. اكراما للرفاق .
فأجاب : كلا .. انا افعل ذلك من اجل نفسي .
ووقف اندريه في العتبة ؛ وكانت قامته اشمخ من الباب حيث كان

ينتصب كأنه في اطار ، وكان يطوي ركبتيه على نحو غريب ويسند احد كتفيه الى مصراع الباب ، ويقذف بعنقه وكتفه الآخر الى الامام .
وقال وهو متجهم الوجه ، وعيناه الجاحظتان تركزان على بول :
ــ انكم تحسنون صنعا لو توقفتهم عن الترثرة يا سيد .
وكان اشبه ما يكون بحرذون في شق صخرة .
وودت الام ان تبكي ، ولكنها انفت ان يراهـا ابنها وهي تفعل ذلك فدندنت :
ــ آه . يا آلهي لقد نسيت . . .

وانطلقت الى الرواق ، فأسندت راسها الى زاوية من زوايا الجدار ، واطلقت العنان لدموعها . لقد كانت تبكي بهدوء ودونما انتحاب ، وكانت خائرة القوى كأن الدم يتفجر من قلبها ، في الوقت الذي تتفجر فيه الدموع من عينيها ، وكانت تتناهى الى سمعها ، من خلال الباب الذي لم يكن محكم الاغلاق ، ضوضاء نقاش حاد .

كان البيرو روسي يقول :
ــ قل لي . . أيلذ لك ان تعذبها ؟
ويصرخ بول : لا يحق لك ان تتكلم مثل هذا الكلام .
ــ هل اكون رفيقا صالحا اذا ما سكت على حماقاتك البلهاء ؟ لماذا قلت ذلك ؟ اتدري لماذا ؟
ــ يجب ان نقول دائما بحزم كل ما نبغي قوله سواء كان نفيا ام ايجابا .
ــ وحتى لامك ؟
ــ لجميع الناس ، فأنا لا اريد حبا او صداقة تربطني وتضع القيد في رجلي .
ــ يا لك من بطل . امسح مخاط انفك . واذهب فقل هذا كله لساندرين فلها ينبغي ان يقال .
ــ لقد قلته .
ــ بهذه الطريقة ؟ انك تكذب . لقد قلته لها بلطف ، قلته لها بحنان . انا لم اسمعك ولكني أعرف ذلك . وأمام أمك تعرض بطولتك . ثق ايها البهيم ان بطولتك لا تساوي فلسا .

واخذت بيلاجي تمسح دموعها بسرعة ، فلقد كانت تخشى أن يوجه البيوروسي الإهانة الى ابنها ، فسارعت الى فتح الباب ، وقالت وهي تدخل المطبخ مرتعشة من الحزن والخوف :
ــ آوه . . . ما هذا البرد . . . رغم اننا في الربيع !
وفيما كانت تتشاغل بنقل الاواني المطبخية من مكان الى آخر ، دون

مبرر ، اردفت ، وهي ترفع من صوتها ليطغى على صوتيهما الخافتين :
ــ لقد تغير كل شيء ؛ فذب الدفء في الناس ، وبرد الجو ، مع انه في مثل هذا الوقت عادة يكون الطقس حارا والسماء صافية ، والشمس مشرقة .
وخيم السكون على الحجرة ؛ وتوقفت هي في المطبخ كأنها تنتظر شيئاما.
وسأل البيوروسي بصوت خفيض :
ــ اسمعت ؟ يجب أن تدرك انها اغنى قلبا منك .
وسألتهما الام بصوت مضطرب :
ــ هل تشربان الشاي ؟
ودون ان تنتظر جوابا ، قالت لتخفي اضطرابها :
ــ ماذا دهاني ؟ اني اشعر ببرد شديد .
واقترب بول منها ببطء ، ونظر اليها بشرود ، والبسمة الخاطئة تحرك شفتيه ، وقال بصوت خافت :
ــ سامحيني يا اماه ... فانا ما زلت غلاما غبيا .
وصاحت بأسى وهي تدفن راسه في صدرها :

ــ لا تبكتني يا بول ؛ ولا تقل شيئا. اصنع ما شئت فأنت سيد حياتك، ولكن لا توجه الي كلاما خبيثا . ايمكن لام ان تتجرد من الشفقة ؟ كلا ... واني لاشفق عليكم جميعا ، فأنتم ادنى الناس الي ، وانكم لجديرون بذلك . واذا لم اعاملكم انا باشفاق فمنذا الذي يعاملكم ؟ انك تسير يا صغيري بول ، ووراءك آخرون تخلوا عن كل شيء وساروا ...

وكانت تشعر بأن هناك فكرة عظيمة ملتهبة تملأ قلبها، وتهبها الاجنحة، وتلهمها فرحا يمازجه الغم والعذاب ، ولكنها كانت لا تجد الالفاظ التي تعبر بها ؛ فراحت في قلق العي تلوح بيدها ، وترنو الى ابنها ، بعينين تشتعـلان بالالم الفظيع الحاد .

ووشوش بول وهو يطأطيء راسه :
ــ هذا صحيح يا اماه .. فسامحيني . اني افهم ..
ورشقها بنظرة خاطفة وهو يبتسم ثم استدار واضاف بارتباك يمازجه فـرح :
ــ اقسم لك بشرفي اني لن انسى هذا ابدا .
وتركته ، وراحت عيناها تبحثان عن اندريه لتقول له بصوت متوسل ودود ،
ــ لا تؤنبه يا صغيري اندريه ، فأنت بلا شك ولدي البكر ..
ولم يتحرك البيوروسي الذي كان يدير ظهره اليها ، بل زمجر بـصوت مثير للضحك :

ـ هو هو هو ... سانهق وراءه ، ولن اتورع عن ضربه بشدة .
فاتجهت اليه بخطى وئيدة ممدودة اليد :
ـ يا بني الطيب ، يا ولدي العزيز .
فاستدار اندريه وطأطأ هامته كالثور ، ومر بجانبها متجها الى المطبخ ويداه مشبكتان وراء ظهره ومن المطبخ تعالى صوته بسخرية كئيبة :
ـ أغرب من وجهي يا بول اذا كنت تود الا اعض راسك . لا تصدقيني ابتها الام الصغيرة فأنا امزح .. سأعد الشاي .. نعم .. ما اوسخ الفحم الذي عندنا .. يا للقذارة ..

وصمت . وعندما دخلت الام الى المطبخ كان يجلس على الارض ليشعل الموقد ، ولم يبصرها وهي تدخل ، بل تابع :

ـ لا تخافي ، لن امسه ابدا فانا وديع ناعم كراس لفت مسلوق . وانت لا تصغي الى « البطل » فانا احبه حبا جما ، ولكني اكره صدريته .. انه يرتدي صدرية جديدة أرايت ؟ وهو معجب بها كل الاعجاب .. هو ذا يمشي، وقد سبقه كرشه ، انه يدفع الناس في طريقه : « انظروا الصدرية الجميلة التي البس » .. انها جميلة حقا ولكن .. لم يضعضع الناس ؟ فهم مكتظون مزدحمون بدون هذا ..

وابتسم بول :
ـ اتراك ستظل تدمدم هكذا طويلا ؟ ان شتيمة واحدة يجب ان تكفيك.
وكان البيوروسي ما زال جالسا على الارض ، يضع ابريق الشاي بين رجليه يتأمله . وكانت الام واقفة بقرب الباب تسمر عينيها الحزينتين الودودتين على العنق الطويل المستدير ، عنق اندريه المحني .

وقلب راسه الى الوراء ، واستند بيديه الى الخشب ، وحدّق في الام وابنها وهو يغمز بعينيه المحمرتين قليلا .
ـ انكم قوم طيبون .. نعم ..
فأنحنى بول وامسك بذراعه :
ـ لا تشد ، فاني ساقط الى الارض اذا ما فعلت .
وقالت الام بحزن :
ـ لم انتما متضايقان ؟ هيا تعانقا عناقا حارا ، حارا جدا .
فسأل بول : اتريد ذلك ؟
واجاب اندريه وهو ينهض : ولم لا ؟

وتعانقا طويلا ، وظلا بلا حراك فترة ، بديا فيها كأن روحا واحدة تملأ اهابيهما ، روحا تلهبها صداقة حارة حميمة .

وكانت الدموع تنهمر على وجنتي الام ، ولكنها لم تكن دمــوع المرارة فمسحتها بارتباك قائلة :

ـ ان النسـاء يحببن البكاء ، فهن يبكين من الفرح كما يبكين من الحزن.

ودفع البيوروسي بول دفعة صغيرة وقال وهو يمسح ايضا عينيه :

ـ هذا يكفي ... عندما تنط العجول يعد منها الشواء . آه يا للفحم اللعين .

لقد نفخت طويلا لاشعله حتى امتلأت به عيناي .

وجلس بول بالقرب من النافذة مطرقا . وقال بهدوء :

ـ ان دموعا كهذه لا تبعث الخجل .

واقبلت الام فجلست الى جانبه ، يغمر قلبها شعور بالزهــو دافىء عذب ، وكانت تستشعر شيئا من الحزن الا انها كانت سعيدة هادئة البال.

وقال اندريه وهو يلج الغرفة :

ـ سأرتب الاواني ، فظلي مرتاحة ايتها الام الصغيرة ، ارتاحي ، فلقد عذبت كثيرا .

وعلا رنين صوته الطروب عندما غاب عن انظارهما :

ـ جميل جدا ان يشعر المرء انه يعيش حياة خيرة هكذا ، كما يعيش البشر .

وقال بول وهو يرمق امه بنظرة خاطفة :

ـ اجل .

فقالت : لقد تبدلت الامور ، فالحزن شيء والبهجة شيء آخر .

واجاب البيو روسي :

ـ هذا ما يجب ان يكون ، فكل قلب جديد ينمو ، ايتها الام الصغيرة اللطيفة ، انما ينمو في الحياة ، ثم يأتي انسان فيوقد فيه نار العقل ، ويصرخ وينادي :

« يا هؤلاء .. ايها البشر في كل الاوطان ، اتحدوا في عائلة واحــدة » وبتأثير هذا النداء تتحد القلوب كلها بأفضل ما فيها ، تتحد في قلب واحـد كبير قوي ، رنان كجرس من فضة .

وضغطت الام على شفتيها بقوة كــي لا ترتعش ، واغمضت عينيهــا لتمسك دمعها فلا ينسكب .

ورفع بول يده يريد ان يقول شيئا ، ولكن الام انزلت يده هامسـة :

ـ دعه يتكلم .

وتابع اندريه وهو واقف في الباب :

ـ اتعلمون ان هناك كثيرا من الاحزان تنتظر البشر ؟ ان دمعهم ما زال

يمتص . ولكن ذلك كله ، لكن حزني كله ودمي ليس الا فدية تافهـة لبعض ما احمل في صدري وراسي . اني غني بالشعاع كنجم ، وسأتحمل كل شيء، سأتجلد ، لان في داخلي فرحا لا يقوى انسـان ما او شيء ما على خنقه ابدا .. وفي هذا الفرح تكمن القوة .

... وشربوا الشـاي ، ولبثوا حول المائدة حتى انتصف الليل . وهم يثرثرون ثرثرتهم الحبيبة ، عن الحياة والناس والمستقبل .

وكانت كلما توضحت فكرة في راس بيلاجي تخيرت من ماضيها ذكرى ، ذكرى ثقيلة ابدا خشنة ابدا ، واتخذتها مرتكزا لهذه الفكرة .

وكان خوفها يتلاشى ويذوب في سيل حديثهم الحار ، وانها الآن لتشعر نفس الشعور الذي خامرها يوم قال لها والدها بقسوة :

ــ عبثا تكشرين ... ثمة سخيف يود ان يتزوجـك فتزوجيه ؛ لان الزواج مصير كل فتاة . ان النسـاء كلهن يضعن الاطفال ، والاطفال شقـاء بالنسبة لذويهم .. وانت .. الست كائنا بشريا ؟

وكانت ترى امامها عندئذ الطريق الذي لا يمكنها ان تتنكبه ، والـذي يدور دونما افق حول مكان مقفر قاتم ؛ وكانت الضرورة المحتومة لسلـوك هذا الطريق تملأ قلبها بدعة مستسلمة عمياء ، وانها لتشعر الآن بمثل تلك الدعة ، ولكنها كانت ، وهي تتوقع شقاء جديدا ، تقول في نفسـها كأنها تحدث شخصا ما : خذوا ..

وكان هذا يخفف من الما الخفي الذي يشدو في صدرها راعشا كـوتر مشدود .

وفي اعماق نفسها التي يمخضهـا الترقب والقلق ، كان لهب الامـل يتصاعد ، خافتا ، انه امل حي ، امل لا يستطيع احد ان يسلبه او ينتزعه كله منها .

- ٢٤ -

وفي الصباح الباكر ، وبعد خروج اندريه وبول بفترة قصيرة جـدا ، طرقت ماريا كورسونوف النافذة برعب ، وصاحت على عجل :

ــ لقد قتل ايساي . فهيا بنا نر .

وارتعشت الام ولمع اسم القاتل في ذهنها كالبرق ، وسالت بايجـاز وهي تطرح شالا على كتفيها :

ــ ومن الذي قتله ؟

فاجابت ماريا : لم يقف لاتبينه .. فلقد ضرب ضربته وولى الادبار .

وتابعت وهما في الطريق :

ـ سوف يباشرون البحث والتفتيش عن المجرم ؛ ومن حسن الحظ ان رجليك كانا في المنزل هذه الليلة . اني استطيع ان اشهد على ذلك ، فلقد مررت امام بيتكم بعد منتصف الليـل ، والقيت نظرة خاطفة مـن خـلال النافذة ؛ فرأيتكم جميعا تجلسون حول المائدة .

وصاحت الام بذعر :

ـ ماذا تقولين يا ماريا ؟ أيمكن ان يتهموهما ؟

واجابت ماريا بيقين :

ـ ومنذا الذي يقتله ؟ انهم جماعتك بكل تأكيد ، فالناس جميعا يعرفون انه كان يتجسس عليهم .

وتوقفت الام مبهورة الانفاس ووضعت يدها على صدرها .

ـ ما بك ؟ لا تخافي ... لنسرع قبل ان ينقلوه .

وكانت الذكرى الثقيلة ذكرى فيسو شيكوف تتعتع بيلاجي ففكـرت كالمخبولة :

ـ هو ذا ... وقد انتهى الى تنفيذ ما يريد .

وفي مكان غير بعيد عن جدران المعمل ، وفوق انقاض منزل التهمتـه النار منذ امد قريب ، كان حشد مـن الناس يضجون كخلية من زنـابير ، ويدوسون بقايا الكلس والرماد الذي كان يتطاير . وكـان هناك كثير مـن النسوة ، والاطفال ، واصحاب الحوانيت ، وخدام الفندق والشرطة ؛ وكان هناك ايضا الدركي « بيتلين » وهو عجوز ضخم الجثة ، فضي اللحية، يحمل فوق صدره عددا من الاوسمة .

وكان ايساي نصف ممـدد على الارض وقد اسند ظهره الـى جسر سودته النار . وكان راسه الجاسر يتهدل على كتفه الايمن ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، في حين كانت اصابع يده اليسرى تتشبث بالارض الرخوة .

ورنت الام الى وجهـه . لقد كانت عينه الكمـداء تتركز على القبعة المطروحة بين ساقيه الممدودتين بارتخاء واعياء ، وكان فمه مفتوحا بشكـل يعبر عن الدهشة ، وكانت لحيته الصهباء منفوشة الجانب ، وكان الجسم الضئيل ، براسه الدقيق ووجهه العظمي الذي يغطيه نثار النخالة ، كان هذا الجسم قد تضاءل وضغطته يد الموت .

ورسمت الام اشارة الصليب وهي تزفر : لقد كان يثير قرفها وهـو حي ، اما الان فانه يثير فيها احساسا خفيفا من الرحمة .

ولاحظ احد الحضور بصمت خافت :

ـ ليس هناك دم . لقد ضربه القاتل بقبضته دون شك .

وتعالى صوت كريه :

ـ لقد اقفل فم خائن .

وتطاول الدركي ونحى بيده حشد النساء وسأل بلهجة تهديد :

ـ من ذا الذي يفكر مثل هذا التفكير ؟

وكان الناس يبتعدون من طريقه ، حتى ان بعضهم ولى الادبار .

وسمع الحضور ضحكة تزخر بسوء النية .

وعادت الام الى منزلها وهمست : لم يحزن عليه احد .

وكان شبح نيقولا الضخم ينتصب امامها كالطفل ، وفي عينيه الضيقتين لمعة باردة قاسية ، ويده اليمنى تتدلى متأرجحة كأنه انما سحقها بقدميه .

وعندما عاد أندريه وبول للغداء استقبلتهما سائلة :

ـ قولا ... هل اوقف احد بسبب ايساي ؟

ولاحظت انهما كانا مرهقين ، فاستفسرت بصوت خفيض :

ـ الا يقال شيء عن نيقولا ؟

فرمقها ابنها بنظرة قاسية واجاب وهو يقطع كلماته تقطيعا :

ـ ابدا ... حتى انهم لا يفكرون به ؛ ثم انه ليس هنا ، فلقد ذهب يوم امس عند الظهيرة ، الى النهر ، ولما يعد . لقد تقصيت اخباره .

وقالت وهي تطلق زفرة عزاء :

ـ حسنا ، شكرا لله ، شكرا لله .

ورشقها البيو روسي بنظرة عجلى ثم اطرق .

واستأنفت الام مضطربة البال :

ـ انه ممدد ، ووجهه يعبر عن الذهول . ان احدا ما لم يتحسر عليه ؛ ولم يقل عنه كلمة طيبة . انه متضائل لدرجة هائلة ؛ يبدو معها كنفاية انفصلت عن شيء ما وسقطت هناك على الارض .

واثناء تناول الطعام القى بول ملعقته فجاة وصاح :

ـ انا لا افهم هذا ..

فسأله اندريه : ماذا ؟

ـ ان يقتل المرء حيوانا لكي يأكل فقط امر غير مستحب ، وان يقتل وحشا ضاريا او طيرا جارحا ، امر يمكن فهمه ، وانا نفسي أستطيع ان اقتل رجلا تحول الى وحش كاسر بالنسبة للآخرين ... اما قتل مخلوق بائس ، فلا أدري كيف يستطيع الجاني ان يرفع يده لمثل هذا ؟

وهز اندريه كتفيه وقال :

ـ انه لم يكن اقل اذى من وحش مفترس . ثم اننا نقتل البعوضة لانها تمتص قليلا من دمنا .

ـ نعم ، هذا صحيح ، ولكن ليس هذا ما اريد ان اقول . اني اقول

ان عملا كهذا تتقزز منه نفسي .
واجاب اندريه وهو يهز كتفيه ثانية :
ـــ وما العمل ؟
وخيّم صمت طويل .
ثم قطع بول هذا الصمت وسأل بقلق .
ـــ اتستطيع ان تقتل مخلوقا من هذا النوع ؟
فرمقه البيوروسي بعينيه المدورتين ثم ألقى نظرة عجلى على الام واجاب بأسى يمازجه الحزم :
ـــ من أجل الرفاق ، من اجل قضيتنا ، اقترف كل شيء ، واقتل حتى ابني .
ـــ اوه يا اندريه .
فابتسم لها : محال ان نتصرف تصرفا غير هذا ، فالحياة هي التي تفرض ذلك ..
وردد بول ببطء : اجل ، اجل انها الحياة .
وعصف التأثر ببول فجأة ، فنهض مدفوعا بعامل خفي وحرك ذراعيه:

ـــ ما العمل ؟ اننا مرغمون على كره الانسان لكي نستعجل اليوم الذي نستطيع فيه ان نقدره دونما تحفظ . يجب أن ندمر من يعرقل سير الحياة، من يبيع الآخرين بالمال ليضمن لنفسه الراحة والامجاد . واذا ما اعترض طريق العادلين يوضاس يتربص بهم ليخونهم فاني اكون انا نفسي يوضاسا اذا لم ادمره . أليس ذلك من حقي ؟.. واسيادنا اولئك أمن حقهم ان يسخروا الجند والجلادين والمؤسسات العامة والسجون والمنفى ، وكل ما هو شين وعار ليضمنوا سلامتهم وسعادتهم ؟ ما العمل اذن اذا كنت مرغما احيانا ان امسك الهراوة بكلتا يدي ؟ لن ارفض ذلك ، وسآخذها بيدي . انهم يصرعوننا بالعشرات ، يصرعوننا بالمئات ، وهذا ما يعطيني الحق بأن ارفع يدي واهوي بها على رأس عدو ، على رأس اقربهم الي واشدهم ايذاء لجهد حياتي كلها . هكذا صنعت الحياة ، وانا اناضل ضدها ، ولا اريدها . انا اعلم ان دم الاعداء لا يبدع شيئا انه دم عاقر أن الحقيقة تنمو عندما يروي الدم الارض كمطر غزير ، في حين ان دمهم فاسد يتبخر دون ان يترك آثارا ، .. ولكني سأتحمل وزر الجريمة ، سأقتل اذا وجدت ذلك ضروريا، وبما انني اتكلم عن نفسي ، فا نالجريمة ستموت معي ، انها لن تلطخ وجه الغد ولن تدنس احدا سواي .

وكان يروح ويجيء ويده تتحرك امام وجهه كانه يقتطع شيئا ما ويقذفه بعيدا عنه . وكانت الأم تراقبه يملأها الاسى والغم . لقد كانت تشعر بأن

جزءا منها قد تحطم ، وانها من اجل ذلك تتألم اشد الالم .

وبارحتها الافكار السوداء الرعديدة التي تساورها عندما تتذكر القاتل وكانت تقول في نفسها : « اذا لم يكن فيسو شيكوف هو الجاني ، فان واحدا من رفاق بول لا يمكن ان يكونه » . وكان بول يصغي الى البيوروسي مطرقا فيما يتابع هذا حديثه بقوة وعناد :

ــ عندما تسير في الطليعة يجب ان تقاوم حتى نفسك . يجب ان تعرف كيف تضحي بكل شيء ، ان تضحي بكل قلبك ، وليس بالامر العسير ان يكرس المرء حياته لقضيته ، ان يموت من اجلها . ابذل ما استطعت البذل. ضح بما هو اغلى من الحياة ، يتنام بقوة اعز ما فيك ، تتنامى حقيقتك .

وتوقف في وسط الحجرة ، وكان وجهه قد غدا أشد شحوبا وعيناه نصف مغمضتين ثم استأنف كلامه وهو يرفع يده كما لو كان يؤدي قسما عظيما .

ــ انا اعلم انه سيأتي زمن يتبادل الناس فيه الاحترام والتقدير ، زمن سيكون كل امرىء فيه كالنجم في اعين الآخرين . سيكون ثمة على الارض رجال احرار عظماء بحريتهم ، وسيسير كل انسان مفتوح القلب طاهرا من كل حقد ، وسيعيش الناس جميعا دونما خبث ، ولن تكون الحياة عندئذ هي الحياة ، بل عبادة للانسان ، وستسمو صورته عاليا ، وتذل الذرى السامقة كلها متونها للاحرار . عند ذاك نعيش في الحقيقة والحرية، نعيش من أجل الجمال . عند ذاك يعتبر الناس ان افضلهم هم الذين يعرفون جيدا كيف يملأون بالوجود قلوبهم ، والذين يحبون هذا الوجود أعمق الحب ؛ ويصبح اشد الناس تعلقا بالحرية ، افضلهم ، ففي نفوسهم يكمن اعظم قدر من الجمال ، وسيكونون من العظماء اولئك الذين سينعمون بهذه الحياة .

وصمت قليلا ثم انتصب وقال بصوت كأنه يأتي من اعماق اعماقه :

ــ ومن اجل هذه الحياة انا مستعد لكل شيء .

وارتعش وجهه ، وتساقطت من عينيه ، واحدة بعد اخرى ، دموع كبيرة ثقيلة .

ورفع بول راسه ونظر اليه . لقد كان هو ايضا شاحب الوجه، متمدد الاحداق ، ونهضت الام من مقعدها ، وكانت تحس ان الاسى القاتم يقترب منها ويزداد نموا :

ــ وسأل بول بصوت خافت :

ــ ما بك يا اندريه ؟

وعصفت براس البيو روسي رعدة مفاجأة ، وتشنج كوتر مشدود ، وقال وهو يرنو الى الام :

ــ لقد رايت .. وأعرف ..

فنهضت الام واقتربت منه بسرعة وأمسكت بكلتا يديه، فحاول ان يسحب يمناه ، ولكنها شدتها بقوة ، وهمست بحرارة :

ــ هدىء من روعك يا عزيزي .

فقال بهدوء : مهلا . سأروي لكم كيف حدث ذلك .

فغمغمت وهي تحدق به والعبرات تملأ عينيها .

ــ لا حاجة لذلك ، لا حاجة لذلك يا اندريه .

واقترب بول ببطء وقد رطبت عينيه الدموع . وكان شاحب الوجه يبتسم :

ــ لقد خشيت الام ان تكون انت ....

ــ لست بخائفة . اني لا أصدق ذلك . وحتى لو رايته بعيني ، فلن اصدق ابدا .

وقال البيو روسي دون ان يلتفت اليهما :

ــ مهــلا .

وكان يهز رأسه ويحاول بلا انقطاع سحب يده :

ــ لست انا القاتل ، ولكن كان علي ان احول دون القتل .

وصاح بول : اخرس يا اندريه .

واحتضنت احدى يديه يد اندريه والقى بالثانية على كتفه ، كأنه يود ان يهدىء ارتعاش قامته الفارعة ؛ وحول اندريه وجهه نحو بول ، وتابع بصوت خفيض متقطع :

ــ كنت لا اريد ذلك ابدا . وانك لتعرف هذا جيداً يا بول .. ولكن اليك ما حصل :

لقد سبقتني انت ، ومكثت انا في زاوية الشارع مع دراغنوف ، وكان ايساي قد برز من الشارع الآخر ، وتوقف على مسافة منا ، يدمدم وينظر الينا ، فقال لي دراغنوف : أرأيت ؟ انه يتجسس علي وهذا شأنه في كل ليلة ، سأقضي عليه .

وانطلق الى منزله على ما اعتقد ، واقترب ايساي مني .

واطلق اندريه زفرة ..

ــ لم يشعرني احد بالمهانة والضعة كهذا الكلب .

ودون أن تنبس الام بكلمة ، شدت اندريه من ذراعه ، وجرته نحــو

الطاولة ، ونجحت اخيرا في اجلاسه على مقعد ، وجلست هي نفسها الى جانبه وظل بول واقفا امامها يشد لحيته بانفعال .

ــ وقال لي انهم يعرفوننا جميعا ، وان رجال الدرك يراقبوننا ؛ وسيزجوننا في السجن ، في اول ايار . ولم اجبه ، بل ضحكت ولكن الغليان كان قد بدا في داخلي .

وقال لي بعد ذلك : اني كنت فتى فطنا وانه كان يجب علي الا اسلك هذا الطريق بل كان يجب علي ...

وتوقف عن الكلام . ومسح وجهه والتمعت عيناه ببريق بارد فقال بول : فهمت .

ــ كان يجب علي ان اضع نفسي في خدمة القانون .

ومد ذراعه وحرك قبضته المشدودة ، وقال ، وهو يخرج الكلمات من بين اسنانه :

ــ في خدمة القانون ؟ اللعنة لروحه ، فلقد كان يحسن صنعا لو صفع وجهي ؛ لان ذلك سيكون اقل ايلاما لي ، وربما له ايضا ... ولكنه عندما بصق في قلبي بصاقه النتن ، فقدت صبري .

وسحب يده من يد بول بعنف، وقال باشمئزاز وبصوت اكثر هدوءا :

ــ لقد صفعته ومشيت ، ولكني سمعت دراغنوف من ورائي يقول بكل هدوء :

ــ هل وقعت في الفخ ؟..

لقد كان مختبئا في زاوية من زوايا الشارع بلا شك .

وبعد فترة من الصمت استانف كلامه :

ــ ولم أرجع ، ولكني شعرت بأني سمعت طلقة . ومضيت هادىء النفس كأنني قد ركلت بقدمي ضفدعة . وكنت في المعمل عندما تعالى الصراخ : « لقد قتل ايساي » . لم اصدق ذلك ، ولكن يدي تؤلمني ، ولم اكد أستطيع تحريكها لا لانها تؤلمني فحسب ، بل لانها كانت كأنها انكمشت وتقاصرت .

ورمق يده بنظرة شزراء :

ــ من المؤكد انني لن استطيع ، طوال حياتي ، ان اغسل هذه اللطخة النتنة .

وقالت الام :

يكفيني ان يكون قلبك نقيا يا صغيري .

فأكد البيو روسي :

ـ انا لا اتظلم ، ولكن هذا يثير في نفسي التقزز ، لانني لم اكن بحاجة الى ذلك .

وقال بول وهو يهز كتفيه :

ـ اني اسيء فهمك ، لست انت الذي قتلته ... ولكنك لو ...

ـ ان مجرد العلم بالقتل دون منع وقوعه ...

وقال بول بحزم :

ـ انا لم افهم شيئا من هذا كله ...

ثم اضاف بعد فترة قصيرة من التفكير :

ـ اي انني استطيع فهمه ... اما ان احسه فلا ...

وعوت صافرة المعمل ، ومال البيو روسي برأسه يصغي الى زئيرها الصلف الآمر ، ثم قال منتفضا : لن اذهب اليوم الى المعمل .

وقال بول : وانا ايضا لن اذهب .

واعلن اندريه باسما :

ـ اما انا فسأذهب لاستحم .

وتهيأ بسرعة دون ان يتلفظ بكلمة ، ثم خرج متثاقلا ؛ وتبعته الام بنظرة اشفاق :

ـ قل ما تشاء يابول ، فأنا اعلم ان قتل امريء خطيئة ، ومع ذلك فاني لا اجد في هذه القضية مجرما . لقد كنت اشفق على ايساي ، فهو صغير جدا كالحشرة ، وعندما رايته تذكرت انه هددك يوما بالشنق . ولم اكن اشعر بالحقد عليه ابدا كما ان موته لم يفرحني . لقد اشفقت عليه من قبل لطيبتي ، اما الآن ... فاني لا احس نحوه حتى بالشفقة .

وصمتت ، وفكرت لحظة ثم اضافت وهي تبتسم مندهشة :

ـ يا يسوع ... هل تسمع يا بول ما اقول ؟

ولم يكن بول يصغي اليها بلا ريب ، بل كان يزرع ارض الغرفة ببطء وهو مطأطيء الرأس ، متجهم الاسارير :

ـ هذه هي الحياة . ارايت كيف ان الناس مهيأون ليقف بعضهم في وجه البعض الاخر ؟ وسواء كان ذلك باختيارهم او على كره منهم ، فانهم مجبرون على ان يضربوا . ومن ؟ رجلا مغتصب الحقوق مثلهم ، واشد شقاء منهم لانه حيوان . ان رجال البوليس والدرك والجواسيس هم جميعا اعداء لنا ، ومع ذلك فهم بشر مثلنا . انهم يرهقون لدرجة ينضحون معها دما وعرقا ، ولا يعاملوننا كبشر . وهكذا يستعدى الناس بعضهم على بعض وتسمل اعينهم بالغباوة والخوف ، وتوثق ايديهم وارجلهم ، ويضطهدون

ويستغلون ، ويسحقون ، ويضرب بعضهم بيد البعض الآخر . لقد مسحوا بنادق ومطارق وبلاطا . ثم قيل : هذه هي الدولة !

واقترب من امه :

ـ انها لجريمة يا اماه . القتل الفظيع ، قتل الملايين من الكائنات البشرية ، قتل الارواح . اتدركين ؟ انهم يقتلون الروح . ارايت الفرق بيننا وبينهم ؟ عندما يضرب واحد منا انسانا يشعر بالخجل . يشعر بالتقريع ، فيتعذب ويشمئز ، ولكن الاخرين يقتلون الناس بالالوف ، يقتلونهم ببطء ودونما رحمة ، يقتلونهم دون ان يرتعشوا . انهم يقتلون بلذة ، يذبحون الآلاف لا لغاية الا ليختزنوا الذهب والفضة ووريقات لا قيمة لها ، ليختزنوا كل هذه التفاهات الحقيرة التي تمنحهم السلطان على الناس . تأملي : انهم لا يبطشون بالشعب ولا يمثلون به لحماية انفسهم او للدفاع عن ذواتهم ، انهم لا يفعلون ذلك من اجل انفسهم بل من اجل ثرواتهم . انهم لا يحمون انفسهم من الداخل ، وانما يحمونها من الخارج .

واخذ يدي امه بين يديه وانحنى يشدهما :

ـ اذا استطعت ان تحسي كل هذا المقت ، وكل ذلك التعفن القذر، فستدركين حقيقتنا ، وسترين كم هي عظيمة ورائعة .

ونهضت الام شديدة التأثر ، تملأها الرغبة في ان تصهر قلبها وقلب ابنها في لهب واحد ، وهمست وهي تلهث :

ـ رويدا يا بول رويدا . اني أحس ذلك .

- ٢٥ -

وسمع في المدخل وقع خطى ، فارتعشا كلاهما وتبادلا النظرات .

وفتح الباب ببطء ، ودخل ريبين بخطوه المتثاقل ، وقال باسما شامخ الراس :

ـ هوذا انا ، فحيوني ، وليكن لي شرف الجلوس الى مائدتكم .

وكان يرتدي فروة خروف قصيرة ، يلطخها القار ، وينتعل حذاء من التيل ويتدلى من وسطه عدد من الخطاطيف ، ويعتمر قبعة من الوبر .

ـ كيف الصحة ؟ هل اطلقوا سراحك يا بول ؟ حسنا .. كيف الحال يابيلاجي ؟

وكانت بسمته عريضة تكشف عن اسنانه البيضاء ، وفي صوته جرس شديد الحلاوة ، وكانت لحيته تشغل قطاعا واسعا من وجهه .

ودنت الام منه وهي سعيدة بلقائه ، وشدت على يده السوداء الضخمة

وقالت وهي تتنشق رائحة القار القوية الطيبة التي كانت تفوح منه :
ـ اهذا انت ؟ اني لجد مسرورة .
وتفحص بول ريبين باسما :
ـ انك تبدو كفلاح وسيم .
ونزع ريبين فروته ببطء :
ـ اجل . لقد عدت فلاحا . اما انتم فان بعض مظاهر السادة تبدو عليكم ... اني اعود الى الوراء .. فتأملوا .
ودخل وهو يسوي دراعته المصنوعة من الكتان ، ويلقي على الحجرة نظرة شاملة .
ـ الاثاث : لم يزد عليه شيء على ما ارى .. اما الشيء الذي ازداد فهو عدد الكتب . الخلاصة .. كيف سير الاعمال ؟
وجلس وهو يباعد بين ساقيه ، ويضع باطن كفه على ركبته ، ويتأمل بول بنظرة فاحصة من عينيه السوداوين ، وينتظر الجواب باسما وبكثير من السذاجة .
وقال بول :
ـ ليست الاعمال سيئة على كل حال .
وثرثر ريبين :
ـ انهم يحرثون ويزرعون دون انتباه ، وسيجنون ما زرعوا ؛ وسيطبخون الحثالة ، ويقطرون ، ويدخرون مبلغا طيبا . اليس هذا صحيحا ؟
وسأله بول وهو يجلس قبالته ؟
ـ وانت كيف حالك يا ميشيل ؟

ـ لا بأس . فالامور على مايرام . لقد توقفت قليلا في أغيد بيغو .. اتعرفون أغيد بيغو ؟ انها قرية جميلة يقام فيها معرضان في السنة ، ويزيد تعدادها على الفي نسمة من الناس الاشرار ؛ وليس فيها أراض ، وانما يستأجر اهلوها الاراضي ، لان تربتها لا تصلح ابدا . لقد عملت فيها عند أحد مصاصي الدماء ، وهم كثيرون هناك ، كثرة الذباب على جيفة . انهم يستخرجون الزفت ، ويصنعون الفحم ، وكنت اقبض اقل من الاجر العادي بأربع مرات ، وابذل ضعفي ما ابذله من جهد هنا . لقد كنا سبعة عمال في خدمة هذا النهم ، وكلهم من شبان المنطقة ماعداي . جميعهم يعرفون القراءة وبينهم فتى يهيم بها اسمه « ايفيم » .

وسأله بول بحماسة : حسنا .. وهل كنت تتحدث معهم ؟
ـ كنت لا اصمت ابدا . لقد اصطحبت معي « وريقاتكم » . كنت احمل منها اربعا وثلاثين ، غير انني كنت افضل استعمال « انجيلي » ..

ففيه يجد المرء كل ما يريد وهو كتاب ضخم غير ممنوع . ان الكنيسة هي التي طبعته .. لذلك يستطيع المرء ان يصدقه .

وتطلع الى بول وغمزه ثم ابتسم :

ـ ولكن ذلك لا يكفي ، فلقد اتيناك باحثين عن « منشورات » ؛ ونحن هنا اثنان : ايفيم وانا . لقد كنا ننقل كمية من الزفت ، واغتنمنا الفرصة لنراك . انك ستزودني ، بلا شك ، بمؤونة .. قبل ان يصل ايفيم .. فهو ليس بحاجة لأن يعرف الكثير .

وكانت الام ترنو الى ريبين ، وخيل اليها حين نزع سترته انه تعرى من شيء آخر ؛ لقد فقد شيئا من وقاره ، وغدت نظراته اكثر خبثا ، واقل صراحة .

وقال بول :

ـ احضري لنا قليلا من الكتب يا اماه . انهم يعرفون ماذا يجب ان يعطوه ، قولي لهم ان هذه الكمية سترسل الى الريف .

ـ حسنا ، لكن الشاي يوشك ان يكون جاهزا ؛ وسأذهب بعد ذلك.

وسأل ريبين ضاحكا :

ـ وانت ايضا يا بيلاجي تهتمين بهذه الامور ؟ ان في قريتنا كثيرا من عشاق الكتب ، والمعلم نفسه يرغب بها ويتذوقها . يقال انه فتى طيب رغم انه تربى في مدرسة اكليركية . وهناك ايضا معلمة مدرسة على بعد سبعة او ثمانية كيلومترات .. ولكنهم جميعا لا يريدون ان يقرأوا كتبا ممنوعة ؛ فالدولة هي التي تدفع لهم رواتبهم .. وهم يخافون . يلزمني كتاب واحد من هذه الكتب المنوعة ؛ كتاب لاذع جدا ، لأهربه لهم في الخفاء.. وسيعتقد رجال البوليس او الكاهن اذا ما رأوا هذا الكتاب الممنوع ان معلمي المدرسة هم الذين يقومون بالدعاية .. فلا يتاح لهم أن يعرفوني . لاني بعيد عن اللعبة .

وقهقه فخورا بدهائه وخبثه ؛ قهقه حتى بدت نواجذه .

وحدثت الام نفسها :

ـ ارأيت ؟ له مظهر الدب .. ولكنه ثعلب .

وسأل بول : اتعتقد انهم يزجون بالمعلمين في السجن اذا ما ارتابوا بأنهم هم الذين يوزعون الكتب الممنوعة ؟

ـ نعم .. وماذا يعني ذلك ؟

ـ انكم انتم الذين توزعونها .. وليسوا هم ؛ فالعدل يقضي بأن تزجوا انتم في السجن .

وصاح ريبين ضاحكا وهو يضرب ركبته بكفه :

ـ ايها الخبيث اللعين . من سيفكر باني انا ، انا الفلاح البسيط أهتم بأمور كهذه ؟ هل سبق لهم ان رأوا من قبل مثل ذلك ؟.. ان الكتب من عمل « السادة » وعليهم وحدهم أن يتحملوا المسؤولية .

وشعرت الام ان بول لا يدرك ما يقوله ريبين ، وانه مقطب الجبين ، غاضب ، فتدخلت في الحديث وقالت بصوت عذب مسالم :

ـ يريد ميشيل ايفانوفيتش ان يهتم بهذه الامور ، على أن ينال الآخرون العقاب نيابة عنه ...

فوافق ريبين على قولها وهو يداعب لحيته :

ـ بالضبط ... ولكن هذا سيكون بصورة موقتة .

ورد بول بجفاف :

ـ لو قام واحد من بيننا يا اماه ، اندريه مثلا ، بعمل ما ، وانتحل اسمي ، فزججت في السجن عقابا على ذلك العمل .. فماذايكون شعورك ؟

فارتعشت الام ورنت الى ابنها بدهشة ، وأجابت وهي تهز راسها مستنكرة :

ـ كيف يمكن ان يتصرف امرؤ مثل هذا التصرف بحق رفيق ؟

فقال ريبين بصوت متساحب :

ـ آه ... آه ... لقد ادركت الآن قصدك يا بول .

وغمز بخبث وخاطب بيلاجي :

ـ هذا ، ايتها الام ، عمل لطيف .

ثم استدار نحو بول ، وقال بلهجة الحكيم :

ـ انك ما زلت غرا يا فتاي الصغير . فلا مكان للشرف في الامور الخارجة على القانون . فكر قليلا : انهم اولا ، يزجون في السجن من يعثرون على الكتاب في حوزته وليس معلمي المدارس . هذه واحدة . ثانيا : ان الكتب المسموح بها والتي يوزعها هؤلاء المعلمون تتضمن ما تتضمنه الكتب الممنوعة ، ولكن بكلمات مختلفة ، ونسبة من الحقيقة أقل . هذه ثانية . وهذا يعني انهم يريدون الوصول الى نفس الغاية التي استهدفها انا ... ولكنهم يسلكون من اجل ذلك طريقا ضيقا ، كثير المنعطفات ، في حين اسلك الطريق المستقيم .. اما جريمتنا في نظر السلطة فهي واحدة ... اليس هذا صحيحا ؟ وثالثا : يا بني .. لا شأن لي انا معهم .. لان الراجل لا يكون رفيقا للفارس . ومن المؤكد انه لا يمكن ان أزج فلاحا في مثل هذا العمل ، اما هما فأحدهما ابن كاهن ، والثاني ، وهو الفتاة ، ابنة ملاك كبير . فأية مصلحة اذن لهما في اثارة الشعب ؟.. لا ادري .. انا فلاح بسيط لا أدرك أفكار المثقفين ، ولا اعرف ما اعمله انا نفسي . أما ما يريدونه هم ... فاني

لا اريد ان اعرفه .. لقد ظل الكبار يمثلون بدقة دورهم كأسياد طوال الف عام ؛ لقد سلخوا جلد الفلاح .. وها هم يستيقظون فجأة ... وها أنذا افتح عيون الفلاح الروسي . انا لا اؤمن يا بني بحكايات الجن . ولكن هذا . كما ترى ، يشبه تلك الحكايات . ان اولئك السادة ، من اي صنف كانوا . بعيدون كل البعد عني ، فلو كنت اسير في الحقول شتاء وتحرك امامي كائن حي ، فماذا عساه يكون هذا الكائن ؟ قد يكون ذئبا او ثعلبا ، وقد يكون ، بكل بساطة كلبا ، ولكني ، على كل حال ، لا استطيع ان اميزه لانه بعيد عني كل البعد .

... والقت الام نظرة عجلى على ابنها فاذا ملامحه تنم عن اله .

وكانت عينا ريبين تلتمعان ببريق قاتم ، وكان ينظر الى بول بادي الرضى ، ويمرر ، ببدعة ، اصابعه على لحيته :

ـ ليس لدي الوقت الكافي لأتظرف . فان الحياة نفسها لا تمزح ابدا ؛ والكلب في الوجار الحقير ليس كالكلب في الحظيرة .. ولكل سرب من الكلاب طريقته في النباح .

وقالت الام وهي تفكر في بعض الوجوه التي تعرفها :

ـ هناك سادة يضحون بأنفسهم من اجل الشعب ويتعذبون طوال حياتهم في السجون .

ـ هؤلاء يختلف امرهم عن الآخرين ، فعندما يثري الفلاح يتحسس بالسيد ، وعندما يفتقر السيد يلجأ الى الفلاح ، وتظل النفس حتما طاهرة صافية ما دامت المحفظة خاوية .. اتذكر يا بول !

لقد شرحت لي مرة اننا نفكر على نسق الحياة التي نحياها ؛ فاذا قال العامل « نعم » وجب على السيد ان يقول « لا » ؛ واذا قال « لا » ، فان السيد بطبيعته كسيد يصرخ بضراوة : « نعم » ، وهكذا فان الفلاح والسيد يختلفان في طبيعتهما ، فعندما يأكل الاول كفافه لا ينام الثاني ليله من التخمة . مما لا شك فيه ان في كل طبقة فئة سافلة ؛ .. فأنا شخصيا لا اوافق على الدفاع عن الفلاحين جميعا .

وانتصب اسود اللون.قويا ، وكان وجهه يتجهم ولحيته ترتعش ، كأنما تصطك اسنانه ، ثم تابع وهو يخفض من صوته :

ـ لقد همت على وجهي من معمل الى معمل ، طوال سنوات خمس ، حتى نسيت الريف . وها انذا اعود اليه . لقد شاهدت ما يحدث هناك فقلت لنفسي : انا لا استطيع ان اعيش هكذا . اتفهمين ؟ لا استطيع . اما انتم الذين تعيشون هنا ، فانكم لا تعرفون شيئا من تلك المخازي . هناك في القرية ، يلاحق الجوع الانسان كظله ؛ ولا امل مطلقا في ان تتوفر له

الكفاية من الخبز . لقد افترس الجوع النفوس ، وصنع مخلوقات ليس لها وجه الانسان . انهم هنـاك لا يعيشون . انهم يتعفنـون في حضن بؤس لا نستطيع ان نتصوره ، وتقيم السلطات حولهم نطاقا من الحراسة اليقظة ، وتتربص بهم كالغربان لترى ما اذا كنت تملك كسرة زائدة . فاذا رأت تلك الكسرة انتزعتها منك ، ولطمتك . فوق ذلك . على فمك .

واجال ريبين بصره فيما حوله ، ومال نحو بول وهو يسند يديه الى الطاولة :

ـ لقد اجتاحتني الرغبة حتى في التقيؤ عندما شاهدت هذه الحيـاة عن كثب . وكنت افكر اني لا استطيع تحملهـا ، ولكني ، مع ذلك تمالكت نفسي . وقلت في سري : لا ، لا تكن غرا ، سأبقـى هنا . اني لن امنحهـم الخبز ، ولكنني سأثير المشكلة ، اجل يا بني ، سأثيرها ، اني احمل الضغينة لاولئك الذين يصنعون الشر للناس ، فلقد انغرزت المهانة في قلبي كسكين . . ومن أجل ذلك . . . يرتعش قلبي .

وكان العرق يغطي جبهته . واقترب من بول ببطء ، ووضع على كتفه يدا مضطربة :

ـ ساعدني . اعطني نوعا من الكتب لا يعرف أي انسان طعم الراحة بعد ان يقرأها . يجب ان نضع قنفـذا تحت كل جمجمة ، قنفـذا يحسن الوخز . وقل لجماعتك في المدينة ، أولئك الذين يكتبون لك : قل لهـم ان عليهم ان يكتبوا ايضا لناس الريف . ليطبخوا لنا ، على مهل ، مرقـة كثيرة الافاويه ، وليوزعوها على القرى ، فان فلاحينا سيقتتلـون من اجلها حتى الموت .

ورفع ذراعه ، ثم اضاف بصوت هادىء وهو ينثر مقاطع كل كلمة :

ـ لنداو الموت بالموت . هذا ما نريده . ومعنى ذلك انه يجب ان نموت ليبعث العالم ، ان تموت الالوف لتحيا الملايين في الارض كلها . اجـل هذا ما نريده ، وانـه ليسير ان يموت الناس ، اذا كـانوا سيبعثون ، اذا كـانوا سينتفضون من قبورهم .

وحملت الام ابريق الشاي وهي ترمق ريبين بنظراتها الشزراء . لقـد كانت كلماته العنيفة القاسية ترهقهـا اشد الارهاق ، وكـأن فيه شيء ما يذكرها بزوجها : فرجة فمه ، وحركات يده حين يشمر اكمامه . ولقد كان مثله ايضا ، يتأجج بسعار لا يعرف الصبر ، ولكنه سعار صامت .

اما ريبين فكان لا يزال يتكلم ، ولكنه كان يبدو اقل رهبة من ذي قبل.
وقال بول وهو يهز رأسه .

ـ اجل ان هذا ضروري . اعطونا وقائع نطبع لكم جريدة ..

ونظرت الام الى ابنها باسمة ، ثم ارتدت ثيابها دون ان تنبس بكلمة ، وخرجت .

وصاح ريبين :

ــ افعلوا ذلك وسنقدم لكم كل ما يلزم ... ولا تكتبوا اشياء معقدة ، لكي تستطيع حتى العجول نفسها ان تفهم .

وفتح باب الرواق ودخل احدهم .

قال ريبين وهو ينطلق نحو المطبخ ليرى من القادم :

ــ انه ايفيم . تعال الى هنا يا ايفيم ... هذا الفتى هو بول الذي حدثتك عنه . وانتصب امام بول فتى صلب العود ، عريض الوجه ، اصهب الشعر ، رمادي العينين ، يرتدي فروة خروف نصفية ، ونظر اليه من اسفل ، وقال بصوت مبحوح :

ــ تحية .

ثم شد يد بول ، ورد الى الوراء شعره العصي ، واجال طرفه في الغرفة ثم اتجه بخطى تائهة وئيدة نحو الرف المثقل بالكتب .

وقال ريبين وهو يغمز بول :

ــ لقد رآها .

واستدار ايفيم ، ونظر الى بول ثم راح يتفحص الكتب قائلا :

ــ حسنا ان عندكم ما تقرأونه .. ولكن ، من المؤكد ، أن ليس لديكم متسع من الوقت للقراءة . اما عندنا في الريف فالوقت يتسع لذلك .

وقال بول :

ــ لكن الرغبة في القراءة اقل .

واجاب الفتى وهو يحك ذقنه :

ــ لماذا ؟ بالعكس . ان الناس عندنا بدأوا يحركون عقولهم قليلا .

وتابع وهو يحدق في احد الكتب :

ــ علم طبقات الارض ؟ ماذا يعني ذلك ؟

وقال ايفيم وهو يعيد الكتاب الى مكانه :

ــ لا حاجة لنا به . ان الفلاح لا يهمه ان يعرف من اين جاءت الارض ، بل يهمه ان يعرف كيف توزعت . وكيف انتزعها الكبار من تحت اقدام الشعب ، وسواء كانت هذه الارض تدور او لا تدور ، فلا اهمية لذلك ، لانك تستطيع ان تعقلها بحبل ، اما المهم فهو ان تعطي ما يؤكل ، ان تغذي البشر الذين يعيشون عليها .

وقرأ ايفيم اسم كتاب آخر : « تاريخ الرق » فسأل :

ــ هل تتحدثون فيه عنا ؟

فقال بول وهو يناوله كتابا آخر :
ــ هو ذا كتاب يبحث في القنانة .
فأخذه وقلبه بين يديه ، ثم اعاده الى مكانه ، وقال بهدوء :
ــ هذا يتحدث عن الماضي .
ــ هل لديكم ارض مأجورة ؟
ــ نحن ؟ نعم . . . لدينا . ونحن ثلاثة اخوة ، نملك اربعة هكتارات من الاراضي الرملية . انها صالحة لتنظيف النحاس ولكنها لا تصلح ابدا لانبات القمح وهي لا تساوي شيئا .
وتابع بعد ان صمت قليلا :

ــ لقد تحررت من الارض ؟ فأي نفع فيها ؟ انها لا تطعم صاحبها بل تغل يديه . وها قد مرت سنوات اربع وانا اعمل كأجير زراعي . وفي الخريف سأغدو جنديا . لقد قال لي الاب ميشال : « لا تذهب ، فهم يرسلون الآن الجنود لقتال الشعب » .
ومع ذلك فسأذهب . ان الجيش يحارب الشعب منذ « ستيبان رازين » و « بوغاتشيف » (1) وقد آن الاوان لان يوضع حد لذلك .
وركز بصره على بول وسأله :
ــ ماذا تقول ؟
فأجاب بول وهو يبتسم : اجل لقد آن الاوان ، ولكن الامر صعب . . . يجب ان نعرف ماذا نقول للجنود ، وكيف نخاطبهم .
فقال ايفيم :
ــ سنتعلم ، وسنحسن ذلك جيدا .
فرد بول وهو يرمق ايفيم بفضول :
ــ يمكن ان يعدموك رميا بالرصاص اذا قبضوا عليك .
وهمهم الفتى : انهم لن يمنحونا الغفران .
وعاد الى تفحص الكتب وقال ريبين :
ــ اشرب شايك يا ايفيم ، فينبغي ان نرحل سريعا .
ــ ها انذا آت .
ووقعت عينه على كتاب يحمل اسم « الثورة » فصاح :
ــ الثورة ؟ هل يعني هذا « التمرد » ؟
وتقدم اندريه مضرج الوجه منفعلا ، فشد على يد ايفيم دون أن يتفوه بكلمة ثم جلس الى جانب ريبين وراح يضحك وهو يتأمله .

(1) زعيمان من زعماء ثورات الفلاحين في القرنين السابع والثامن عشر لا تزال ذكراهما حية .

وسأله ريبين ، وهو يضربه بيده على فخذه :
ـ انك لست منشرحا .
فأجاب البيوروسي : هذا صحيح .
وسأل ايفيم وهو يشير الى اندريه بايمائة من راسه :
ـ هل هو ايضا عامل ؟
فأجاب اندريه : نعم ... فماذا تقصد ؟
فشرح ريبين : هذه هي المرة الاولى التي يرى فيها عامل مصنع ... ان هؤلاء كما يقول .. يتميزون عن الآخرين .
فسأل بول : بماذا ؟
وتفحص ايفيم اندريه بدقة ثم قال :
ـ ان عظامكم مدققة ، اما الفلاح فعظامه اكثر استدارة .

واكمل ريبين : ان الفلاح يقف على رجليه بثبات اكثر . انه يشعر ان الارض تحت قدميه . رغم انها ليست له . انه يحسها . انها الارض . ولكن عامل المصنع كالطائر لا وطن له ولا منزل ، انه اليوم هنا ، وغدا هناك . حتى المرأة لا تستطيع ان تربطه بمكان . فلا يكاد ينشب بينهما جدال حتى يقول لها : « وداعا يا حلوتي » ثم ينطلق باحثا عن حياة افضل ، في مكان آخر . اما الفلاح فيفضل ان يعمل في بيته دون ان ينتقل... آه .. هي ذي الام قد عادت .

ودنا ايفيم من بول وسأله :
ـ لعلك ستقدم الي كتابا ؟
ـ بكل سرور .
وبرقت عينا الفتى بشعاع النهم . وقال بحرارة :
ـ سأعيده ، ان فتياننا ينقلون الزفت الى مكان ليس ببعيد ; وسأكلفهم باعادته اليك .
وكان ريبين قد ارتدى معطفه وشد حزامه :
ـ هيا بنا ... لقد دهمنا الوقت .
وقال ايفيم وهو يريه الكتب ، وترتسم على شفتيه بسمة عريضة :
ـ لقد حصلت على شيء اقرؤه .
وعندما انطلقا ، صاح بول مخاطبا اندريه :
ـ ارأيت الى هؤلاء الشياطين ؟
فرد البيوروسي ببطء : نعم .. انهم كالسحاب ...
وقاطعته الام : هل تتحدثان عن ريبين ؟ لكأنه لم يكن ابدا في المعمل . فلقد غدا فلاحا بحتا ، لكم هو رهيب .

وقال بول لاندريه الذي كان يجلس قرب النافذة يتأمل قدح الشاي وهو متجهم الاسارير .

ــ لم تكن هنا ، فيا للخسارة . ولو كنت لاستطعت ان تشهد فورة قلب . انت الذي تتحدث دائما عن القلب . لقد عرض ريبين آراء مثيرة هزتني ..، وكادت تخنقني ، ولم استطع حتى الرد عليه . لكم هو حذر من الناس ، ولشد ما يحتقرهم . لقد صدقت الام ، فهذا الرجل يحمل في نفسه قوة رهيبة .

وقال اندريه محتفظا بتجهمه :

ــ رايت ذلك . لقد سمعوا الناس ، وسيجتاح هؤلاء، عندما يثورون، العقبات كلها ، واحدة بعد اخرى . انهم يريدون الارض خالصة لهم ، وسيحطمون كل ما يحول بينهم وبين هذه الغاية .

وكان يتكلم بأناة ، ويبدو على ملامحه انه يفكر بأمر آخر . وقالت له الام تداريه :

ــ يجب ان تتحرك يا عزيزي اندريه .

فاجاب بهدوء ورقة :

ــ انتظري ايتها الام الصغيرة .. انتظري .

ثم اردف وقد انفعل فجأة ، ضاربا على الطاولة بقبضة يده :

ــ نعم يا بول . سيأتي الفلاح على كل ما تحمل الارض عندما يفيق من كبوته ، وكما تحرق آثار الطاعون سيحرق هو كل شيء ، ليدفن في الرماد كل آثار مهانته .

وزاد بول بتؤدة :

ــ وسينتصب بعد ذلك في طريقنا .

ــ ان مهمتنا يا بول تنحصر في الا نسمح له بذلك . مهمتنا ان نردعه ، فنحن اقرب الناس اليه ، وسيصدقنا ، ويسير وراءنا .

ــ اتعرف ان ريبين يقترح علينا اصدار جريدة خاصة للريف ؟

ــ هذا ما ينبغي عمله .

وقال بول ضاحكا : يخجلني انني لم ابحث الامر معه .

ولاحظ اندريه بهدوء :

ــ ستسنح الفرصة المناسبة لذلك ، ويكفي ان تنفخ مزمارك ليرقص على صوته اولئك الذين لا تنغرس ارجلهم في الارض لقد صدق ريبين فنحن لا نحس الارض تحت اقدامنا ، ويجب الا نحسها ، لاننا نحن المهيأون لدفعها الى الحركة ، سنهزها مرة واحدة فينقلع الناس منها ، ثم نهزها ثانية فينقلعون منها ايضا .

وابتسمت الام :
ـ في نظرك كل شيء بسيط يا اندريه .
ـ نعم ... بسيط كالحياة .
وبعد لحظات اردف : سأنطلق الى الحقول في جولة ...
فاعترضت الام : بعد ان استحممت ؟ ان الهواء ينفخ في الخارج وهذا ما يؤذيك .
ـ وهذا بالضبط ما احتاج اليه ..
وقال بول برقة :
ـ حذار ، قد يصيبك برد ، ومن الافضل ان تنام .
ـ كلا ... اريد ان اخرج .
وارتدى ثيابه ثم مضى دون ان يتفوه بكلمة .
وعلقت الام وهي تطلق زفرة :
ـ انه متعب .
فقال لها بول : لقد احسنت صنعا اذ خاطبته بعد هذه القصة بصيغة المفرد .
فرشقته بنظرة اندهاش :
ـ ولكني لم انتبه لذلك . فلقد امسى قريبا الي جدا و ... لا ادري كيف اقول لك !
فقال بول بهمس : ما اطيب قلبك يا اماه .
ـ ليتني استطيع ان اقدم لك بعض المساعدة ، لكم جميعا . لو كنت اعرف ...
ـ لا تخافي فسوف تعرفين .
وشرعت تضحك بهدوء :
ـ وهذا ايضا ما لا اعرفه : « الا اخاف » .
ـ حسنا ياأماه ، لندع الكلام في هذا الموضوع ، وتأكدي اني معترف لك بالجميل كل الاعتراف .
وهرولت الى المطبخ كيلا يرى دموعها .
وعاد اندريه في ساعة متأخرة من المساء منهكا ، وذهب الى فراشه على التو وهو يقول :
ـ اعتقد اني اجتزت عشرة كيلو مترات على الاقل ..
تساءله بول : هل في ذلك فائدة لك ؟
ـ انا ذاهب لانام فلا تزعجني .
رصدت ، ثم غفا ، كجذع شجرة ..

وبعد قليل اقبل فيستوشيكوف رث الثياب ، قذرا ، ناقما كعادتــه ، وسال وهو يضرب برجليه :

ـ الم تعرف من هو الذي قتل ذلك الوغد ايساي ؟

فرد بول بايجاز : كلا .

ـ هناك شخص لم يثر ذلك اشمئزازه . وانا الذي كنت اعد نفسي دائما لخنقه . وهذا ما كان يجدر بي .

وقال له بول بلهجة حميمة :

ـ لا تقل مثل هذه الاشياء يا نيقولا .

وتدخلت الام وقالت بود : هذا صحيح . انك طيب القلب ومع ذلــك لا تفتر عن الزئير ، فعلام ذلك ؟

وكانت ، في هذه اللحظة ، تحس بشيء من الرضى لرؤيته ، حتى ان وجهه المجدور بدا لها جميلا . وقال ، وهو يهز كتفيه :

ـ انا لا اصلح الا لمثل هذه الاشياء . انــي افكر وافكر ... اين هــو مكاني ؟ فلا ارى لي مكانا . يجب ان اتحدث الى الناس ولكنني لا اعرف كيف اتحدث . اني ارى كل شيء ، ارى المآسي التي يصنعونها للناس ، واحس هذه المآسي ولكنني لا استطيع ان ارويها ... ان روحي خرساء .

ودنا من بول مطأطيء الراس يحك الطاولة باصبعه ، وقال بصوت شاك كصوت طفل ، بصوت كأنه يصدر عن سواه :

ـ يا شباب ... كلفوني بعمل شاق ، اي عمل ، فانا لا استطيــع ان اعيش هكذا دون ان اعمل شيئا . انكم جميعا في صميــم المعركة ، والامــور تسير بالنسبة لــكم سيرا حسنا ، اما انا فاقف بعيــدا ... انقل الجسور والاخشاب . اني لا استطيع ان اعيش من اجل هذا ، فكلفوني بعمل شاق .

واخذه بول من يده وجذبه اليه :

ـ سنكلفــك .

ولعلع صوت اندريه من وراء الحاجز :

ـ سأعلمك يا نيقولا احرف الطباعة ، وستصبح احد منضدي الاحرف عندنا .فهل توافق ؟

واقترب فيسوشيكوف من الحاجز وقال :

ـ اسمع . اذا علمتني ، فسأقدم لك سكينا كهدية .

فصاح به اندريه : اذهب الى الشيطان بسكينك .

ثم انفجر ضاحكا .

وألح نيقولا : انها سكين عظيمة .
واخذ بول ايضا يضحك ، فتوقف فيسوشيكوف وسأل :
ـ هل تضحكان مني ؟
فأجاب اندريه وهو يثب من سريره :
ـ نعم ... ولكن اسمع : تعالوا نهيم في الحقول فان ضوء القمر جميل هل تذهبون ؟
فقال بول : حسنا .
واعلن نيقولا : وانا معكم ايضا ، فاني احبك ايها البيوروسي وانت تضحك .
ـ وانا احبك ايضا حين تعد بالهدايا !
وحين كان يرتدي ثيابه في المطبخ قالت له الام بلهجة مؤنبة :
ـ اسرع في ارتداء ثيابك ... اسرع .
وعندما خرجوا ، وثبت الى النافذة تلاحقهم ببصرها ، ثم القت نظرة على صورة القديسين ، وقالت بصوت خافت .
ـ يا آلهي .. كن في عونهم .

- ٢٦ -

كانت الايام تمر سراعا ، فلا تدع للام متسعا من الوقت للتفكير في اول ايار ، ولكنها كانت حين تأوي ، في الليل ، الى فراشها ، تعبى من انفعالات النهار وعمله الصاخب ، تشعر بقلبها ينقبض بهدوء :

ـ عجل بالاطلال يا اول ايار .
وكانت صافرة المعمل تعوي عند الفجر : فيشرب بول واندريه شايهما على عجل ويتناولان طعاما خفيفا ثم يمضيان ، تاركين على عاتق الام كثيرا من المهام .

وتظل هي ، طوال النهار ، تدور كالسنجاب السجين ، تهيء الطعام ، وتحضر مادة بنفسجية لطبع النداآت ، وصحفا للاعلانات ، وكان يأتي اليها مجهولون فيسلمونها بطاقات مرسلة الى بول ، ثم ينسحبون بعد أن يقدموا لها احترامهم .

وكانت النداءات التي تدعو العمال الى التعطيل في اول ايار تلصق على الجدران كل ليلة تقريبا ، وكانت هذه النداءات تظهر حتى على ابواب مخفر الدرك ، كما يعثر عليها كل يوم في المعمل .

وفي الصباح كان رجال البوليس يروحون ويجيئون في الضاحية ؛ فينزعون ويمزقون الاوراق البنفسجية شاتمين ، ولكن هذه الاوراق كانت تعود عند الظهيرة فتتطاير في الشارع من جديد ، وتتساقط تحت أرجل المارة . وجيء من المدينة بعدد من رجال الامن المدنيين، فتمركزوا في منعطفات الشوارع ، يلاحقون بابصارهم العمال الذين كانوا ينطلقون الى الغداء مرحين نشيطين . او الذين كانوا يعودون بعده الى العمل وقد أسعدهم جميعا ان يروا البوليس عاجزا ، حتى ان الطاعنين منهم كانوا يتهامسون ، والبسمة تختال على شفاههم :

ـ ماذا يفعلون ؟ ها ؟

وكانت الحلقات الصغيرة تنعقد في كل مكان ، فيدور الجدل بحرارة حول النداءات التي تقض المضاجع ، وكانت الحياة تغلي ، فلقد اثارت ، في فصل الربيع هذا ؛ اهتمام الجميع ، وكانت تحمل لكل فرد شيئا جديدا . تحمل للبعض سببا جديدا للحقد على المخربين ، ولاغراقهم بالشتائم ؛ وللآخرين قلقا مزعجا واملا ؛ وللآخرين غيرهم ـ وهم الاقلية ـ فرحا غامرا ، وشعورا بانهم هم القوة التي توقظ الناس .

وكان بول واندريه لا ينامان الا لماما ، وكانا يصلان ، قبل ان ترسل الصافرة نداءها ، بقليل ، يصلان منهكين ، شاحبي الوجه ، مبحوحي الصوت . وكانت الام تعرف انهما كانا ينظمان الاجتماعات في الغاب ، وفي المستنقع ، ولم تك تجهل ان فصائل من الشرطة كانت تقوم ، خلال الليل . بدوريات حول الضاحية ، وكان الجواسيس يطوفون فيفتشون العمال الذين يسيرون منفردين ، ويفرقون الجماعات ، ويوقفون بعضهم احيانا . لقد كانت تدرك ان ابنها واندريه معرضان للتوقيف ، كل ليلة ، وتكاد تتمنى ذلك ففي التوقيف ، كما كان يبدو لها ، خير لهما .

واسدل ظل غريب من الصمت على مقتل ايساي ؛ وكان البوليس المحلي قد استجوب بعض الناس حول هذا الموضوع ، بضعة عشر رجلا على الاخص ، ثم اسدل ستار الاهمال على القضية . وروت ماريا كوروسونوف للام ، في حديث لها معها ، ما قيل للبوليس الذي خاطبته هي ايضا كالآخرين بعبارات رائعة :

ـ كيف يمكن العثور على الجاني ؟ فان نحوا من مئة شخص ربما كانوا قد رأوا ايساي هذا الصباح ؛ وتسعين منهم على الاقل ودوا لو يصفعونه . لقد امعن في مضايقة مواطنيه خلال سبع سنوات .

وكان التغير يبدو في ملامح البيوروسي ؛ فلقد غارت وجنتاه، وانسدلت اجفانه المتثاقلة على عينيه الجاحظتين فأطبقتهما نصف اطباقة ، وانحدرت تجعدة خفيفة من فتحتي انفه حتى زوايا شفتيه ، وقل كلامه عن الاشياء والاعمال والحوادث اليومية ، ولكنه كان يزداد انفعالا ويغدو فريسة حماس يستبد بسامعيه ، فيمجد الغد ، ذلك العيد الرائع المشرق : عيد انتصار العقل والحرية .

وعندما ضاع مقتل ايساي في لجة النسيان ، قال البيوروسي يوما بلهجة ازدراء وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ ان اعداءنا لا يكرهون الشعب فحسب بل انهم ايضا لا يحبون اولئك الذين يستخدمونهم كالكلاب لمطاردتنا ؛ واذا اسفوا عليهم ، فانهم لا يأسفون على « يوضاسهم » المخلص ، وانما يأسفون على اموالهم .

وقال بول بحزم : كفى يا اندريه .

واضافت الام بصوت خافت :

ـ لقد تعثرنا بجذع نخر ، فتهاوى وتناثر كالغبار .

واجاب اندريه بضيق : « هذا صحيح ، ولكنه لا يبعث في النفس العزاء » وكان يردد في اغلب الاحيان هذه الكلمات التي تكتسب بين شفتيه معنى خاصا ، يحيط بالاشياء كلها ، معنى لاذعا شديد المرارة .

.. واقبل اليوم المنتظر ؛ يوم اول ايار .

.. وعوت صافرة المعمل كعادتها امّارة قهّارة ، وقفزت الام التي لم تستطع ان تغمض اجفانها طوال الليل ، قفزت من سريرها ، وهيأت الشاي المعد منذ العشية ، ثم انطلقت ، كالعادة ، تطرق باب الغرفة التي ينام فيها اندريه وبول ، ولكنها توقفت فجأة ، وانزلت يدها ، وجلست قرب النافذة ، واسندت خدها الى راحتها كما لو كانت تشكو الما في اسنانها .

وكان قطيع من الغيوم الخفيفة البيضاء والوردية يهيم على وجهه مسرعا في السماء الباهتة الزرقاء ، كسرب من الطيور الكبيرة ، نفرها هدير البخار ففرت مذعورة . وكانت الام ترنو الى هذه الغيوم ، وتصيخ بسمعها الى وجيب قلبها . لقد كان راسها مثقلا ، وعيناها جافتين يعكرهما احمرار الارق ، وفي صدرها يخيم هدوء غريب ، وخفقات قلبها تتوالى بانتظام ، وكانت تفكر بأمور عادية :

ـ لقد اشعلت الموقد قبل الاوان ، ويكاد الماء ان يتبخر ، لادعهما اليوم ينامان وقتا اطول قليلا ، فكلاهما مرهق .

وقفز من النافذة خيط طفل من شعاع الشمس ، خيط مرح لعوب ! فحملت اليه الام يدها ، حتى اذا ما استقر صافيا فوق أناملها ، راحت يدها الاخرى تداعبه برفق باشة مطرقة . ثم نهضت وانتزعت انبوب الابريق ، جاهدة الا تحدث اية جلبة ؛ وشرعت تصلي فترسم اشارة الصليب بحرارة، وتحرك شفتيها بصمت .

وكان وجهها يتألق في حين يرتفع حاجبها ببطء تحت بقايا جرحها ، ثم ينخفض فجأة .

ودوى صوت الصافرة ثانية اقل عنفا ، واقل اطمئنانا ، وكان صوتها مرتعشا نديا ، فاحست الام انه اكثر امتدادا من ذي قبل .

وتعالى صوت البيوروسي صافيا :

ـ اتسمع يا بول ؟

وجرجر احدهما قدميه الحافيتين فوق ارض الغرفة ؛ وتثاءب آخر بنشوة ، فصاحت الام : الشاي جاهز .

واجاب بول بمرح : ها نحن ننهض .

وقال اندريه : لقد اشرقت الشمس والغيوم تتراكض .. انها كثيرة اليوم هذه الغيوم .

ودخل المطبخ اشعث الشعر يتعتعه النعاس ، ولكنه كان مشرق الاسارير .

ـ صباح الخير ايتها الام الصغيرة ، كيف قضيت ليلتك ؟
فاقتربت منه وقالت بصوت خفيض :
ـ ستظل الى جانبه يا صغيري اندريه اليس كذلك ؟
فغمغم اندريه :
ـ هذا اكيد . اننا نعيش معا ، فاطمئني .
وسأل بول : هل هناك من مؤامرة تحبكانها ؟
ـ لا شيء ابدا يا بول .
واجاب اندريه وهو يخرج من المدخل ليمشط شعره :
ـ انها تقول لي بان استحم جيدا ، فستتعلق بنا ابصار الغواني .
ودندن بول : يا معذبي الارض انهضوا .

وصفا النهار شيئا فشيئا ، وبددت الريح السحب ، ووضعت الام المائدة ، وكانت تهز راسها وهي تفكر بان كل شيء كان اليوم شديد الغرابة.

لقد كان الصديقان يتمازحان هذا الصباح ويبتسمان ؛ ولكن من يعلم مـاذا ينتظرهما عند الظهيرة ؟

. . . اما هي فكانت تشعر بالاطمئنان ؛ بل انها تكاد ان تكون فرحة .

واطالوا الجلوس الى المائدة محاولين ان يبددوا ضجر الانتظار ، وكان بول كعادته ، يحرك ببطء وانـاة ملعقته ليذيب سكر فنجانـه ؛ ويذر الملح بعناية على قطعـة الخبز المحمص المفضلة لديه . وكـان البيوروسي يحرك قدميه تحت الطاولة فلا تستقران للوهلة الاولى ، وكان يقص ، وهـو يتتبع خيطا من شعاع الشمس يعدو في السقف وعلى الجدار :

ـ عندما كنت غلاما في العاشرة راودتني رغبة في ان اصطـاد شعـاع الشمس في كأس ؛ فاخذت واحدة ، واقتربت من الجدار بخطى الذئب ، ثم ضربت ضربتي فجرحت يدي ، وعوقبت بالضرب . وخرجت بعد ذلك الـى الساحة . فرايت الشمس في مستنقع ، فصرخت بها : « اغربي من وجهي والا سحقتك بقدمي » وكان ان غرقت في الوحل ، وعوقبت ايضا بالضرب ؛ واذا بي ، اخيرا اصرخ في وجهها : « لن يضيرني هذا ايها الشيطان الاشقر . لن يضيرني » . ثم امد لها لساني ساخرا . . وهذا ما كان يبعث في نفـسي العزاء .

وسأله بول ضاحكا :

ـ لم تمثلت لك الشمس شقراء ؟

ـ لانه كان قبالتنا حداد قرمزي الوجه اشقر اللحية ، وكان فلاحـا طيبا مرحا ، وكنت اري ان الشمس تشبهه .

وقالت الام مقاطعة :

ـ انكما تحسنان صنعا لو تحدثتما عما ستفعلانه .

فرد اندريه برقة :

ـ ان الحديث عن الامور المقررة يؤدي الى افسادها ؛ سيأتي نيقـولا ايتها الام الصغيرة ، عندما يجمعوننا ليقول لك ما يجب عمله .

وزفرت الام : حسـنا .

وقال بول وهو مطرق : يجب ان نخرج الى الشارع .

فنصحه اندريه : كلا ، مـن الافضل ان تبقى في البيت تنتظر ؛ اذ لا يجدي شيئا ان تجعل من نفسك هدفا للبوليس ، فالبوليس يعرفك جيدا .

واقبل عليهم ثيومازين متألق الوجه متورد الوجنات ، وبدد الانفعـال والفرح اللذان يملآنه ، ما كانا يعانيان من ضجر الانتظار.

ــ لقد بدأت ... ان الجماهير تتحرك . انهم ينزلون الى الشارع واشداقهم كالفؤوس . ان فيسوشيكوف ، وباريل غوسيف وساموالوف يرابطون عند باب المعمل منذ الصباح يحرضون العمال على العودة الى منازلهم ، وقد عاد عدد كبير منهم . هيا بنا ، فلقد آزفت الساعة ، انها العاشرة .

وقال بول بلهجة حازمة : ها انذا ذاهب الى هناك .
واكد ثيو : سترون ، بعد قليل سيتوقف المعمل كله . ثم انطلق راكضا.
وقالت الام بهدوء : انه يلتهب كشمعة في مهب الريح .
ــ الى اين ايتها الام الصغيرة ؟
ــ اني ذاهبة معكم .

ورنا اندريه الى بول وهو يمسد شاربه ، ورد بول شعره المتهدل الى الوراء بحركة خاطفة ثم لحق بأمه الى المطبخ :

ــ لن اقول لك شيئا يا اماه ، وانت كذلك .. مفهوم
فغمغمت امه : اجل ، اجل .. ليكن يسوع معكم .

-٢٧-

وعندما خرجت سمعت صخب الاصوات فاعتراها اكتئاب ورعشة ، وما كادت ترى جموع الناس مزدحمة في النوافذ والابواب ، تتبع اندريه وبول بنظرات الفضول ، حتى غامت عيناها ببقعة ضبابية تتموج متلونة ، فهي تارة خضراء شفافة ، وتارة اخرى رمادية كدراء .

وكانت التحايا تنهمر على الشابين ، وفي هذه التحايا شيء من التخصيص ، وكان سمع الام يتلقف شظايا الاحاديث المهموسة :

ــ ها هما القائدان .
ــ كلا .. لا يعرف احد من هم القادة .
ــ حسنا ... فانا لم اقل سوءا .
وتعالى صوت مهتاج: اذا قبض عليهما البوليس فانهما هالكان لا محالة.
ــ سيزيد ذلك الامور تعقيدا .

وندت عن احدى النسوة صرخة حانقة هلوع ، قفزت من النافذة الى الشارع :

انك تفقد اتزانك . هل تحسب انك ما زلت صبيا ؟ كلا !

وفيما كانا يعبران امام منزل رجل يدعى « زوسيموف » وهو عامل بترت ساقاه في المعمل ، ويتقاضى من اجل ذلك راتبا تقاعديا ــ اطل هذا برأسه من النافذة وصاح :

ــ هيه يا بول ، إن مشاكلك ستجر عنقك الى النطع . فانتظر ايها الجرو .

وارتعدت الام ثم توقفت . لقد اثارت فيها هذه الصرخة سخطا شديدا فرمقت الوجه المنتفخ ، وجه الرجل المقعد الذي انكفأ الى الداخل لاعنا ، ثم اسرعت لتنضم الى ابنها وسارت في اثره جاهدة الا تظل في مؤخرة الموكب .

وكان يبدو على بول واندريه كأنهما لا يلاحظان شيئا مما حولهما ، ولا يسمعان الهتافات التي تواكبهما ، وكانا يسيران على مهل دون ان يغذا الخطى ، فاستوقفهما ميرونوف وهو رجل ناضج متواضع . يحترمه الناس جميعا لانه يحيا حياة صابرة طاهرة ، وبادره بول :

ــ انك لا تعمل اليوم يا دانيلو ايفانوفيتش ؟

فزد ميرونوف وهو يحدج الرفيقين متفحصا :

ــ ان زوجتي توشك ان تضع حملها ، ثم ان الجو مضطرب اليوم . ويقال انكم ، انتم الشبان ، تودون خلق المتاعب للادارة ، وتحطم الزجاج ؟

فاجابه بول : او تحسبنا مخمورين لنفعل ذلك ؟

وتدخل اندريه : سنسير بكل بساطة مع اعلامنا في الشارع ، وسننشد الاناشيد فاصغ اليها . انها تعبر عن عقيدتنا .

واجاب ميرونوف بلهجة المفكر : اني اعرفها ، فلقد قرات نشراتكم .

والتفت الى الام وقال لها وبسمة الطيبة تلمع في عينيه الذكيتين :

ــ وانت ايضا يا بيلاجي تسيرين مع المتمردين ؟

ــ يجب ان يسير المرء مع الحقيقة حتى ولو كان على حافة قبره .

ــ ارايت ؟ ان الناس لصادقون اذن حين يقولون بانك تحملين النشرات الممنوعة الى المعمل .؟

وسأله بول : من يقول ذلك ؟

هكذا يقولون . . حسنا . . الى اللقاء . . واياكم الحماقات .

وراحت الام تضحك بهدوء فلقد كان يملأها زهوا ان يتحدث عنها الناس هكذا .

وقال لها بول باسما :

ـ ستدخلين السجن يا اماد .

وكانت الشمس ترتفع باستمرار فتبعث حرارتها في الطراوة المنعشة ، طراوة النهار الربيعي ، وكانت السحب تهيم بطيئة ، فتغدو ظلالها اكثر نحافة وشفافية ، وتتساحب هذه الظلال لينة لدنة فوق ارض الشارع ، وعلى سطوح المنازل ، فتلف الناس بغلالاتها ، وتبدو كأنها تقوم بتطهير الضاحية فتمسح الوحل والغبار عن السطوح والجدران ، والضجر عن وجوه الناس . وكانت البهجة تنتشر ، والاصوات تغدو اشد رنينا ، فتلقف الصدى البعيد ، صدى الضجيج المتصاعد من آلات المعمل .

ومن جديد ، كانت الاقاويل تتطاير وتنثال في سمع الام ، تتطاير من النوافذ والساحات كئيبة او شريرة ، جازمة او مرحة ، وودت بيلاجي لو تستطيع ان تجيب عليها ، فتشكر أو تشرح ، وان تندمج في حياة هذا النهار الغنية بالالوان .

وفي زاوية من الشارع الكبير ، وفي زقاق ضيق ، كان نحو من مئة شخص يتجمهرون ، وكان صوت فيسوشيكوف يدوي بينهم :

ـ انهم يعتصرون دمكم كما يعتصر العنب .

وكانت تعابيره التي لا براعة فيها تنهمر فوق رؤوسهم ، فتتعالى ، وفي وقت واحد ، بعض الاصوات :

ـ هذا صحيح ، هذا صحيح .
ثم تذوب هذه الاصوات في خضم الضجيج .
وقال البيوروسي :
ـ لقد سدد الفتى ضربة ، فلنذهب اليه ، ولنساعده .

وانحنى ، وقبل أن يتمكن بول من الامساك به ، اخترق الجمع كالمثقب ، وتعالى صوته الجهور :

ـ ايها الرفاق . يقال ان الارض تحمل على ظهرها كل انواع الشعوب، اليهود والالمان والانكليز والتتار ، ولكني انا لا اصدق ذلك ، فليس على ظهر الارض سوى شعبين ، سوى عرقين لا انسجام بينهما ابدا ، هما : الاغنياء والفقراء . ان ازياء الناس لتختلف ، وكذلك لغاتهم ، ولكننا عندما نرى كيف يعامل الاثرياء الفرنسيون والالمان والانكليز عمالهم ، ندرك انهم جميعا بالنسبة للعامل طغاة . طغاة ، ليت الحسكة تعلق في حناجرهم .

ودوت من بين الجميع ضحكة ، وتابع اندريه :

ــ وعندما ننظر الى الامر من الناحية الاخرى ، نرى ان العامل الفرنسي ايضا ، ومثلــه التتري والتركي يحيون حياة الكلاب ، مثلــنا نحن العمال الروس .

وكان الحشد يتضخم حوله بلا انقطاع ، ويتسلل النــاس بجهد الى الطريق الضيق . يتســللون واحدا بعد واحد ، ثم يقتربون بصمت ، فيمدون اعناقهم ويتطاولون على رؤوس اقدامهم . ويرفع اندريه صوته :

ــ لقد ادرك العمال في الخارج هذه الحقيقة البسيطة ، واليوم ، فــي هذا اليوم المشرق ، يوم اول ايار . .

وصرخ احد الحضور : البوليس ، البوليس .

وكان اربعة من رجال البوليس الفرسان يدورون نحو زاوية الزقاق . ويتوجهون مباشرة نحو الجمهور وهم يهزون كرابيجهم صائحين :

ــ هيا تفرقوا . .

فتكفهر الوجوه ، ويتفرق النــاس مرغمين امام الخيــول المقتحمة . ويتسلق بعضهم الاسوار ، ويرتفع صوت جهور يتحدى :

ــ لقد اركبوا الخنازير ظهور الخيل وها هي ذي تدمدم : ونحن ايضا لنا قادة كبار .

وظل البيوروسي وحده في وسط الزقاق ، واندفع نحوه جــوادان يترنح رأساهما ، فابتعد من طريقهما ، في حين امسكته الام من ذراعه وجرته مغمغمة :

ــ وعدتني ان تبقى مع بول ، وها انــذا اراك تعرض نفسك لالسنــة السياط .

فأجابها باسما : المعذرة .

وتملك بيلاجي اعياء يختلط فيه الغم بالخور ، اعياء كانت تحسه يتزايد فيملأ راسها بما يشبه الدوار ؛ وكان الحزن والفرح يتعاوران على قلبها بشكل غريب . وكانت تتمنى لو تسرع صافرة المعمل ، فتعلن حلول الظهيرة .

وبلغوا الساحة قرب الكنيسة حيث احتشد فوق فسحتها ــ وقوفــا وقعودا ــ نحو خمســمئة شاب وغلام متحمسين جذلــين ، وكــان الحشد يتموج ، والمحتشدون يتلعون اعناقهم ويرنون الى البعيد ، الى كل جهــة ،

بصبر نافذ . وكانوا يستشعرون شيئا من رهبة القداسة ؛ ويبدو البعض كأنه اضاع اتجاهه ؛ في حين يبدو البعض الآخر كمن اصيب بالصرع ، وكانت تسمع احيانا اصوات ضعيفة مكبوتة ، تند عن بعض النسوة ، فيستدبرهن الرجال مكرهين ، واحيانا اخرى تنفجر شتيمة بصوت خفيض ، وكان ضجيج اصم من الاحاديث الحاقدة يلف الحشد كله . وصوت امرأة يتهدج :

ــ كن حذرا يا متري .

وكان صوت سيزوف الوقور يسمع راعدا مقنعا :

ــ كلا .. يجب الا نتخلى عن الشبان ؛ فلقد اصبحوا اكثر تعقلا منا واوفر جراة . من الذي صنع كل شيء في قصة « فلس المستنقع » ؟ انهم هم . يجب الا ننسى ذلك . لقد دخلوا السجن لهذا السبب ، اما الغنم فكان لنا جميعا .

ولقف زئير الصافرة القاتم ضجيج الاحاديث ، ثم سرت في الجمع رعشة ، فاذا الجالسون ينتصبون ، وفي لحظة يتسمر كل شيء في وقفة انتظار متحفز ، كثير من الوجوه يكسوها الشحوب .

ــ ايها الرفاق ..

وكان ذلك هو صوت بول ؛ صوته الرنان الواثق .. ولفحت عيني الام غمامة جافة ، واستشعرت انها قد استردت ، دفعة واحدة ، كل حيويتها ، فاتخذت مكانها بالقرب من ابنها ؛ وتلفت الجميع الى بول ، والتفوا حوله كنثار الحديد حين يجتذبها جسم ممغنط ، وكانت الام ترنو اليه فلا ترى الا عينيه ، عينيه المزهوتين ، عينيه الجسورتين المشتعلتين .

ــ ايها الرفاق :

لقد قررنا ان نعلن بوضوح وصراحة من نحن ؛ فرفعنا اليوم علمنا ، علم « الفكر والحقيقة والحرية » .

وارتفعت في الفضاء سارية بيضاء طويلة ثم انخفضت ، فشطرت الحشد ، ثم توارت . وبعد لحظة ، ارتفع العلم العريض ، علم الشعب العامل الكادح ، ارتفع خفاقا كطائر قرمزي اللون .

ورفع بول ذراعه ، فرفرف العلم ، وحضنت السارية البيضاء الملساء أيد كثيرة كانت احداها يد الام :

وهتف بول : « عاش الشعب الكادح » .

ورددت وراءه مئات الاصوات في هتاف مدو :

ـ عاش حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي . عاش حزبنا . عــاش رفاقنا ، عاش . .

وسرى الغليان في الحشد ، وشق الطريق الى العلم اولئك الذين كانوا يدركون اي معنى يرمز اليه ، وكان مازين وساموالوف والاخوان غوسيف قد اخذوا مكانهم الى جانب بول ، اما نيقولا فيسوشيكوف فقد كان يعمل على اقصاء الناس عنــه ، وكان آخرون غيرهــم يدفعون الام التي لا تعرفهــم ، يدفعونها في تزاحمهم وهم محمومو النظرات .

وصاح بول : عاش العمال في كل وطن .

وبقوة وفرح دائمي التنامي ردد الهتاف الف صوت ، وكان صدى هذه الاصوات يهز كل نفس .

وامسكت الام بيد نيقولا ، واخذت يد شخص آخر ، وكـانت الدموع تخنقها ولكنها لم تكن تبكي ، وانما كان ساقاها يرتعشان : فتقول متلجلجة :

ـ ابنائي .

وتلألأت في وجه نيقولا المجدور بسمة عريضة ، ورنا الى العلم هاتفـا بكلام لا يفهم ، باسطا ذراعه نحوه ، ثم لم يلبث ان ارخى يده فجأة ، وامسك بعنق الام واحتضنها ثم راح يقبلها .

وطغى على ضجيج الحشد صوت البيوروسي ، الهادىء العذب :

ـ ايها الرفاق :

باسم اله جديد يسير الآن موكبنا ، باسم اله النور والحقيقة ، الــه العقل والخير . ان هدفنا ناء عنا ، ولكن تيجان الشوك قريبة دانية؛ فليبتعد عنا اولئك الذين لا يثقون بذواتهم ، والذين يخافون العذاب ، نحن ندعو الينا اولئك الذين يؤمنون بانتصارنا ، اما الذين لا يبصرون هدفنا ، فليبتعدوا لان الشقاء وحده هو الذي ينتظرهم . ايها الرفاق . رصوا صفوفكم . عــاش عيد الاحرار ، عاش اول ايار .

وازداد ازدحام الجمهور ولوح بول بالعلم الذي انتشر وخفق متألقـا تحت الشمس في بسمة عريضة حمراء .

وجلجل صوت ثيومازين راعدا :

ـ ايها المعذبون في الارض هبوا .

ورددت عشرات الاصوات في موجة عذبة عارمة :

ـ يا ضحايا الجوع هبوا .

وكانت على الشفاه بسمة تحرقها . وكانت الام تسير وراء مازين ، وترنو الى ابنها ، والعلم الذي يحمل . وحولها تتراقص وجوه مستبشرة . وعيون من كل لون .

وكان ابنها واندريه في الصف الاول . انها تسمع صوتيهما : لقد كان صوت اندريه العذب الخافت . يمتزج ودودا بصوت بـول الممتلىء الاكثر خفوتا :

« ابها المعركه الفاصلة . . .

فلنوحد صفوفنا . لنوحدها فغدا . . . »

وكان الناس يتراكضون لاستقبال العلم الاحمر صائحين ، فيختلطون بالجمع ، وينطلقون معه ، وكانت الصيحات تذوب في انغام النشيد ، هذا النشيد الذي كان ينخفض به الصوت في المنزل ، فاذا به ينحدر في الشارع كنهر هائل القوة ، سوي لا التواء فيه ولا عوج . انه يهدر بصوت البسالة ، فاذا كان هذا الصوت يهب بالقوم ان يسلكوا الطريق الطويل الذي يفضي بهم الى الغد . فانه ليحدثهم في الوقت نفسه ، وبصراحة ، عن تجارب هذا الطريق . . تجاربه الرهيبة . وفي اللهب الهادىء الكبير : كانت تذوب رواسب الماضي السوداء ، والكتلة الثقيلة ، كتلة العواطف المعتادة ، ويتحول الخوف اللعين الى رماد .

وكان الى جانب الام وجه مجهول ، يختلط في ملامحه الذعر والبشر معا ، ويترنح على انغام النشيد ، وصوت تهزه الزفرات يرتفع صائحا :

ـ متري . . الى اين ؟

واجابتها الام دون ان تتوقف :

ـ دعيه . لا تقلقي عليه . لقد كنت مثلك ايضا كثيرة الخوف ، ولكن ابني الآن في الطليعة . انه ذاك الذي يحمل العلم .

ـ الجنود هناك . . فالى اين تذهبون ايها اللصوص .؟

وصرخت السيدة الفارعة النحيلة فجأة ، وتشبثت يدها الهزيلة بذراع بيلاجي :

ـ انهم ينشدون . . ومتري ايضا ينشد معهم .

فغمغمت الام : لا تقلقي ، هذا شيء مقدس ، واذكري ان المسيح ما كان ليكون لولا أن وجدت هناك فئة تموت من اجله .

لمعت هذه الفكرة فجأة في ذهنها ، فأذهلتها بما فيها من حقيقة بسيطة متألقة ، فرمقت السيدة التي كانت تشد على ذراعها ، ورددت بابتسامة ذاهلة :

ــ ما كان المسيح ليكون لولا ان كانت هناك فئة ماتت من اجله . من اجل سيدنا .

وظهر سيزوف بجانبها ورفع قبعته ولوّح بها على انغام الاغنية :

ــ انهم يسيرون بحرية يا اماه اليس كذلك ؟ لقد اخترعوا نشيدا . ويا له من نشيد .. اليس كذلك يا اماه ؟

ثم اضاف : انهم لا يرهبون شيئا .. ولكن واحسرتاه ... ان ابني في لحده ..

واخذ قلب الام يخفق بعنف ، فتباطات في المسير ، ثم لفظها التيار جانبا فاذا بها تجد نفسها منزوية امام احد الاسوار ، في حين كانت الموجة البشرية العارمة تندفع امامها ، فتدرك معها ان الحشد كان هائلا ، وهذا ما يدخل السرور الى قلبها :

ــ ايها المعذبون في الارض ، هبوا .

لكأن نفيرا ضخما كان يدوّي في الفضاء ، يدوي فيلهب الناس ويوقظ في البعض الميل للصراع ، ويوقظ في الآخرين فرحا غامضا وتطلعا حارا ، واحساسا مسبقا بحدث جديد . انه يبعث هنا قلق الامل ، ويطلق هناك سيل الحقد المر ، الحقد المتراكم عبر السنين .

وكان الناس جميعا يرنون بابصارهم الى الامام ، الى حيث كان العلم الاحمر يتمايل ويخفق . وزمجر صوت متحمس :

ــ ها هم اولاء قد انطلقوا ، برافو ايها الصغار .

وكان صاحبه يعاني بلا شك احساسا اكبر من ان تستطيع الكلمات العادية التعبير عنه ، فراح يشتم باندفاع ، ولكن الحقد القاتم الاعمى ، حقد العبد ، كان يعج كالافعى ، ويتلوى في كلمات مسعورة ، ثم يزيده استعارا ، ذلك النور الذي كان يكشفه للابصار .

وهتف احدهم بصوت محطم وهو يلوّح من احدى النوافذ ، بقبضته مهددا .

ـ ايها الهراطقة .

وانطلق عواء مزعج مقذاع اخترق سمع الام :

ـ اضد الامبراطور ؟ اضد جلالة القيصر هذه الثورة ؟

وكانت الوجوه المذعورة تعبر سراعا بقربها ، انهم رجال ونساء يقفزون ويتراكضون . وكان الحشد يندفع كسيل بركاني قاتم ، يقوده النشيد، هذا النشيد الذي يبدو كأن نبراته القوية تكتسح كل شيء ، وتكنس كل ما تصادفه في طريقها .

وكانت الام ترى في البعيد ، العلم الاحمر ، ولا ترى ابنها ، بل تتخيل وجهه بجبينه البرونزي ، ونظرته المتأججة بلهب الايمان .

وها هي ذي في الصفوف الاخيرة من الحشد ، بين اولئك الذين كانوا يسيرون دونما تزاحم ، ويتطلعون الى الامام بلا مبالاة ، يتطلعون بفضول باهت بارد كفضول ذلك المتفرج الذي لم تعد عقدة المسرحية سرا مغلقا عنده ؛ ويسيرون ويتحدثون بصوت منخفض وبكثير من الوثوق :

ـ يوجد قرب المدرسة فرقة اخرى في المعمل .

ـ لقد وصل الحاكم .

ـ اصحيح ذلك ؟

ـ لقد رأيته بأم عيني .

واطلق احدهم بعض الشتائم بمرح ، وقال :

ـ ومع ذلك فقد بداوا يخشوننا ، نحن الآخرين . انهم يرسلون الينا الجند والحاكم . .

وكانت هذه الكلمات تخفق في صدر الام : ايه يا صغاري الاعزاء .

غير ان اولئك الذين يضطربون حولها كانوا فاقدي الحيوية باردي الاعصاب ، فغذت من خطاها ، لتبتعد عنهم ، عن رفاق الصدفة ، ولم تجد اي عناء ؛ في تخطي زحفهم البطيء الكسول .

وفجاة بدت طليعة الموكب كأنها تصطدم بعقبة ما ، فتردد الحشد الطويل في سيره دون ان يتوقف ، وانتظمه صخب قلق ، واضطرب النشيد قليلا ، ولكنه لم يلبث ان انطلق اقوى من ذي قبل واسرع نغما ، ومن جديد، انخفضت موجة الاصداء الكثيفة ، وانكفات الى الوراء ، ثم خرست الاصوات

واحدا بعد آخر ، وتعالت هتافات من هنا وهناك لتعيد الى الجوقة كمال روعتها . ولتدفعها الى الامام :

« ايها المعذبون في الارض هبوا ،
« يا ضحايا الجوع هبوا .. »

ولم يكن في هذا النداء ، ذلك الجرس نفسه المليء باعتداد الرجولة ؛ بل لقد بدأت تحس فيه ، على كل حال ، ارتعاشة القلق .

وكانت الام لا ترى شيئا ولا تعرف مـاذا يجري في الطليعة ، لذلـك راحت تخترق الجموع ، وتشق بسرعة لنفسها طريقا ، وكان الناس ينكفئون عنها ، فتنحني رؤوس ، وتعبس وجوه ، ويبتسم البعض بارتباك ، ويصفر آخرون ساخرين ، وكانت هي تتفحص الوجوه مغمومة ؛ وفي عينيها سؤال وتوسل ونداء ..

وتعالى صوت بول :

ـ ايها الرفاق . ان الجنود بشر مثلنا . انهم لن يعتدوا علينا بالضرب. علام يفعلوا ذلك ؟ الأننا نحمل الحقيقة التي يحتاجها كل الناس ؟ والتـي يحتاجونها هم انفسهم ؟ انهم لم يدركوها حتى الآن ، ولكنه لم يعد بعيـدا ذلك اليوم الذي يقفون فيه ، هم ايضا الى جانبنا ، ويسيرون ، لا تحت راية النهب والقتل ، بل تحت رايتنا نحن ، راية الحرية . ولكي يدركوا سريعـا حقيقتنا ، ينبغي ان نكون في الطليعة .. فالى الامام يا رفاقنا .. الى الامام دومـا .

وكان صوت بول حازما ، وكانت كلماته تدوي في الفضاء واضحة جلية، ولكن الحشد كان يتفرق ويتبدد ذات اليمين وذات الشمال ، وكـان افراده يعدون جماعة بعد اخرى ، نحو المنازل ؛ وهم يحتمون بظل الاسوار .

ولم يبق من الموكب الا شكل زاوية كان بول طرفها ، وكان علم الطبقة الكادحة يرف فـوق راسه احمر قانيا ، وكـان الحشد كطائر اسود ينشر جناحيه واسعين ويقف متربصا متأهبا للارتفاع والتحليق ؛ وكان بول هـو منقر ذلك الطائر .

- ٢٨ -

ووقع بصر الام في طرف الشارع ، على جدار يكفكف من طول الساحة، جدار اغبر من رجال لا وجوه لهم ، رجال موحدي الزي تلمع فوق منكب كل

منهم شفار حربة ماضية الحد . ومن هذا الجدار الصامت الجامد خيل للام ان ريحا صرصرا كانت تهب على العمال ، وتجتاح قلبها .

وتغلغلت في الصفوف لتنضم الى اولئك الذين كانت تعرفهم : لقد كانوا في المقدمة بالقرب من العلم ، ينصهرون في الجمع الذي تجهل ناسه ، كأنهم انما يلتمسون في هؤلاء المجهولين سندا لهم : والقت نفسها امام رجل امرد فارع القامة . راحت تزحمه ، وكان صاحبنا اعورا ، فأدار راسه بحركة سريعة ليحدق فيها ويسألها :

ـ ماذا تريدين ؟ ومن انت ؟

واجابت : « اني والدة بول فلاسوف » . واحست بساقيها ترتعشان وبشفتها تتدلى بحركة لا ارادية .

وقال الاعور : حسنا .. ولم يزد .

واستأنف بول كلامه : ان الحياة ايها الرفاق . الحياة كلها امامكم ، وليس لنا من طريق سوى هذا الطريق ..

.. وخيم صمت متربص ، ثم ارتفع العلم ورفرف ، وخفق بهدوء فوق الرؤوس . ومضى دون تلكؤ نحو الجدار الاغبر ، جدار الجند .

وعرت الام رجفة فاغمضت عينيها ، واطلقت زفرة . وكان بول واندريه وساموالوف ومازين وحدهم ينفصلون عن الحشد .

وتعالى صوت مازين صافيا هادئا : « لقد كنتم الضحايا » ..

وردد وراءه صوتان خفيضان ، اصمان كزفرتين عميقتين :

ـ « الضحايا لعراك مشؤوم » .

واستأنفت الجموع سيرها وهي تركل الارض بخطى موزونة ، وارتفع ثانية نشيد جديد حازم النبرات ساحر ، ورنم ثيو بصوته العذب المدوي :

ـ « ولقد وهبتمونا كل شيء » .

وردد الرفاق وراءه في جوقة : وهبتمونا الحرية .

وصرح احدهم بخبث : اوه ، آوه ، لقد بدأتم تنشدون نشيد الموتى يا ابناء الكلاب ؟

ودوت صيحة مسعورة : اقتلوه ، اقتلوه .

وشدت الام بيديها على صدرها ، وتلفتت فيما حولها ، فرأت الحشد

الذي كان يملأ الشارع بكتلته المتراصة ، يستمر في مكانه حائرا ، ويتطلع الى حملة العلم الذين انفصلوا عنه .

وكانت بضع عشرات من الرجال فقط تسير وراء هؤلاء . وعند كل خطوة يخطونها الى الامام ينفصل عنهم واحد ، فيقفز الى الرصيف كما لو كان بلاط الشارع يتأجج نارا يحرق لظاها النعال .

وبشر النشيد على شفتي ثيو :

ـ والطغيان سينهار .

ورددت وراءه جوقة الاصوات القوية الواثقة المتوعدة :

ـ وسينهض الشعب .

ومن خلال انغام النشيد ارتفعت كلمات باردة :

ـ تحت امرتي .

ثم جلجلت صيحة وحشية : شرّعوا الحراب .

ورسمت الحراب في الفضاء خطا محدودبا ، ثم نكست . وامتدت باتجاه العلم هازئة متحدية .

ـ الى الامام سر .

وقال الرجل الاعور وهو يدس يديه في جيوبه :

ـ ها هم الاولاد قد زحفوا .

ثم ابتعد بخطى سريعة . وكانت الام ترنو جامدة العينين .

وثارت الموجة الغبراء ، موجة الجند تملأ عرض الشارع ، واندفعت الى الامام بحركة آلية رتيبة ، وهي تدفع امامها مشطا تتناثر فيه اسنان الفولاذ اللماعة .

وبخطى سريعة اقتربت الام من ابنها ، فرات اندريه يتقدم ليقف امامه ويحميه بقامته المديدة .

وصاح بول بصوت خشن النبرة :

ـ عد الى جانبي يا رفيق .

وكان اندريه ينشد شامخ الراس ، وهو يشبك يديه وراء ظهره ، ولكن بول دفعه من كتفه وصاح به ثانيا :

ـ عد الى جانبي فلا يجوز ان تتقدمني ، لان العلم يجب ان يكون في الطليعة .

وبصوت شرس صرخ ضابط صغير تأفه ، وهو يهز سيفه المسلول . .
ـ تف . . ر . . . ق . . . وا .

وكان يمشي رافعا رجليه الى اعلى ، ودون ان يثني ركبتيه ؛ ويخطو فيمس الارض بشكل مستفز . واستلفت بريق جزمته نظر الام .

والى جانبه كان يدب بتثاقل ، رجل حليق الوجه ، مديد القامة ، كثيف الشاربين اغبرهما ، يرتدي معطفا رمادي اللون ، يبطنه قماش احمر ، وتزين بنطاله الواسع الرجلين شرائط صفراء ، وكانت يداه ، كالبيوروسي ، وراء ظهره ، وحاجباه الكثيفان الاغبران مرتفعين ، وكان يرنو الى بول .

وكان بصر الام يمتد ، وفي صدرها تتجمد صرخة ، تظل على وشك الانفجار والانفلات مع كل زفرة ، وكانت هذه الصرخة تخنقها ، ولكنها كانت تمسكها فتشد صدرها بكلتا يديها : وكانت تترنح وهي تدفع من كل جانب ، فلا تقف بل تستمر في تقدمها دونما تفكير او وعي ، وكانت تشعر ان عدد الناس وراءها يتضاءل بلا انقطاع ، وان الموجة الجليدية تتقدم للقائهم وبعثرة صفوفهم .

وكان الشبان حملة العلم الاحمر ، والسلسلة الكثيفة من الرجال الغير يتدانون باستمرار ، وكان من الممكن تبين وجوه الجند بوضوح ، هذه الوجوه التي كانت كأنها تتسع فتسد الشارع كله ، وتنبسط ممسوخة على شكل شريط ضيق من الصفرة القذرة ، ثبتت فيه ، ودونما ترتيب ، عيون مختلفة الالوان ، والتمعت من خلاله رؤوس الحراب الدقيقة بألق وحشي .

وكانت هذه الحراب المسددة الى الصدور تبعثر الحشد قبل ان تمسه وتفتته واحدا بعد واحد . .

وسمعت الام وراءها خطى اولئك الذين كانوا يولون الادبار هاربين ، وتعالت اصوات كئيبة مخنوقة :

ـ ايها الشباب تفرقوا .
ـ انج بنفسك يا فلاسوف .
ـ الى الوراء يا بول .
وقال فيسوشيكوف متجهم الاسارير :
ـ الق الي بالعلم يا بول ، اعطنيه لاخبئه .
وامسك بالسارية وشد العلم الى الوراء ؛ ولكن بول صاح به :
ـ دعه .

وسحب نيقولا يده كأن جمرة لذعتها ، وكان النشيد قد خفت وانطفأ . فتوقف الشبان واحاطوا ببول كسلسلة كثيفة ، ولكنه استطاع ان يخرق الحصار . وفجأة ، خيم الصمت ، كأن سحابة شفافة لا منظورة هبطت فغطت المتظاهرين .

وتحت العلم كان يقف بصمود نحو من عشرين رجلا لا اكثر ، وقد ساور الام الجزع عليهم واحست برغبة غامضة في ان تقول لهم شيئا ما .

وارتفع صوت رتيب هو صوت العجوز الفارع القامة :

ـ يا ملازم . آتني به .. هذا الشيء .

ومد يده يشير الى العلم .

وهرول الضابط الصغير نحو بول ، وامسك بسارية العلم وصاح بصوت نفّاذ :

ـ اتركه .

واجابه بول بصوت قوي : انزل يديك .

ورف العلم في الفضاء احمر قانيا ، وترنح ذات اليمين وذات الشمال ثم لم يلبث ان انتصب شامخا من جديد ، وارتد الضابط الصغير الى الوراء ، ووقع ارضا . ومر فيسوشيكوف امام الام بسرعة لم تستطع معها ان تتميزه ، مر ممدود الساعد ، مشدود القبضة .

وزمجر العجوز وهو يرفس الارض بقدميه :

ـ اوقفوهم .

واندفع بعض الجنود ، وهز احدهم عقب بندقيته ، فخفق العلم مرتعشا ، ثم نكس ، واختفى في زحمة الحشد الاغبر ، حشد الجنود .

وتعالت صيحة اسى واطلقت الام صرخة بل زأرة ، ولكن صوت بول الداوي ارتفع من بين الجند : الى اللقاء يا اماه ، الى اللقاء ايتها الام الغالية .

وملأت هاتان الفكرتان قلبها : انه ما زال حيا .. انه يفكر بي .

وتطاولت على رؤوس قدميها ملوحة بيديها ، جاهدة في ان تراهما ، غير انها لم تر ، فوق رؤوس الجند ، الا وجه اندريه المستدير . فأبتسمت له وحيته وصاحت :

ـ يا ولدي الحبيبين ، اندريه ، بول .

ـ الى اللقاء ايها الرفاق .

وردت عليهما اصداء متعددة ممزقة ... كانت تتناهى الى سمعها من النوافذ وسطوح المنازل .

- ٢٩ -

وارتطم احدهم بصدرها ؛ ومن خلال الضباب الذي كان يغشي عينيها، رات الضابط الصغير ينتصب امامها محتقن الوجه ، ويصرخ في وجهها :

ـ تنحي ايتها الشمطاء .

وانزلق بصرها نحوه ، فأبصرت سارية العلم محطمة ، عند قدميه ، وممزقة من القماش الاحمر ما تزال معلقة باحد جزئيها ؛ فانحنت والتقطتها ، ولكن الضابط الصغير ، انتزعها من يدها ، ورمى بها جانبا ، وهو يرفس الارض بقدمه صائحا :

ـ قلت لك ، اغربي من وجهي .
ومن بين الجنود تفجر النشيد ، وهمت نبرآته :
ـ ايها المعذبون في الارض هبوا .

واضطرب كل شيء كأنما لفته رعشة ودوار ، وملأ الفضاء طنين كطنين اسلاك البرق ، فقفز الضابط ونبح بضراوة :

ـ اسكتهم يا رقيب كرينوف .

واقتربت الام وهي تترنح ، فالتقطت ثانية ، حطام السارية التي قذفها الضابط :

ـ اخرسهم يا كرينوف .

وغام النشيد ، واخذ يتناهى الى الاسماع متقطعا ، ممزقا ... ثم انطفأ .

وامسك احد الجنود بكتفي الام ، وشدها فاستدارت نصف استدارة، ثم دفعها من خلف صائحا : اغربي ، اغربي .

وصاح الضابط بجنوده : هيا ، نظفوا الشارع .

وابصرت الام على بعد خطوات منها ، حشدا يتكثف من جديد، وسمعت الناس يزمجرون ويهمهمون ويصفرون ، وكانوا ، وهم ينكفئون ببطء نحو آخر الشارع ، ينتشرون في الساحات المجاورة .

وصرخ في اذنها جندي شاب ذو شاربين ، ودفعها الى الرصيف عندما حاذاها قائلا :

ـ اغربي ايها الشيطان .

وانطلقت مقوسة الساقين تتوكأ على بقايا السارية ، وتستند بيدها الاخرى ، كيلا تسقط ، الى الجدران والاسوار .

وكان الناس امامهـا يتراكضون ، ووراءهـا وحولها يندفـع الجند صائحين :

ـ تفرقوا ، تفرقوا .

وتخطاها الجند ، فتوقفت تدير بصرها فيما حولها :

كان عدد من الجنود يتمركزون في طرف الشارع على شكل سلسلة متباعدة الحلقات فيعزلون بذلك قسما من الساحة كان مقفرا . وفي الامام . . . كانت الاشباح الرمادية الغبراء تتجه ببطء نحو الجماهير .

وارادت ان تنكص على عقبيها ، ولكنها ، كانت ، دونما وعي منهـا ، تتقدم باستمرار حتى اذا بلغت زقاقا ضيقا ، اقفر من الناس ، اندفعت فيه .

وتوقفت ثانية ، وزفرت بعمق ، ثم اصاخت بسمعها قليلا ، فتناهت اليها اصوات تدندن في زاوية من زوايا الزقاق .

وكانت ما تزال تتوكأ على بقايا السارية ، فعادت الى المسير وهي تحرك حاجبيها . وفجأة تندى جبينها ، وارتعشت شفتاها ، وتحركت يدهـا ، وتفجر في قلبهـا لهيب من الكلمات ، تجمـع ، فأجج فيها الرغبة الحـارة الطاغية ، في ان تصرخ بهذه الكلمات عاليا .

وكان الزقاق ينعطف الى اليسار ، حيث ابصرت جماعة تستلفت النظر ، وكان صوت قوي النبرة يتعالى :

ـ ايها الفتيان لن نستطيع ان نتحدى الحراب بالطيش !

ـ أرأيتم ؟ لقد مشى الجند فوقهم ، مشوا فوقهم وهم لا يتحركون . ان فتياتنا الاغرار هؤلاء لا يعرفون الخشية !.

ـ يا له من فتى . . . بول فلاسوف ؟

ـ والبيوروسي ؟

ـ يداه وراء ظهره ، والبسمة على ثغره . لقد كان البهيم . .

وصاحت الام وهي تشق طريقا بينهم :
ـ يا اصدقائي . ايها القوم الطيبون ...
وافسحوا لها طريقا ، ولكن واحدا من بينهم اخذ يضحك :
ـ انظروا ... انها تحمل العلم . انه في يدها .
وارتفع صوت فيه قسوة : اخرس .
وفتحت الام ذراعيها واسعين :

ـ بحق يسوع اصغوا اليّ . انكم جميعا منا ، وكلكم من ذوي القلوب الطيبة ، افتحوا عيونكم وحدقوا دونما خوف فماذا ترون ؟ ان ابناءنا ، بل دمنا ، يهبونَ في كل مكان من اجل الحقيقة ، من اجل الجميع . انهم يسيرون في طريق الجلجلة من اجلكم جميعا ، من اجل صغاركم . انهم ينشدون النور ، ويهدفون الى حياة اخرى في ظلال الحقيقة والعدالة . انهم يبغون الخير للجميع .

وكان قلبها يتمزق وصدرها يضيق ، وحنجرتها جافة محمومة ؛ وفي اعماق اعماقها كانت تولد كلمات حب شامل ، يسع الاشياء كلها والكائنات كلها ، كلمات تحرق فمها وتزدحم على شفتيها وهي تتنامى قوة وسهولة .

وكانت ترى انهم يصغون اليها جميعا صامتين ، وتدرك انهم كانوا يفكرون وهم يتألبون حولها ؛ وكانت تنمو فيها رغبة ، توضحت الآن جيدا في وعيها ، رغبة في ان تدفعهم الى هناك ، نحو ابنها ، نحو اندريه ، نحو اولئك الذين تركوا في ايد الجند ، وخلّفوا وحدهم .

واستأنفت كلامها بهدوء وقوة ، وهي تنقل بصرها فوق الوجوه المتجهمة المتربصة :

ـ لقد انطلق ابناؤنا بالعالم نحو الفرحة ، يحدوهم الحب للجميع ، الحب للحقيقة ، حقيقة يسوع . انهم يحاربون كل ما يستخدمه الاشرار فينا والخهاعؤن والشرهون من وسائل ليبقونا سجناء ، ليثقلونا بالاغلال ، ليسحقونا . من اجل الشعب كله يا اصدقائي يثور شبابنا ، بل دمنا . من اجل العالم بأجمعه ، من اجل العمال جميعا ينطلقون ، فلا تتخلوا عنهم ولا تتنكروا لهم . لا تدعوا ابناءكم يسيرون في طريقهم وحدهم . ارافوا بانفسكم . ثقوا بقلوب ابنائكم ، فهم يصنعون الحقيقة ، ومن اجلها يموتون . ثقوا بهم .

وخفت صوتها وترنحت خائرة القوى ، وامتدت يد الى خصرها تسندها . وصاح واحد من بين الجمع ، مقنّع النبرة منفعلا :

ـ ان صوت الله هو الذي يتكلم ، صوت الله ايها القوم ، فأصغوا اليه .

وصاح آخر مشفقا : لقد صمتت المسكينة .

ـ انها لم تصمت ... ولكنها تصفعنا نحن ، فيا لنا من سفلة ... أفهمت ؟ وتهادى فوق الجمع صوت مرتعش حاد النبرة .

ـ ايها المؤمنون .. ماذا فعل ابني متري ... هذه الروح النقية ؟... انه تبع رفاقه ، رفاقه الاعزاء ...

ـ انها تقول الحق ، فلم نتخلى عن ابنائنا ؟ واي اذى الحقوه بنا ؟
وقال سيزوف : عودي الى منزلك يا بيلاجي . اذهبي فانت مرهقة .
وكانت شاحبة الوجه .

وكان هو ايضا شاحب الوجه ، ترتعش لحيته المشعثة ، وفجاة ، قطب حاجبيه ، وحدج الجميع بنظرة قاسية ، ثم انتصب ، وقال بنبرة واضحة :

ـ لقد سحقت احدى الآلات في المعمل ولدي ماثيو ، انتم تعلمون ذلك، ولكنه لو كان على قيد الحياة ، لدفعته بنفسي الى صفوفهم، ولارسلته ليكون معهم ، ولكنت قلت له :

« انطلق انت ايضاً يا ماثيو ، انها قضية عادلة . انطلق واد واجبك .

وتوقف عن الكلام ، اما مستمعوه فقد كانوا صامتين متجهمي الملامح، يسيطر عليهم احساس عظيم جديد ، لم يعد يرهبهم . ورفع سيزوف ذراعه، ولوح به ثم اردف :

ـ ان من يخاطبكم رجل مسن . انكم تعرفونني ، فانا اعمل هنا منذ تسع وثلاثين عاما ، وقد انسلخ من عمري في هذا العالم الدنيء ثلاث وخمسون . لقد قبضوا اليوم من جديد على حفيدي ، وهو فتى ذكي انيق كان يسير في الطليعة ، بجانب فلاسوف وراء العلم مباشرة .

ولوح بذراعه ثم انحنى فامسك بيد الام :

ـ هذه السيدة قالت الحقيقة . آن ابناءنا ينشدون العيش الشريف الذي يرتضيه العقل . ولقد تخلينا نحن عنهم ، اجل ... لقد هربنا ... اذهبي يا بيلاجي .

وقالت بيلاجي وهي ترنو الى الجمع بعينيها الغائمتين بالدمع :

ـ يا اصدقائي الطيبين . لقد اوجدت الحياة من اجل الابناء، والارض من اجلهم صنعت .

فقاطعها سيزوف وهو يناولها حطام السارية :
ـ خذي هذه العصا يا بيلاجي ، وهيا .

وكانوا يرمقون الام بألم يمازجه الاحترام ، وتسير هي وقد احيطت بجو من التعاطف ، ويشق لها سيزوف ـ وهو صامت ـ طريقا بينهم ، فيفسحون الطريق دون ان تند عنهم كلمة ، ثم يسيرون وراءها على مهل تدفعهم قوة سحرية ، ويتبادلون العبارات القصيرة بهمس .

وعند باب منزلها استدارت نحوهم وهي تتوكأ على جذع السارية ، فحيتهم وقالت لهم ممتنة : شكرا لكم .

وتذكرت الفكرة ، الفكرة الجديدة الحبيسة في صدرها فقالت :
ـ ما كان سيدنا المسيح ليكون لو لم يمت الناس في سبيل مجده .

وكان مشيعوها يحدقون بها صامتين ، فانحنت لهم ثانية ، ودخلت منزلها ، ودخل وراءها سيزوف محني القامة ، وظلوا في مكانهم يتبادلون الراي ، ثم لم يلبثوا ان تفرقوا ببطء .

